

رواية

النَّبْضُ صَفْرٌ

(أنا الموءودُ فوق الأرض، وأنا مَنْ يَحْيَا تحتها)

عبدالرحمن جاويش

عنوان الكتاب : النَّبْضُ صَفْرُ
المؤلف : عبدالرحمن جاويش
المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس
الإخراج الداخلي : رشا عبدالله
تصميم الغلاف : عبدالرحمن حافظ
رقم الإيداع : 3769 / 2017
ردمك : 3-3-6549-977-978
الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هاله البشيشي
المدير التنفيذي : شريف الليثي



دار تويّا للنشر والتوزيع



dartoya2015@gmail.com



دار تويّا للنشر و التوزيع Dar.toya



@Dar_Toya



Dar.toya



(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014



٣٥ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

رواية

النَّبْضُ صِفْرٌ

(أنا الموءودُ فوقَ الأرضِ، وأنا مَنْ يَحْيَا تحتَها)

عبدالرحمن جاويش

دار تويلا للنشر والتوزيع

إهداء..

- إلى أخي الأكبر والوحيد.. بك أكتفي عن الجميع، دُمت لي.
- إلى كل من عاش حياته دون أن يَغترَّ بها.. ولكلِّ مَنْ مات راضيًا عمَّا فعل.
- إلى يحيى الطحاوي.. الذي أصرَّ على أن يحيي نصيبه من الرواية بنفسه؛ فشاركني الحكي، وتشاطرنا الوجع.

الخاتمة

كم أكره القيادة وقت الغروب.. خاصةً حين يكون الطريقُ وعراً مُترَبًا كمعظم الطرق التي تؤدي إلى المقابر، وحين تجلس إلى جوارِي أنثى لا تكفُّ عن النحيب. لم يتوان هاتفي المحمول عن إصدار ذلك الصوت المزعج.. فتحتُ "تابلوه" السيارة بحثًا عنه لأخرسه فلم أجد إلا كتابًا يحملُ اسمي مُدرجًا فوقه بخطُّ أكبر عنوان: "العودة من الموتِ إلى الموتِ"، أعدتُ النظر إلى الطريقِ فلم يملأ عينيَّ إلا الغبارُ الذي نثرته عجلاتُ السيارة، أخبرتُ تلك النواحة بجانبِي أن تبحت عن الهاتفِ فوق الأريكة الخلفية للسيارة.. تلتفتُ لتأتيني بقطعةٍ من الرخام خفيفة الوزن محفورٍ عليها اسمي مسبقًا بوصف "المغفور له"، ومخطوطًا فوقه آية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾.

أدركتُ أنني قد اقتربتُ من وجهتك، تأخذني عيناك للنظر في المرآة المثبتة داخل السيارة لأطالع ذلك الكائن الذي صرته؛ لا أعرف ما هو ولكنني أدركُ جيداً أنه لا ينتمي إلى أيِّ من عالمي الأحياء ولا الأموات.. كم تغيَّر شكلي بعد الحادثة، وكم تغيَّرت طباعي وميولي ورغباتي ونظرتي للأشياء..

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود؟!

من الجيد أنني لم أدهسه، حسبي ما تحمله رقبتني من دمٍ قد سال أثناء رحلتي في العودة إلى الحياة.. أوقفت سيارتي لأوقف معها عاصفة الغبار التي كانت تُبارك رحلتي، ترجَّلت منها بخطى غير ثابتةٍ مُستمدًا قوتي من ضعفها.. تردَّدت قليلاً قبل أن تلحق بي.

حاولتُ تلاوة بعض الآيات القرآنية، ولكنني لم أتذكر منها إلا تلك المحفورة على قطعة الرخام، فلم أفعل.. أفزعني نباح الكلب الناجي من عجلات سيارتي وكأنه يسبني على تهوُّري في القيادة، اختلط صوته برائحة الغبار المنثور ومع منظر شواهد القبور الصامتة من حولي ليصنعوا مزيجاً مُزعجاً نجح في التشويش على حواسي وعكر صفاء أفكاري.. وجدتُ هاتفني أخيراً في أرضية السيارة أثناء نزولي منها.. فحصته سريعاً لأجد رسائل التعازي تنهال عليّ، وجدتُ عددًا من المكالمات الفائتة التي يتمنى لي أصحابها الصبر

والسلوان وما إلى ذلك من عبارات نعي الجرائد التي لا معنى لها، والتي كانوا يقولونها لأقاربي منذ فترة كثرَاءٍ حزينٍ على وفاقي.. لا وقت للردِّ عليهم.

أحاول فتح بوابة الحوش الذي يضمُّ مقابر جميع أفراد عائلتي.. مُمسكًا بيدي مفتاحًا صغيرًا وباليد الأخرى ذلك القفل الصدئ الذي لم يتغير منذ أمدٍ بعيدٍ، تستقرُّ فوق رأسي لافتةٌ ضخمةٌ مهيبَةٌ كُتِبَ عليها بخطُّ رُقعة أسود اللون: "مدافن عائلة الطحاوي".

الكما هو واضحٌ فهذا اسم عائلتي إذا كنت ممن يهتمون بالأصول، أما إذا كنت ممن يهتمون بالأسماء الأولى فيمكنك مُناداتي يحيى؛ أنا الموءودُ فوق الأرض وأنا من يحيا تحتها. أعرفُ أن حديثي مُبهمٌ مُشتت بلا رأس ولا جسد، كنتُ أرغب أن تطول تلك اللحظات لألتقط أنفاسي وأخبرك بالتفصيل كيف حدث ما حدث، ولكن القفل استجاب الآن لمفتاحي، وحانت لحظةُ الحساب..

وصول متأخر

الأربعاء 1 فبراير 2006

استيقظ شكري الطحاوي على صوت جرس الباب الذي أن من شدة الطرقات المزعجة المنهالة عليه، لحوحةً هي مثل أبواقٍ في كتيبة جيشٍ تبتز نوم المُجَنِّدين.. صاح بكلماتٍ غير مفهومةٍ ليُخبر الواقف- خلف الباب- أن ينتظر.. مشى حافي القدمين- بغير اتزان- حين فتح الباب لم تظهر عليه الدهشة حين رأى شاباً يرتدي زيّاً عسكرياً وآخر ملبس مدنية، لا بد أنه ضابط، لم يعباُ بهما ووجه حديثه لسيدةٍ تقف خلفهما مُرتديةً عباءةً سوداء اللون:

- جاية لي الحكومة يا زينب لحد البيت.. هي دي آخرة العشرة؟!

قاطع الضابط عتابه قائلاً بلهجة رسمية إن زوجته قد حصلت على حُكم ضده بالملكوث في شقة الزوجية السابقة؛ بحُكم كونها مُطلقةً وحاضنةً لأطفاله. لم يرد شكري فأمره الضابط أن يُخلي الشقة من متعلقاته الشخصية.. نظر إليه شكري مُستنكراً، وقال بلهجةٍ لم تخلُ من طاعةٍ:

- إحنا تحت أمر القانون.. بس لا مؤاخذة الست دي مالهاش في البيت شِبْر.

زفر الضابط بحنقٍ وقال وهو يجزُّ قليلاً على أسنانه أنه مُقدِّرٌ للموقف، ويحترم أن شكري مُدرِّسٌ فاضلٌ ومُربِّ للأجيال.. ولكن يجب عليه أن يسمح له بتأدية عمله وتطبيق القانون، ثم أمره بجمع ملابسه وإخلاء المنزل.. أجاب شكري بأن وجوده قانوني؛ حتى وإن حصلت زينب على الكثير من الأحكام ضده!

أطلقت زينب سبّةً صارخةً دون أن تهتم بإشارة العسكري لها بالصمت، اختلط صياحُها مع صوتٍ أنثوي صادرٍ من داخل الشقة يسأل شكري بلهجةٍ ناعسةٍ عمَّن يقفُ معه على الباب. ردَّ عليها شكري مُطمئنًا لعدم وجود مشكلةٍ، قاطعه الضابط غاضبًا:

- أنت كمان جايب نسوان الشقة؟!.. لِمَ زبالتك دي وامشي بدل ما أقلّ أدبي عليك!

نهاه شكري بلهجةٍ خبيثةٍ عن الخوضِ في سيرة زوجته الجديدة، أخبره أن قسيمة الزواج موجودةٌ بدرج مكتبه بالداخل في حالة أراد التأكد من كلامه. حاول الضابط أن يرفعَ صوته على بكاء زينب المختلط بعبارات نذبِ الحظ، ووجَّه حديثه إلى شكري مؤكِّدًا أنَّه لا شأن له بزواجه من عدمه، وأن ما يعنيه هو تنفيذ الحُكم بقوة القانون، ردًّا شكري بنفس الهدوء:

- جنابك مش مديني فرصة أتكلم.. أنا معاك في كل اللي أنت بتقوله، بس إزاي هاسلم طليقتي شقة مش بتاعتني أصلًا؟

لم يُعطه شكري فرصةً للرد، وأردف كأنه تدرَّب كثيرًا على هذا الموقف.. أخبره أن الشقة تم تأجيرها قبل الطلاق لزوجته الجديدة بعقدٍ مدَّته عشر سنين، وأكمل قائلاً:

- الجماعة الجديدة بقى كتَّر خيرها كانت سيانا نقعد في أملاكها.. يعني قانونيًا ما عنديش حاجة أديها لطيقتي.. وعقد الإيجار جوَّه برضه في نفس الدُرج اللي فيه القسيمة.

لم تحتمل زينب ما سمعت ولطمتْ على وجهها، حاول العسكري الذي تعاطف معها السيطرة عليها بوجهٍ مُنكسٍ وشعورٍ قاتلٍ بالقهر.. طلب الضابط من شكري بلهجةٍ

عملية المستندات التي تُثبت كلامه، وحين تأكد من صحة ادعائه وجّه حديثه للزوجة السابقة:

- للأسف يا مدام زينب جوزك لعبها صح، وطبعًا مش محتاج أقولك إن بعد عشر سنين الأطفال هايكونوا خرجوا من حضانتك.

لم تسمعه من شدة بكائها، فاستدرك الضابطُ أن تنفيذ الحُكم قد تأخّر أوائه ولم يعد له فائدة، نظر إلى شكري وقال له مُبتسمًا:

- ابقى سلّم لي على ناجي الطحاوي.. مش هو المحامي بتاعك؟!

ردّ شكري باستغرابٍ، قائلاً:

- وابن عمي كمان يا باشا.. بس عرفت إزاي مع إني مش موكله رسمي؟!

- شغله باين.. متنساش تقول له ياخذ باله من نفسه.

نظر أمجد بضجرٍ لساعة يده، نزل بنظره قليلاً حتى وصل إلى الدبلة الفضية في إصبعه البنصر، والمحفور عليها بالإنجليزية اسم "إيفلين" الجالسة إلى جواره يبدو عليها الإعياء. كانت بيضاء البشرة، صهباء ذات شفّتين ممتلئتين

وردتني اللون، نُثِرَ النمشُ على وجهها ورقبتها.. حاول أمجد التخفيف عنها فوجّه بصره مباشرةً صوب عينيها الزرقاوين شديقتي النقاء، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- ما عرفش جُبران الزفت ده اتأخر ليه!

أومات برأسها دون اِكتراثٍ، فاقترح أن يذهباً للسوق الحُرّة حتى يصل جبران، أشاحت بيدها طالبةً منه ألا يتحدث كأن هذه زيارتها الأولى لمصر. تعجّب من تغيُّر طبعها من بعد زيارتهم الأخيرة لأهلها في ألمانيا، ردّت بضيقٍ:

- أنت عارف إني كنت عايزة نفضل معاهم في ألمانيا.

سألها مُعاتبًا:

- عايزة تعيشي مع أهلك ولأ عايزة تعيشي في أي مكان برّه مصر.. يعني مثلاً لو رجعنا إنجلترا واشتغلنا هناك.. هايبقى ده موقفك؟!

ردّت بعصبية:

- انس إنك مصري وقول لي ميزة واحدة لقعدتنا في هنا!

أجاب بهدوءٍ أنه إذا أقام في ألمانيا أو إنجلترا سيصبح مجرد طبيبٍ نفسيٍّ مثله مثل آلاف غيره؛ أما في مصر فثقافة الطب نفسيٍّ مُستحدثة عليهم، وقد ازداد الوعي بأهميته مؤخرًا، وبالتالي سترتفع قيمته العلمية في هذا المجال.

عقبت إيفلين بلهجةٍ ساخرةٍ أنه يُريد الإقامة في مصر ليُعاير أبناء بلده ببقائه فيها، ويدّعي عليهم أنه يستحقّ تقديرًا أعلى إذا كان يعيش في بلدٍ ثانٍ، ردًّا بلهجةٍ أقلّ حدةً:

- مش عيب إني أروح المكان اللي تبان قيمتي فيه، بعدين إنتي عارفه أكثر مني إن الفلوس اللي بأعملها في مصر أكثر من أي مكان تاني.

لم ترد إيفلين كعادتها في عدم إكمال النقاش، وسرحت في منظر قاعة الانتظار الخاوية بمطار القاهرة الدولي.. أغراها عقلها ببعض ذكريات الطفولة؛ تذكرت مكوثها في مدينة كولونيا الألمانية برفقة والديها واثنيّن من الإخوة، كانت أكبر الأبناء وعلى الرغم من كونها الابنة الوحيدة.. لكنها استمدّت قوة الشخصية من والدتها كما استمدّت ذلك الشّعْر الناعم أحمر اللون وتلك البشرة المشرقة كشمس الربيع، ونالت من أبيها كل ما هو طفولي في شخصيتها: عنادها الشديد، ورغبتها الدائمة في أن تظفر بفخر من حولها؛ الأمر الذي حفّزها دراسيًّا وجعلها تُصمم على السفر في بعثةٍ متوجهةٍ إلى إنجلترا لدراسة الصيدلة.

وقتئذٍ كان أمجد ذلك الفتى القاهري متفوقًا في كل شيء: بدءًا من الرياضة، مرورًا بتكوين العلاقات الاجتماعية والعاطفية، وحتى التفوق الدراسي الذي أهّله ليدرس الطب النفسي في جامعة بيرمنجهام- حيث قابل إيفلين- بعد

أن أرسل لهم ورقةً بحثيةً نالت إعجابهم.. لم يكن ممن ينهرون ببنات الغرب.. ولكن إيفلين كانت حالةً خاصةً.

قرّر أن يُثير إعجابها على طريقته الخاصة؛ حفظ قصيدة للشاعر الألماني "جوته" وتعمّد أن ينطق معظم كلماتها بطريقةٍ خاطئةٍ، ألقى عليها كلماتِ الشُّعر مثل أسهم خائبةٍ مرتعشةٍ، ضحكت فأدرك نجاح خطته، نجح تمامًا في حجز تذكرةٍ لدخول قلبها. تكلمًا كثيرًا وتشاركًا الكثير من الاهتمامات، لم تخلُ عطلاتهما الأسبوعية من التجوُّل والسفر عبر أنحاء المملكة؛ كثيرًا ما جلسا في ساحة قصر باكنجهام يتحدثان عن موطنيهما في محاولةٍ لإذابة الفروق الثقافية والحضارية بينهما.. علّمته الألمانية، وجعلها تشاهد القنوات المصرية على التلفزيون حتى تتقن اللهجة.. وعلى الرغم من اختلاف الخلفية التي نشأ عليها كلاهما، فقد ارتاحا أكثر حين وجدا نقطة لقاء فكري متمثلةً في الثقافة البريطانية التي تأقلمتا عليها بسهولةٍ.

قبّلها لأول مرةٍ أثناء جلوسهما على ضفاف نهر التايمز، أشعلت هذه القُبلة داخلها ذكرى بعيدةٍ كانت تظن أنها مُحييت إلى الأبد: ذكرى فيليب.. جارها وزميلها في كلية الصيدلة بمدينة دوسلدورف التي لا تبعدُ كثيرًا عن مسكنها بكولونيا، ظنّت لفترةٍ طويلةٍ أنهما قد خُلقا لأجل بعض، لامس شفّيتها لأول مرةٍ على سطح مركبٍ صغيرٍ طافت بهما

نهر الراين.. وبين قُبلة الراين وقُبلة التايمز استعرت جروحٌ
والتأمت أخرى.

قاطع فيضَ ذكرياتها وصولُ جُبران التومرجي والسائق
الخاص بأمجد.. كان صديق طفولته، لكنه لم يُكمل تعليمه
عكس أمجد الذي أثبت نجاحه داخل الدراسة وخارجها
حتى عاد إلى مصر واضعًا اسم "أمجد عمّار" وسط أشهر
الأسماء في عالم الطب النفسي. أشار أمجد لجُبران كي يحملَ
الحقائب وسأله بغضبٍ عن سبب تأخيره دون أن ينظر له،
ردَّ جبران بابتسامةٍ مفتعلةٍ خائفةٍ أنه قد نسي ميعاد وصول
الطائرة، ردَّ أمجد بلهجةٍ عمليةٍ:

- كده هرجع البيت متأخر وأصحى من النوم متأخر
وأروح العيادة متأخر.. مخصوم منك تمن جلسة.

قال جُبران بلهجة توسل:

- بس يا أمجد...

أنهى أمجد الحديث بحزم:

- دكتور أمجد، وكلمة كمان هخصم منك جلسيتين!

حمل جبران الحقائب.. سأله أمجد- دون أن يتخلى عن
لهجته الجادة- عمن سأل عليه أثناء السفر.. ليردَّ الأخيرُ
بلهجةٍ رسميةٍ أن بعض المرضى الذين حجزوا مواعيد الكشف
اتصلوا للتأكيد على حجزهم. قال أمجد باهتمامٍ:

- اتصل بيحيى الطحاوي وقول له إن معاد جلسته هيتأجل لبكرة.

أوما جبران برأسه مُطيعًا، اقترب أمجد من أذنه وهمس قائلاً:

- قولي.. اشتريت له الكفن زي ما قلت لك؟!!

أتميّزني وسط زحام البشر السائرين حولي؟.. طبيعي ألا تعرفني، فمن أنا لتفعل؟!!

لم أعرف كم من الوقت استمرّ تجوّلي الهائم في شوارع القاهرة، ولا كم من المواضع التي تطرّق إليها عقلي؛ سرحتُ في إلحاح زوجتي بأن أعمل وألا أكتفي بالاعتماد على إيراد الأرض التي ورثتها عن أبي والموجودة بقريتي الأم (طحا-الطريق)، تذكّرت إلحاح ناجي المستمرّ بأن أعمل معه في مكتب المحاماة الخاص به، همتُ في ذكريات والديّ الراحلين وعمي عطوة الطامع في كل ما ليس له.

طلبت من خيالي مساعدتي لأجد أي ذكرى تلهيني عن مأساتي الحالية التي تحرمني النوم، حتى وإن أرادته جسدي وألحّ في طلبه.

لم أعتد الخروج من منزلي في الآونة الأخيرة، ولكن ميعادين جعلاني أضطر للنزول: الميعاد الأول كان مع لطفي أبو الخير مدير دار "بصيص" واحدة من كبرى دور النشر والتوزيع في مصر، عرضت عليه منذ فترة مجموعة من القصص القصيرة علّها تُلَاقِي قبوله ويتم نشرها.. ولكن الردّ أتاني صادمًا ظالمًا؛ أخبرني أن ما أكتبه عادي يُمكن لمئاتٍ غيري أن يكتبوا مثله، ولن يلاقي قبول الناس. كنتُ أدرك في قرارتي أنني لستُ بالكاتب المتميز صاحب البصمة الأدبية، ولكن استفزّني أن نفس الدار تنشر أعمالاً أخرى أقل مما أكتب لأغراضٍ تجارية. أنهيتُ المقابلة غاضبًا بعد أن طرحتُ على مدير الدار سؤالاً لم أقف مُنتظرًا إجابته: أنحن من نضع ذائقة القارئ أم أن الجمهور من يُلي علينا ذوقه؟! أما عن الميعاد الثاني فقد تم تأجيله؛ كان لدى صديق عمري والطبيب المشرف على علاجي: أمجد عمّار. لم أنكر يومًا أمام نفسي شعور الغيرة المستحوذ عليّ تجاهه؛ فقد حقق كل أحلامي التي طالما طالتني سهامُ الشغف بها: التحق بكلية الطب وسافر إلى المملكة البريطانية وتزوَّج من حبيبته الألمانية.. في حين لم أغادر مصر، تزوجت من ميّ زميلتي السابقة في عملي بالتدريس، وإلى الآن هو مشروع زواج من أفضل ما يكون.

لم أعرف متى بلغت كوبري قصر النيل. استندتُ إلى سور الكوبري مُتأملًا واحدًا من تماثيل أسود قصر النيل الذي طالما حسدته على شموخه الذي لا يتزعزع.. على الرغم مما يراه من مهازل يوميةٍ تحدث تحت ناظرِيه، بعد أن شهد على حدوث "هوجة" تبعها احتلالٌ، وثورةٌ مدنيّةٌ تبعها استقلالٌ، وأخرى عسكرية تبعها عدوان.. طالعتُ سطح النيل محاولاً أن أرى وجهي الكهل على صفحة مياهه ولكن الظلام منعني، تخيَّلت ملامحي كما أراها مؤخرًا في مرآتي؛ أرى عينيّ بنيتي اللون، منهكتين من قلة النوم، تُحيطهما هالاتٌ وتجاعيد قليلة تشي ببلوغي الأربعين منذ أمدٍ قريبٍ، وذاك أنفٌ كبيرٌ ورثته عن والدي كما ورثت عنه البشرة الخمرية وتساقط جزءٍ كبيرٍ من الشَّعر الأمامي، طالعت على امتداد النيل ظلي الذي يعكسُ طول قامتي وجسدي العريض بعض الشيء. ملحت بطرف عيني صراعًا شفهيًا يدورُ على متن إحدى المراكب النيلية المخصصة لإقامة النزّه والحفلات؛ فتاة ترتدي ملابس ضيقة وتضع المساحيق الرخيصة تتشاجرُ مع من يبدو أنه صاحب المركب.. لم أسمع الكثير مما قيل، لكنني خَمَّنتُ أنها واحدةٌ ممن يحضرهن صاحب المركب لترقص أثناء النزّهة النيلية بغرض جلب الزبائن، يبدو أن الشجار على الأجر أو على طلبه لما هو أكثر من مجرد رقصة.

لم أجد مهربيًا من منزلي سوى زيارة شكري ابن عمي
للسهر معه؛ اعتاد شكري أن يسهر فوق سطح شقته مع
مجموعة من أصدقائه كل يوم أربعاء.. لا يفعلون شيئًا
سوى السكر والغياب عن الواقع، الأمر الذي لا أنشد سواه.

- عينك حمرا أوي يا يحيى.. أنت ما بتنامش ولا إيه يا
بني؟!

افتتح شكري كلامه معي وهو يتحرك من أمام الباب
المؤدي إلى السطح بعد أن صافحني مُرتبًا على ظهري.. كان
شكري قصيرًا نحيلًا ذا رأسٍ ضخمٍ وشاربٍ رفيحٍ يهتم به أكثر
من أي شيء.. قال لي ضاحكًا:

- بطّل توطي أوي كده وأنت بتحضن يا جدع!.. طول
وعرض على الفاضي صحيح.

حيثُ الجالسين، ووجهت حديثي إلى شكري قائلاً:

- بطّل قرّ.. من ساعة ما قعدت في البيت وأنا عمّال
أتخن.

قال شكري بلهجةٍ خبيثةٍ:

- حماتك بتحبك.. جيت وإحنا لسه بنجهز القعدة،
وسايب إزازة "أولد ستاج" تحت في التلاجة بتتشبر.

أبدت قلقي من أن تراها زوجته الجديدة، فأجاب
ضاحكًا أنه خبأها جيدًا، وأن زوجته مشغولة الآن باللعب

مع ابنها الصغير محمد.. استنكرت عليه تركه زوجته لصالح
أرملة، وهجر أطفاله لتربية طفل ليس من صلبه، فأجاب
بصوتٍ خفيضٍ:

- القلب وما يريد.

عقبَ أحدُ الجالسين ضاحكًا:

- القلب برضه يا شكري؟!!

انفجرت الجلسة كلها في نوبةٍ من الضحك.. سألت
شكري بصوتٍ خفيضٍ إذا كان مُستمرًا في تعاطى الهيروين،
فأجاب أن اليوم سيكون آخر يومٍ له مع هذا المسحوق
اللعين، وأنه قد نوى أمام الله أن يتعافى منه، هززت رأسي
قائلًا بحسرة:

- الزفت ده دمّر حياتك يا شكري.. ده لولا ستر ربنا
كنت هتبات إنهاردة في الشارع!

أجاب مُبتسمًا ببلاهةٍ بعد أن بدأ عقله في الغياب:

- البركة في أخوك ناجي هو اللي لحقني..

وأشار إلى أحد الجالسين والذي كان يرتدي جلبابًا أبيض
اللون، وقال:

- وفي الحاج فتحي صاحب العمارة اللي شهد على عقد
الإيجار اللي كتبه لمراتي الجديدة بتاريخ قديم.

كانت الجلسة قليلة العدد في ذلك اليوم؛ فجاناب شكري والحاج فتحي كان يوجد عبد الرحيم حارس أحد العقارات المجاورة، و خليل الذي عاش طيلة حياته يعمل كومبارس في السينما يتفاخرُ دومًا بمشهدٍ وحيدٍ ظهر فيه صامتًا بجوار عادل إمام.. وفي كل جلسة يتكلم عن قصة الحب التي جمعته بيسرا أثناء تصوير الفيلم وسط ضحكات السكارى الساخرة منه. أما الأخير فكان خالد أحد أصدقاء شكري والذي كان يخدمُ الجالسين لأنه لا يملك المال اللازم لما يشربه.. أثار اشمئزاضي حين رأيته أول مرة؛ بعظم وجنتيه البارز عند جانبي وجهه ذي السَّمار الباهت والحبوب الحمراء المتناثرة، تُحيط رأسه أذنان كبيرتان بارزتان عنه، وقليلٌ من الشَّعر المنثور الذي كان بمثابة لحيةٍ غير مكتملةٍ واصطفَّ جزءٌ منه فوق شفتيه كشاربٍ رفيعٍ.. ناولني زجاجةً من البيرة فشربتُ نصفها على مرةٍ واحدةٍ قائلاً لشكري:

- مش ناوي تنزل طحا بقى؟.. أبوك بيسأل عليك دائماً.

استنكر شكري تحيزي المفاجئ لأبيه، ذكَّرنِي بما أقوله دائماً عن جشع عطوة، وطمعه في ميراثي أنا وناجي، قلت وأنا أنني زجاجتي وأشير لخالد كي يناولني أخرى:

- أنا مابطيقش أبوك.. بس برضه هو أب وحقه يطمَن عليك.

قال شكري وهو ينفثُ دخان الحشيش:

- أنا كده مستريح.. أحسن حاجة عملتها ستي فرحة
إنها سابتك أنت وناجي تكملوا تعليمكوا وتعيشوا هنا
في شقة أبوك اللي في الحسين..

قلتُ له ناصحًا إن عطوة مهما فعل سيظل أباه ويجب
عليه أن يودّه، ردّ مُستنكرًا أنه في غنى عن الأب الذي ميّز
حسن أخاه الأكبر عنه وجعله يُدير كل أعماله التجارية، ودلّل
أخاه الأصغر حسين الذي يعول على أبيه ولا يستطيع أن
يتحمل نفقات أهل بيته حتى الآن!.. تدخل خالد في الحوار
بعد أن قام بلفّ الحشيش للحاج فتحي وتركه مع خياله،
وجّه حديثه لشكري قائلاً بلهجته "السكرانة" إن علماء
النفس يُعرفون ما يُعانيه باسم "عقدة الأخ الأوسط"؛ فلا
هو كبير الإخوة وزعيمهم كحسن، ولا يتمتع بنفس الاهتمام
والتدليل اللذين كانا يحصل عليهما قبل أن يُولد حسين.

تعجّبْتُ من كلام خالد غير المتسق مع منظره الرثّ
وجلسته القرفصاء، سألته وأنا أسحب زجاجة الخمر الثالثة
عن السبب الذي أوصله إلى تلك الحالة.. تركنا شكري
وأخرج كيس الهيروين من جيبه، وضع جزءًا منه على
المنضدة أمامه وبدأ في تسطيحها باستخدام بطاقته.. كدت أن
أنهره ولكن خالد سرق انتباهي حين رد عليّ قائلاً:

- أنا مش مدمن زي شكري ولا غاوي كيف زيكوا يا
أستاذ يحيى.. ولو جت لي مليون فرصة أبطل مش

هابطًل، أنا مشكلتي كلها إني شغلت بالي زيادة بالواقع
ودوّرت كثير عشان أوصل للحقيقة.

بدأت أدخل في حالةٍ من السُّكر وأغفل عن أجزاء من
الحديث، سألته قائلاً:

- ووصلت للحقيقة؟!!

أجاب خالد وهو يُعيد توزيع زجاجات الخمر الممتلئة
على الجالسين:

- لو ماكنتش وصلت لها مكانش زماني قاعد هنا بحاول
أغيب دماغي.. أصل الحقيقة زي الشمس؛ على قدّ ما
هي عظيمة وبتنور لك الطريق، بس لو قرّبت منها
زيادة عن المسموح هاتتحرق.

نظرت بحزنٍ لشكري الذي أوشك على إنهاء كيس
البودرة كاملاً، وقلتُ لخالد:

- بس الشمس ما بتحرقش مؤمن.

- والحقيقة ما بتحرقش مسطول، وأنا اخترت أكون التاني.

أشرت لخالد كي يناولني زجاجة أخرى، فعلق مُتعبجاً من
عدم اقترابي للحشيش، ضحكت قائلاً:

- زمان قبل ما جلك تاخذ على السطح ده كنت بحب
الحشيش أكثر، بس الفترة اللي فاتت مبقاش يحوِّق فيّا

غير المية.. أصل الحشيش ده للروقان والسلطنة، وأنا
مش عايز أروق؛ أنا عايز أغيب.

كاد خالد أن يطرح سؤالاً آخر ولكن قاطعه صوت
ارتطام جسد شكري بالأرض جراء الجرعة الزائدة التي
أخذها.. حاولت أن أنهض لكن جسدي كان ثقيلاً يرفض
الاستجابة لأوامر عقلي المشتتة، قام الحاج فتحي على الفور
لإيقاظ الطبيب القاطن في العمارة ليُسعف شكري.. أثناء
خروجه من باب السطح ارتطم بزوجة شكري الجديدة
التي صرخت لاهثَةً ولطمت وجنتها في فزع:

- إلحقوني.. محمد ابني شرب من إزازة الخمرة اللي كانت
مستخبية في التلاجة، الواد وقع من طوله وما بيحطّش
منطق!

النارُ تأكلُ بعضها

شعورٌ غريبٌ أن تبدو ميتًا أمام الجميع، تُدقق في أصوات بكائهم عليك تُميز الصدق من الرياء.. كان الأمرُ مُمتعًا في البداية؛ فقد انخدعوا بمنظرِ جثمانِي الذي يُشبه الأموات. ولكن مع الوقت قلَّت المتعة حتى تحوَّلت خوفًا من ألا أعود مرةً أخرى إلى عالم الأحياء.. شعرتُ بانقباضٍ مُفزِع حين سمعتهم يتحدثون عني بضمير الغائب، يذكرونني كجزءٍ من ماضٍ بعيدٍ، لم أعلم متى أصبح لقبِي «يحيى الله يرحمه»!

بدأ الناس يرفعون نعشي ذاكرين عبارات التوحيد.. حينها راودني هاجسٌ جعلني أتساءل: هل ما زلتُ حيًّا أم أنني أتوهم الحياة لأهون على نفسي سكرات الموت؟!

الخميس 2 فبراير 2006

- إليه التهريج اللي بيحصل ده!.. يعني إليه موكلي يقعد في الحبس الاحتياطي يومين من غير ما يتعرض على النيابة؟

هكذا افتتح ناجي الطحاوي ظهوره داخل أروقة نيابة المركز التابعة له قرية (طحا-الطريق).. ممشوق الجسد وعلى قدرٍ من الوسامة التي اكتسبها من وجهه قمحي اللون، غزا الشَّيب جانبي رأسه مُبكرًا، بيدَ أن ذلك الشيب ما زاده إلا وقارًا. أخبره أحدُ العساكر أن موكله موجودٌ الآن داخل مكتب وكيل النيابة ليبدأ في التحقيق معه.. فافتحم ناجي المكتب دون استئذانٍ رغم اعتراض العسكري الواقف على باب المكتب والذي أوقفه وكيل النيابة بإشارةٍ من يده ليترك ناجي ويخرج، ثم نهض على مهلٍ قائلاً:

- ناجي بيك الطحاوي.. نُورِت مكنتي.

نهض على مهلٍ لمصافحة ناجي الذي لاحظ ارتداءه خاتم زواج في يُسراه، كما لاحظ أن شكله لم يتغير منذ أن كان زميله في الدراسة؛ فلا يزال بدينًا ذا قامة قصيرة أمّلس الوجه الذي يشعُّ احمرارًا كالأطفال، كما كان صوتُه رفيعًا وهالته أبعد ما تكون عن الهيبة التي تتطلبها مهنته.. نظر له ناجي من أعلى إلى أسفل وقال ضاحكًا:

- البهوية دي طول عمرها بتاعة النيابة.. خَليني أستاذ ناجي أحسن.

ردَّ مُحدِّثُه بلهجةٍ خبيثةٍ:

- ما أنت كنت قُريب من النيابة وكل الدفعة كانت متوقعة إنك تكون أول واحد يدخلها.. ثم نظر إلى المتهم الواقف أمام مكتبه، وقال:

- ربنا يسامحه بقى اللي كان السبب في حرمانك منها.

نظر ناجي إلى الشخص الثالث الذي كاد أن ينسى وجوده، اقترب منه وربت على كتفه قائلاً:

- ما تقلقش يا عمي.. كله هيبقى تمام والنيابة هتتصفنا.

قال وكيل النيابة مُتهكماً إن النيابة لن تنصفَ إلا الحق.. لم يرد ناجي وأشار لعمه بالجلوس على المقعد المقابل له أمام مكتب وكيل النيابة دون انتظار الإذن منه. بدا الغضبُ على الوكيل وحذَّره بلهجةٍ حادةٍ من القيام بأفعاله الملتوية التي تردَّد صداها في جميع دوائر نيابات القاهرة، واصفاً طريقة عمله بالشغل "الشمال". تجاهل ناجي وصفه الأخير ونظر إلى اللافتة الصغيرة الموجودة على مكتبه وحملها قائلاً:

- نائل بيك عبد الودود وكيل النائب العام.. لأ حلوة اليافطة، ابقى فكرني يا عمي نعمل زيها.. أبلكاش دي يا نائل!؟

زفر نائل حنقًا، وقال باقتضاب:

- أنا بقول نتكلم جدّ بدل شغل الأراجوزات ده!

اعتدل ناجي في جلسته وفتح أزرار بدلته وقال بلهجةٍ عمليةٍ إن موكله رجل شريف خدم بلده في أكثر من موقفٍ؛ كان عضوًا سابقًا في البرلمان بعد فوزه بالانتخابات المُقامة سنة ٢٠٠٠، وأنه والد النائب الحالي عن نفس الدائرة: حسن الطحاوي.. الذي لولا سفره خارج مصر لما قُبِض على أبيه بمثل تلك التهمة المُشينة. ردّ نائل على ناجي وهو يُطالع بعض الأوراق أمامه أن محضر الشرطة يتهم عمه "المبجل" بتسهيل الدعارة في أحد البيوت المملوكة له داخل قرية (طحا- الطريق).. ليردّ ناجي مُبتسمًا:

- مسكتوه متلبس؟

- لأ.. بس كل اللي اتقبض عليهم أكدوا إن عمك كان معاهم وإنه هرب في آخر لحظة.

- مسكتوه متلبس؟

- البيت مكتوب باسمه يا أستاذ ناجي.. أكيد اللي كانوا جوّه ما دخلوش غصب عنه.. القضية لابساه لابساه
يا ناجي!

قال ناجي بنفس الإصرار دون أن يُغير من لهجته
الساخرة:

- مسكتوه متلبس؟

خبط نائل منضدة مكتبه بيمناه قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ إن البيت مملوك باسم عطوة الطحاوي، وإن جميع الشهود أقرُّوا بوجوده ساعة الحادثة. بدا القلق على عطوة ولكن ناجي ردَّ بهدوء:

- أنا بعثت المحامي اللي بيتمرّن معايا يسأل اللي اتمسكوا في الشقة، وكلهم أگّدوا إن الظابط جابهم من بيوتهم زيّ ما جاب الحاج عطوة من بيته بالظبط، وضغط عليهم عشان يقولوا الأقوال المثبّته عندك.. وأنا متأكد إن في محضر النيابة كل كلامهم هيتغيّر.

ضحك نائل قائلاً إن الموضوع ليس بالسهولة التي يتصوّرُها ناجي، وإن محضر الضبط والتلبس مكتوب بطريقة مُحكمة.. طلب منه ناجي أن يذكر عنوان موقع التلبس المذكور في المحضر، نظر نائل إلى أوراق المحضر وبدأ يقرأ منه:

- البيت مكوّن من دورين ومتأسس على أرض مملوكة لعمك عطوة رفعت صادق عبد الحي الشهير بعطوة الطحاوي، جنب البيت من ناحية أراضي زراعية مملوكة لعائلة الطحاوي ومزروعة قمح حالياً، ومن الناحية الثانية مستوصف القرية، وباقي الكلام إنت عارفه بقي.. تعرف إن ده أدق وصف شوفته في محضر من

ساعة ما اتعيّنت؟ واضح إن الناس في القسم بيحبُّوا
عمك أوي.

نظر ناجي إلى عمه باستغرابٍ وسأله إن كان يملك بيتًا في
الموقع المذكور، ليردَّ عطوةً باستهجانٍ قائلاً:

- هو أنا مجنون؟.. هابني في حتة مهجورة زي دي!

صاح فيهما نائل بغضبٍ:

- إنتوا هتغنوا وتردوا على بعض..

ثم أشار إلى عطوة وصاح فيه آمراً أن ينهض من مكانه،
لم يفقد ناجي أعصابه واعتذر عما سبَّاه من ضجر لنائل،
وأكمل حديثه قائلاً:

المستوصف ده على أرض الطحاوية اتبرعوا بيها للقرية،
بناه أبويا- الله يرحمه- الباش مهندس أحمد الطحاوي.

أعاد نائل سؤاله عن مالك الأرض المُحدد موقعها،
فأجابه ناجي بتلقائيةٍ أنها مملوكة لعمه عطوة، ولكنها
خالية من البيوت عكس ادعاء محضر الشرطة، ولا يوجد
بجانب المستوصف أي منشآت؛ فقط حظيرة للماشية. ضحك
نائل قائلاً:

- زربية مواشي؟!.. يعني إمبراح كانت مكان لمزاج عمك
وإنهاردة بقت زربية بقدرة قادر؟

قال ناجي بنفس النبرة الهادئة إن المكان على هذه الحالة منذ زمن، عرض عليه أن يسأل أهل طحا، فقال عطوة مؤمناً على حديث ابن أخيه:

- وعلى فكرة يا بيه فيه عساكر كثير برّه بليداتنا ممكن أناديهم وتسالهم بنفسك.

قال نائل وهو يُحاول أن يُداري غضبه ليفسدَ على ناجي لذة الانتصار:

- لسه شاطر زي ما أنت، كنت دايماً أول واحد يطلع من لجنة الامتحان..

أكمل حديثه مُشيراً برأسه نحو عطوة، دميم الوجه ذو الشارب السميك والقامة المتوسطة والبطن المنتفخ، أنه لم يكن يتصوّر أن يقوده ذكاؤه للتحالف مع شيطان كهذا.. نظر ناجي إلى اللافتة المكتوب عليها اسم "نائل" مرةً أخرى ودعا على من كان السبب في خروجه. وطلب من نائل الإفراج عن عطوة بضمان محل إقامته.

صمّم ناجي على أن يصطحب عمه في سيارته الخاصة، أشار لسائق السيارة المرسيديس الخاصة بعطوة كي يسبقهما إلى طحا، لم يفهم ناجي سبب إصرار عمه على اقتناء السيارات المرسيديس ذات الطراز العتيق. خيّم الصمتُ على سيارة ناجي إلى أن كسر عطوة حاجز الصمت؛ فسأله عن

مدى انتشار خبر القبض عليه بين أهل القرية، طمأنه
ناجي قائلاً:

- بلدياتنا العساكر قبضوا كويس، والرجالة اللي جم
هدُّوا البيت ونقلوا البهايم والجِلَّة ما يعرفوش حاجة..
بس حسابهم ثقيل أوي.

شكر عطوة فكرة ناجي الشيطانية التي تم تنفيذها
بمنتهى السرعة والإتقان، أخرج عطوة لفافة طباق رخيصة
الثلث، أبدى ناجي اشمئزاه من رائحة السجائر الرديئة،
أخرج هاتفه ليُخبر عطوة أن هناك مشكلةً مع شكري قائلاً:

- أول ما صحيت لقيت رسالة مبعوتالي من يحيى يقول
لي إن شكري تعب عشان خد جرعة بودرة زيادة..
تحب نروح نطمّن عليه؟

نظر عطوة أمامه دون أن يبدو عليه أدنى تأثر، أخبر
ناجي أن اليوم الخميس؛ الاجتماع الأسبوعي للعائلة.. وإن
تخلَّف عن ذلك المجلس قد يشكُّ أحدهم في أمره ويعرف
بأمر قضية الآداب؛ الأمر الذي قد يؤدي لنزوله من فوق
عرش عمودية طحا.

ردَّ ناجي باستغرابٍ:

- بس باين من كلام يحيى إن حالة شكري...
قاطععه عطوة بحزمٍ دون أن ينظر نحوه:

- دوس بنزين يا ناجي الله يرضى عليك.. مش عايز
أتأخر.

حاول ناجي تغيير دفة الحديث؛ فسأل عن موعد رجوع
حسن من السفر.. أجابه عطوة أن آخر مكاملة أجراها مع
ولده أخبره فيها بانتهاء الصفقة التي كان يتفق عليها في
السعودية، وأنه سيعود بعد عطلة بحرية قصيرة سيقضيها
مع أصدقائه.. حين أتي ذكرُ السعودية قال ناجي مُستدرِكًا:

- صحيح عملت إيه في موضوع الواد سيد؟!!

سأله عطوة:

- سيد مين؟

أجاب ناجي بفرع:

- ابن فاروق السبّاك.. اللي جالك مجلس العيلة الأسبوع
الي فات عشان ابنه عايز يرجع من السعودية
والكفيل معسّفه...

أشار عطوة بيده لناجي علامة على أنه قد تذكّر، قال
بلهجة لم تخل من فخرٍ طفولي:

- اتصلت له بممدوح باشا صاحبي، ولما عرف إنه بلدياتي
خلّى واحد من رجالته يخلّص له موضوعه مع الكفيل،
وحجز له العودة في العبارة بتاعته.

سأل ناجي عن مدى أمان عودته في هذه العبارة، ليرد
عطوة ضاحكاً:

- طبعاً.. دي عبارة السلام ٩٨؛ بقى لها سنين في البحر وما
حصلهاش حاجة.

أمسيْتُ جالسًا بجوار فراش شكري، منتظرًا أن يسترد
وعيه، حاولتُ استيعاب معظم أحداث البارحة؛ فحين خرد
شكري مغشيًا عليه.. سقط في نفس الوقت محمد ابن
زوجته الذي لم يتجاوز عمره الأعوام الخمسة، أفقت من
سكرتي بصعوبةٍ وأمرتُ خالد أن يحمل معي جسد شكري،
استوقفت سيارة أجرة نادمًا على خروجي من البيت مترجلًا
دون سيارتي كعادتي مؤخرًا.

تم الأمرُ سريعًا؛ أملتُ على السائق عنوانًا غير بعيدٍ
لمصحة نفسية متخصصة في علاج الإدمان بالمقطم، ودَّعني
خالد عند باب المصحة مُعتذرًا عن عدم الدخول، وترك لي
رقم هاتفه..

عرفت لاحقًا من الدكتور نجيب السعدي مدير المصحة
تفاصيل ما تم لإنقاذ حياة ابن عمي؛ فعلى الفور بدأ
إسعافه، وكانت المصحة مُجهزة طبيًا لمثل هذه الحالات..
فأعطاه الطبيبُ جرعة Naloxone المضاد لسُمِّية الهيروين،
وتم وضعه تحت الملاحظة.. استحييتُ أن أدعو له الله

بنفسٍ مفعمٍ بالكحول.. استمرَّ انتظاري لساعاتٍ تخللها نومٌ مضطربٌ وكوابيس شتى، حتى استيقظ ابن عمي ببصرٍ زائغٍ ونصفٍ وعي، سأل عن محمد أول ما نطق، فأجبتَه بلهجةٍ مطمئنةٍ:

- ما تقلقش عليه ده قرد.. الدكتور جاركوا ده لسه قافل معايا دلوقتي، قال لي إنه خلّاه يشرب مية مالحة عشان يعمل له تفريغ معدة، وإداله شوية مُسكنات تُقلل وجع البطن من الترجيع، وعَلّق له محلول برد.

نظر شكري حوله، وهمس لي متضايقًا أن المكان يبدو فخماً؛ فلن نقدر على تكاليفه.. أجبتَه مُطمئناً أن هذه الغرفة كانت محجوزةً ومُجهزةً خصيصاً له منذ فترةٍ؛ تمهيداً لعلاجِه بدايةً من الأسبوع القادم، وأن القائمين على المكان تعجّبوا من قدومه مبكراً بيومين، سألني عن مصدر المال الذي دفعته للمصحة، فأجبتَه بصدقٍ أن أخاه حسن قد تكفّل بكافة مصاريف علاجِه قبل أن يُسافر. تركتُ شكري يستريح؛ فلديه معركةٌ شرسةٌ ضد إدمانه لمسحوقٍ لعينٍ، توجّهت إلى مكتب مدير المصحة كما طلب مني الأخير بعد أن أطمئن على ابن عمي، صافحته شاكراً فأعرب عن امتنانه وأنه لم يقم إلا بعمله، ثم أضاف:

- بعدين ده أنت متوصي عليك من أمجد عمّار.

أخبرته بحسرةٍ أن شكري لم يكن هكذا في الماضي.. ردَّ أن المدمن بشكلٍ عام يلجأ للمُخدر بحثًا عن احتياجٍ معينٍ لم يجده فيمن حوله.. سألته عن نسبة الأمل في شفائه وتعافيه تمامًا من هذا البلاء الأبيض.. أجاب بنبرةٍ هادئةٍ:

- إحنا لسَّه مستنيين تحاليله عشان نقيِّم الحالة صح.. بس بخبرتي كده أظن إنه هايقدر يرجع لو انعزل عن كل اللي حواليه، ويُسْتحسن إنه لما يخرج يبدأ حياة جديدة تمامًا.

تطرَّق دكتور نجيب السعدني إلى أزمة علاج المدمنين في مصر، وأن معظم المراكز تتعامل مع العلاج بشكلٍ غير مختص كأنه وسيلةٌ لكسب المال، ثم قال مُستدرِّكًا:

- أنت قولت له إيه عن محمد ابن مراته!؟

- قولت له اللي حضرتك فهِّمته ليَّا بالظبط.

اقترب مني وحذَّرني بلهجةٍ جادةٍ:

- طب كويس عشان متأثرش على خطة التعافي.. لو عرف إن الولدمات بسببه ممكن تحصل له انتكاسة.

تُعتبر عائلة الطحاوي المُسيطرة على قرية (طحا- الطريق) من حيث الأملاك والنفوذ وتصدُّر كافة المشاهد

الاجتماعية والسياسية.. ينعقد مجلسهم يوم الخميس من كل أسبوع بحضور أبرز شخصيات العائلة؛ بدايةً من العمدة عطوة الطحاوي الذي يستضيف المجلس العائلي في دَوَّاره، مروراً بشيخ البلد الذي لا ينوب عنه: ولده الأصغر حسين الذي لا يُخفي رغبته في تولي العمودية، خاصةً بعد أن حصل أخوه حسن على مقعد في البرلمان المصري، وبعد أن أصبح أوسطهما شكري منبوذاً لا يبرح القاهرة.

قد تحدث بعض المنازعات بين الطحاوية الناجمة عن الأحقاد والاختلاف الذي يُشبه الهرم الطبقي أيام الفراغنة: يتربّع فوق قمته عطوة وتحتة أبناءه وأبناء إخوته، ويتوسطه أبناء عمومته مثل أستاذ فرحات الطحاوي.. نادراً ما تخرج أحاديث المجلس عن دَوَّار عطوة إلا إذا سرّب أخبارها أحد الخفر، والذي سرعان ما يتلقى جزاء فعلته على يد شيخ الخفر وزعيمهم: رجب الطحاوي، وهو ينتمي إلى سفح الهرم الطحاوي حيث الطبقة غير الميسورة من العائلة. يتوسط المقاعد الشيخ حافظ عزازي مُحْتَلّاً موقعاً ملحوظاً، وهو الوحيد- تقريباً- في ذلك المجلس الذي لا ينتمي إلى عائلة الطحاوي؛ يأتي أحياناً لتلاوة القرآن بغرض مباركة الاجتماع..

أما عن الفرد الآخر الذي لا ينتمي إلى عائلة الطحاوي في هذا المجلس فهو رزق المعتوه؛ يتجول في القرية متسوِّلاً بمشيته الغريبة ولسانه الثقيل.. يعتمد في كسب رزقه على

الظهور بجلسات الطحاوية؛ ليخدمهم ويُرَاعِي طلباتهم، يقتات أيضًا على مواسم زيارة المقابر التي يقدِّسها أهل القرى عمومًا.. يُطيل بقاءه هناك علَّه يعود بالقليل من المعجنات والفواكه أو يظفر بالقدر اليسير من العملات النقدية. انقضت تلاوة الشيخ عزازي التي تلتها بعض النقاشات الفرعية.. طرح أحد الجالسين على عطوة سؤالًا شغل بال الكثير من أفراد العائلة: سأله عن السبب الحقيقي لاستقالته من مجلس الشعب.. ضحك عطوة وقال أثناء مداعبته لشاربه السميكة أنه لا يجد الوقت الكافي لخدمة أهل طحا، فكيف سيخدم أهل الدائرة جميعًا. قوبلَ بعبارات المديح والرياء المزيفة، فأتمَّ حديثه بأهمية تسليم زمام الأمور للشباب، ووجوب تسليم الراية لمن هم أجدر، ضرب مثلًا على هذا بما يُخطط له رئيس الجمهورية لفعله: أن يهب مقاليد الحكم لابنه الأصغر. عَقَّب فرحات الذي قلَّمَا يُدلي برأيه مُتسائلًا عن موقف الشعب.. قال ناجي بلهجةٍ حاول أن يجعلها مُحايدة دون أن يغضب عطوة:

- الناس مهما بانَت ساكتة مسيرها تقول لأ.. ما يغرکش
الجهل والامية والعشوائيات والقرف اللي بيتحطننا في
الأكل والشرب ده.

بدأ فرحات يهتم بالنقاش؛ فتكلَّم من وجهة نظره كمعلم عن الجهل الذي انتشر في البلاد، تطرَّق في حديثه

عن أسبابه كالفقر والامية.. وغيرها من العوامل التي تهدم بسببها الوعي الشعبي. عَقَّب عطوة مبرراً أن السيدة الأولى تهتم بإقامة فصول لمحو الأمية، ليردَّ فرحات مصححاً أن محو الجهل أهم، عَقَّب ناجي قائلاً:

- فيه حاجة أخطر على الشعب من كل اللي قولته ده يا أستاذ فرحات: المعارضة المقنعة.. الأحزاب والجرايد اللي بتمثل دور المعارضة؛ طول ما هي شغالة وسابكة دورها صح الشعب عمره ما هيفكر يعمل أي حراك سياسي، أصل أنت كمواطن غلبان شايل هم بيتك وعيالك لما تشوف فلان بيزعق في وزير على التلفزيون.. ولا تقرا مقالة لِعَلَّان بيعارض فيها النظام.. ولا تسمع عن ترتان اللي اعتقلوه بتهمة قلب النظام أكيد هتنام مرتاح وأنت متخيل إن فيه حد ممكن يحارب بذلك.

بدا الضيقُ على عطوة، قال لناجي إن السياسة أصلاً "فن التنازل"، وأصدر أمراً بإنهاء الحديث في هذا الشأن تجنباً لتسرُّبه الذي قد يُؤدي لمصائب قد تُطيح باسم العائلة المعروف انتماؤها للحزب الحاكم.

قاطع حديثهم صوت هاتف عطوة الذي قال بفخرٍ:

- دي مكاملة دولي من السعودية.. جهزوا طلباتكوا بسرعة عشان حسن يجيبها لكوا وهو جاي.

ردّ على الهاتف مُبادراً بالتحية قائلاً:

- وحشتنا يا سيادة النائب..

ولكن سرعان ما تبدلت ملامحه، واختفت البسمة
المصطنعة من وجهه، وسقط مغشياً عليه.. التقط ناجي
الهاتف وأنهى المكالمة شاكراً مُحدثه بكلماتٍ معدودةٍ..
التفت إلى الطحاوية قائلاً:

- البقاء لله.. حسن مات غرقان.

السابقون واللاحقون

الإثنين 6 فبراير 2006

أبلغني ناجي بفاجعة غرق حسن مساء أمس، بعد أن أخطره موظف الفندق آسفًا بالعثور على جثمانه ضمن ضحايا الرحلة البحرية التي نظمها الفندق، أخبره أيضًا أن حسن ترك لديهم رقم عطوة للاتصال به في حالات الطوارئ. خشيتُ أن أخبر شكري فأفسد رحلته الشاقة للتعافي من الإدمان. لم يتم إعلان الخبر لأهل "طحا" حتى أنهى ناجي إجراءات استلام الجثة التي وصلت القرية مُكفنة، تعرّف عليها عطوة برغم ما أخبرني به ناجي عن الانتفاخ الذي حلَّ بها جرّاء ابتلاع كميات هائلة من المياه، وخروج العينين الفزعتين من محجريّهما، وبشرته التي صارت شديدة الزرقة.

وقفت مُنتظراً وسط الكثير من أهل البلد. عرفتُ بعد ذلك أن بعضهم قد تخلف عن جنازة حسن؛ فقد ذهبوا لاستلام جثمان سيد ابن فاروق السبّك الذي مات أيضاً جرّاء غرق العبّارة في يومٍ مفزِعٍ عصيبٍ لن ينساه أهل القرية.

لم تكد تظهر سيارة عطوة وخلفها سيارة الإسعاف الحاملة لجثمان حسن حتى أجم الصمت أفواه الجميع؛ حالة من عدم التصديق اجتاحتني مصحوبةً برجفةٍ عنيفةٍ ضربت كياني، كان حسن أقرب أفراد أسرته لقلبي.

أوصلتُ زوجتي مي إلى بيت العائلة الكبير حيث يُقام عزاء السيدات، وحيث تقطن جدي (فرحة).. كان ذلك البيت فيما سبق دوّار جدي رفعت أثناء تقلّده منصب العمدة، ولكن بعد استيلاء عطوة على المنصب ترك أمه وحيدة وشيّد بيتاً مجاوراً لبيت العائلة؛ مسكناً فخماً يليق بثروته التي تضاعفت في وقتٍ قصيرٍ.. لم أستوعب أبداً جدوى منصب العمدة في عصرنا الحالي. شرح لي ناجي قديماً أن عطوة ينهب الأتاوى سرّاً من جلسات الصلح التي يتقاضى قبل انعقادها أموالاً من الطرفين؛ فيحكم لصالح من يدفع أكثر. لم أُميّز وجوه الكثيرين من أفراد العائلة، ولا أطمح للتعارف عليهم.. فذهبت للوقوف بجوار أخي الذي همس في أذني سائلاً عن حال شكري وتأثير وفاة حسن

عليه.. طمأنته مؤكداً شكري لم يعرف من الأساس.. نظر في
ساعته قائلاً إن موعد أذان الظهر قد اقترب.. بعد دقائق
خرج حسن من منزل فرحات محمولاً داخل نعشه الذي
لم يُغطى؛ ليكشف عن كفن أبيض مُنتفخ، تمزقت طبلة أذني
وتحطمت أعصاي كلياً حين سمعت صوت النساء الصارخ
بالولولة. انفصلت عن العالم كلياً وسرحت في خواطري.. لم
أكره شيئاً في العالم مثل كرهني لعويل النساء؛ لا يفعلن هذا
إلا بدافع المجاملة وتأدية الواجب.. ألا لعنة الله على بنات
حواء!

لا أظن أن دمعةً أخرى ستفلت من عيني بعد ممات
أبي وأمي، لم أتوقف عن البكاء بعد الحادثة التي رحلا فيها
لفترةٍ طويلةٍ.. حتى ذبلت عيناوي وجفت دموع قلبي.. لم
أكن يوماً على علاقةٍ جيدةٍ بأفراد عائلتي الذين لم يتصدوا
لطغيان عطوة وتناسوا ما فعله أبي معهم، لم أغفر لأيٍّ منهم
خذلانه معي أنا وناجي سوى جدي رفعت؛ فقد اعتزل
الحياة قبل وفاة والدي دون سببٍ واضحٍ.. بعد أن كتب
أملاكه لولديه وابنته الوحيدة، وبعد أن ترك منصبه كعمدة
لعطوة؛ بحكم كونه أكبر أبنائه.

سرت بجوار فرحات دون أن نتبادل الكثير من الكلمات..
لم أستطع أن أكره هذا الكهل الأزهري بوجهه الأحمر
الممتلئ وقامته القصيرة التي تجعله أقرب للطفل الكبير..

لا أنكر أيضًا فضله عليّ في حفظ أجزاء من القرآن، وفي تعليمي اللغة العربية بشكلٍ سليمٍ، الأمر الذي فعله مع شكري حتى أورثه مهنة التدريس. ملحت غرابًا فوق إحدى الأشجار المحيطة بنا، أخبرت فرحات أن هذه أول مرة أرى عشًا للغربان في المدافن فرفع رأسه أعلى الشجرة ليُخبرني أنه لا يراه!.. تكلم كثيرًا عن نظره الذي لم يعد كما كان، فلم أعبأ بحديثه.

تحركّ حاملو النعش سريعًا، عملاً بمعتقد موروث عن سرعة النعش التي تتناسب مع كون الميت صالحًا في دنياه؛ فتجدهم يمتدحون تعجّلهم في المسير متشدقين بقولهم: "النعش كان طائر" .. أدركتُ اقترابنا من المقابر حين أصبح حذائي رمادي اللون من كثرة الأتربة، أشار إليّ فرحات بأن أجدّ السير حتى نشهدَ الدفن ففعلت مترددًا. دخلنا حوش العائلة المكتظ بصعوبةٍ، شعرت بانقباضٍ في قلبي حاولتُ إخفائه حتى بلغنا التربة التي سيُدفن فيها حسن.. وقف الشيخ حافظ عزازي فوق صخرةٍ عاليةٍ في ركن الحوش، خطب في المشيعين بصوتٍ عالٍ ليُهون عليهم دقائق الدفن الطويلة، تضرّع بالكثير من الأدعية لروح حسن حتى يرددّها الناس خلفه، تحدث عن أول أيام القبر وما يمكن أن يشفع للعبد حينها، واحتسب حسن من الشهداء لوفاته غريقًا.. لم أتحمل كلامه ولا الموقف برمته، كدتُ أنسحب لولا يد فرحات المتشبثة بساعدي.

شَمَّر سلامة "التُّرْبِي" جلبابه عن ساعديه كاشفًا عن بعض الوشوم الخضراء، والتي تشي بماضٍ غير سَوي.. فتح المقبرة ليزداد إعيائي، وطلب من عطوة النزول معه فتبعه باكيًا، تطلَّب الأمرُ مرافقين لعطوة حتى لا تنهارَ أعصابه تحت الأرض.. وكأن الأرض انشقت لتبتلع حسين وناجي فلم يبقَ من الأقربين سواي أنا وفرحات.. أشار لي فرحات بالنزول معه ليندهش بردة فعلي حين صحت فيه رافضًا النزول كالممسوس، تجنَّب فرحات ثورتي ونزل مع عطوة. انتهى الأمرُ سريعًا وسط دعوات عزازي، وبكاء صامت من الأقربين، ونواح صادر من حناجر النسوة اللاتي تتبعن الجنازة، ونوبة من الهذيان غير المفهوم المصحوبة ببكاء شديد أصابت رزق المعتوه؛ فلم يشهد حسن إلا رحيماً بشوشًا، ولم يرَ منه إلا معاملة كريمة، عكس أهل القرية- وخاصةً أطفالها.

ألهيتُ نفسي عما يحدث حتى انتهى سلامة للحد من عمله سريعًا لينفضَّ الجمعُ وهم يترحمون على فقيدهم.. خرج عطوة من تحت الأرض مُستندًا على فرحات الذي اصطحبه بعيدًا، ناولني قفل الحوش حتى أعطيه لسلامة لإغلاق بوابته بعد أن ينتهي من غلق اللحد على جسد حسن.. أشار سلامة بعد أن خرج من اللحد إلى رزق كي يُساعده في وضع الأسمنت على حوافِّ التربة لإحكام غلقها..

هدأت لوعةً رزق قليلاً، وقال بلهجةِ التائهةِ جملةً لم
يسمعها سواي:

- ما تخلصش الأسمنت كله يا عم سلامة.. ترب الطحاوية
هاتتفتح كثير السنة دي!

تعمّدت مي تجاهل قريبات زوجها اللاتي صوّبن نحوها
الكثير من النظرات والهمسات، اعتادت على تصرفاتهن
المزعجة وتعليقاتهن التي لا تنتهي حول ملابسها وشعرها
المكشوف؛ فقابلتهن بوجه جامدٍ ولسانٍ لا ينطقُ إلا
بالغمغمات. مرَّ يحيى سريعاً ليطمئن عليها وعلى جدته
فرحة، ولينظف ملابسه استعداداً للعزاء الذي سيُقام ليلاً.
لاحظت فرحة الضيق المرتسم على ملامح مي فاقتربت
منها مُربتةً على كتفها دون أن تتحدث، تعجبت مي حين
عرفتها فرحة وتذكرت اسمها برغم هرمها.. ملّحت نرجس
ابنة عمه يحيى قادمة نحو فرحة بوجهٍ مُنهكٍ مُتعرقٍ
وبعينين حمراوين، وسألته بلهجةٍ روتينيةٍ:

- إنتي كويسة يا ستي؟

ربت فرحة على كتف مي مرة أخرى وقالت لنرجس
دون أن تنظر لها:

- طول ما ريحة يحيى جنبي أبقى كويسة.

نظرت نرجس لمي باحتقارٍ وقالت لفرحة بلهجةٍ حاولت
أن تجعلها حنونَةً:

- الأعراب لسه ما وصلوش.. تحبي تريحي فوق لحدّ
العشا؟

سألتها فرحة:

- إنتي مين؟

ردّت نرجس بضجرٍ وبصوتٍ حاولت أن تجعله خفيضاً
أنها ابنة بنتها، فردّت فرحة بعد أن مصمتت شفيتها
بحزنٍ:

- الله يرحمها بقى.. هي العيلة دي كده؛ مكتوب على
كبيرها يعيش لحدّ ما يشوف خلفته في التراب.

- أمي جوه مع حريم العيلة بتجهّز الأكل.

- أمال ده عزا مين؟

قالت نرجس وهي تُحاول أن تكتم دموعها:

- حسن ابن عطوة ابنك.

- الله يرحمه، قولي للنسوان يشهلّوا.. الفقها زمانهم
جايين من التُّرب، ودول لو ماكلوش ممكن يفضحونا.

قالت مي بفضولٍ مُوجهةً حديثها إلى فرحة:

- يعني إيه فقها يا تيتة؟

رَدَّت نرجس باستهجانٍ:

- دول الشيوخ اللي بيقروا في الترب على روح الميت،
بييجوا في المياتم ياكلوا بعد ما يقرؤا على الميت بعد
الدفنة..

هزّت مي رأسها بفهم، وقد تذكرت هؤلاء الأفراد الذين
رأتهم حين اصطحبها يحيى في الذكرى السنوية لوالده..
اشمأزت من منظرهم وجلوسهم القرفصاء أمام شواهد
القبور، وتسؤلهم بآيات القرآن.. قالت نرجس مُحدثةً مي
وهي تهم بالعودة إلى المطبخ:

- مش هتقومي تساعدينا في المطبخ يا أبله مي؟

كادت مي أن تجيب بالرفض؛ فهي لا تؤمن بضرورة
إعداد طعام الوضيمة، الذي عادةً ما يكون رديء الطعم
غير مستطابٍ.. ولكن فرحة وبخّت نرجس نيابةً عنها قائلةً
بلهجةٍ قاسيةٍ:

- مرات يحيى مش زي باقي النسوان.

توجّهت نرجس إلى المطبخ وهي تصيحُ ببعض العبارات
غير المفهومة.. لم يبدُ على فرحة التأثر، ونظرت لمي قائلةً
بوهنٍ:

- مين البت اللي بتزقق دي؟

طلب عطوة من أخي ناجي الإشراف بنفسه على إقامة صوان العزاء الذي كلفه الكثير من المال، فوقف الأخير وسط الخفر مُوجهًا، حرص على التعديل من وضع ملابسه بين الحين والآخر؛ كان يُجيد الاعتناء بمظهره على عكسي.. أشار ناجي إليّ كي أنزل برأسي قليلاً، همس في أذني مُتسائلاً عمًا منعني من إحضار بدلة رسمية معي في السيارة.. أجبته بضيقٍ أنني لا أحب التجمُّل خاصةً في المناسبات الحزينة.. شرح لي- وهو يُطالع جزمتي المتسخة وملابسي التي لم أنجح في ضبط هندامها- عدم وجود تعارضٍ بين الحزن على الفقيد وبين استغلال مناسبة العزاء لتكوين علاقات داخل صوانه؛ فالكثيرُ من الشخصيات المهمة ستأتي مجاملةً للعائلة.. عقبْتُ باستنكارٍ أن هذه الشخصيات "المهمة" مجرد حفنةٍ من الجُناة؛ تكتّموا على أزمة العبّارة حتى لا يقبلوا الرأي العام أكثر على صديقهم ممدوح مالك العبّارة الذي هرب خارج البلاد. برّر ناجي صمتهم على أنه "أوامر عليا"؛ فقد حُظِر نَشْرُ أي تفاصيل تخصُّ الحادثة.. باستثناء جريدة صغيرة؛ انفردت بذكر كيفية الغرق وعدد دقيق للضحايا.. بعد صمتٍ قصيرٍ سألت ناجي عما سيفعل عطوة ليأتي بحق سيد.. ردَّ ناجي وهو يهز كتفيه حائرًا أن عطوة خسر الكثير بموت حسن حتى أصبح لا يملك من أمره شيئًا حتى يملك لغيره؛ فهو مجرد ترسٍ صغيرٍ في آلةٍ متوحشةٍ لا

تتوقف عن طحن كل ما هو قيِّمٍ لصالح كل ما له ثمن.
وأردف قائلاً:

- على فكرة هو كمان جت له نفس "الأوامر العُليا"
إنه يبلغ عم فاروق ما يشاركش في القضية اللي رفعها
أهل الضحايا، ومقداموش حاجة غير إنه ينفذ.. قواعد
اللعبة بقى.

- ملعون دي لعبة زبالة تخلِّيك تطلب من أب يسكت
على دَم ابنه!

- ما أنا كنت معاك في اللعبة النضيفة يا عم يحيى..
وأديك شوفت اللي حصل: ما اتقبلتش في النيابة،
وعمك كان هياكل ورثنا.. وفرحة مكانتش هاتقدر
تقف له كثير.. أنا فديتك بوساختي.

- فرحة هي اللي صمّمت إنك تدخل حقوق وإنك
تقرب من عمك برغم إنك الصغير..

- عشان مش زيك؛ باعرف آخذ اللي أنا عايزه من أي
حدّ حتى لو ما بحبوش.. يعني مثلاً عمّك برغم
عضويته في البرلمان، بس كان السبب في إني ما أتعينش
في النيابة عشان شغله المشبوه.. حدّ غيري كان قاطعه،
بس أنا عرفت أستفيد منه وأعمل من وراه فلوس
عُمري ما كنت هاعملها وأنا في القضاء.

عاتبته بلهجةٍ لم تخلُ من حسرةٍ:

- فرحة كانت فاكرةٍ إنها بتربِّي موسى في بيت فرعون، ما تعرفش إنك مجرد بشر.. وإنها خلقت فرعون جديد.
ردَّ ناجي بانفعال:

- فرعون يحميك ويفضل في ضهرك أحسن من فرعون
ياكلك صاحي.. إنت عارف كويس إنك من غيري
كنت ضعت من زمان، وبعد ما استقلت من المدرسة
اتحايلت عليك تيجي تشتغل معايا في المكتب.. اعقل
كده يا يحيى وفكّر في مصلحتك زي باقي العيلة.

أشحتُ برأسي مُهممًا بعبارات السباب، سألته عن
خطئه لحملة حسين الانتخابية تمهيدًا لخلافة أخيه في
البرلمان.. امتعض وجهه وهزَّ رأسه نافيًا:

- مش هايكسب.. حسين ده ابن أمه وما حدش بيحبه،
حتى عمك عطوة عارف اللي فيها وغالبًا مش هاينزله..
ثم أردف بلهجةٍ عمليةٍ:

أنا لو عايز أكسب المرادي هالعَب مع مؤمن المتوكل
بتاع الإخوان.. المصالحة حصلت خلاص ونواب كتير منهم
تحت القبة، ومؤمن ده كان هيكسب في جولة الإعادة.. لولا
شعبية حسن بعيدًا عن الحزب وعن اسم الطحاوي.

تنحنح الشيخ عزازي في مُكبر الصوت ليجرّبه تمهيداً لبداية التلاوة.. وقد لاحظت ظهور وفود المُعزّين، مازحني ناجي مُطالباً أن أكف عن البُخل وأعزمه على الغداء في بيتي كي أرحم جهازه الهضمي من "أكل العُزّاب".. كدتُ أضحك كعادي في أي عزاء أذهب إليه، أخبرته أنني أخاف على صحته من طعام زوجتي، نصحته بأن يطلب الأصناف التي يشتهيها من نرجس.. قال ناجي بلهجةٍ خبيثةٍ حين سمع اسمها:

- كل ما أزور فرحة البت دي تسألني عليك.. شكلها لسه بتحبك زي زمان.

لم أعلق، وسألته عن أحوال فرحة التي لم أجلس معها منذ فترةٍ طويلةٍ.. ردّاً أسفاً أنها لم تعد تتذكره بسبب مرض "الزهايمر".. تعجّبت من قوله، وأخبرته أنها تعرّفت عليّ حين ذهبتُ لأنظف ملابسني منذ قليل! ردّاً ناجي:

- فرحة لو نسيت نفسها مش هاتنساك.

توقفتُ أمامنا سيارةٌ سوداء على قدرٍ من الفخامة، نزل من مقعدها الأمامي جُبران كي يفتح الباب لأمجد الذي صافح ناجي واحتضنني حضناً طويلاً هامساً في أذني بكلمات العزاء.. شكرتُ له سعيه.. قال بجديّة وهو يربت على ظهري:

- تعالى بكرة الساعة عشرة أكون خلصت كل الجلسات.

أعربتُ له عن يأسِي من العلاج.. فأكمل جملته بلهجةٍ هادئةٍ وهو يُنهي العناق الذي طال:
- جِبت لك الكفن.

لم أفهم يوماً حُب أهل طحا لتلك المراسم الجنائزية التي تبدو حزينةً من الخارج فقط، فأين العزاء في أشخاصٍ ينتهزونهُ مناسبةً لتكوين الصداقات وقضاء المصالح؟!.. أين القدسية في صوت المُقرئ المُدويِّ عبر مُكبرات الصوت التي تكاد تصم الآذان؟!.. أين الحزنُ في ذكرياتٍ مُزيفةٍ صنعَها هالة الموت؛ فبعد الدفن مباشرةً يكتسب الموتى قدسيةً لم يكونوا أهلاً لها، وصفاتٍ حسنةً لم يتحلوا بها يوماً.. كما تكتسي الحكاياتُ عن أفعالهم الأخيرة بقشرةٍ حزينةٍ ملحميةٍ، والتي تنتهي دوماً بالعبارة الكاذبة: "يا حبيبي كان قلبه حاسس".

يمرُّ أول أيام العزاء مريراً على الأقربين، وفي اليوم الثاني يُفكرون في إجابة السؤال عن مصائبهم بعد حالة الوفاة؛ ليزيح العقل القلب من طريقه بعد أن قلَّت وفودُ المُعزين، وفي اليوم الثالث يتناسون الميْت ويتصارعون على كل ما ترك، بعد أن أزاح الطمع كل شعورٍ آخر بداخلهم.. ومع المرور التدريجي للزمن تتحوَّل وفاة الأقربين من حادثةٍ

إلى حدثٍ، ومن حدثٍ إلى رقمٍ، ومن رقمٍ إلى مجرد حالةٍ مُبهمة من الإنكار المُنسي.

وعدتُ فرحة أن أبيت معها في اليوم التالي.. أوصلتُ مي لمنزلنا في القاهرة.. بعد أن اغتسلت أخبرت مي بأنني سأعود إلى طحا.. لم تُبدِ تعجبها من تصرفاتي كما اعتادت مؤخرًا، أخبرتها أنني في حاجةٍ للحديث مع جدي رفعت، أبدت انزعاجها من رغبتني في النزول إلى المقابر ليلاً برغم أزمتي الأخيرة.

كان جدي يعيشُ في المسجد المجاور للتُّرْب برفقة إمام المسجد: الشيخ صالح مكفوف البصر، عمل لفترة "فقي" ممن يتسولون بآيات القرآن في المقابر.. حتى بنى والدي مسجدًا بجوار المقابر على أرضٍ كانت مملوكةً له، وأحضر الشيخ صالح ليكون إمامًا ومشرفًا على المسجد.. كان حافظًا لكتاب الله كاملاً مُفسرًا عكس الكثير من أقرانه، ولهذا السبب أحبه جدي واستطاب معشره وانعزل معه في ملكوته، لا يفعلان شيئًا إلا الحديث معًا والصلاة. لم يعد إقبال المصلين على هذا المسجد كبيرًا بعد أن أعاد عطوة ترميم جامع القرية الأقرب لبيوت أهلها في إطار حملته الانتخابية.. والذي سمَّاه فيما بعد "جامع حسن الطحاوي". وجدتُ رفعت نائمًا على المصطبة الملاصقة لجدار المسجد، تركتُ بجواره كيسًا من البلاستيك. لم أتقبل أبدًا نوائح أي

شخص في هذه الحياة سواه؛ أعلم جيداً أنه ينصحنى بدافع الحب لا المزايدة ولا الوعظ. يمتلك جدي واحدةً من الأرواح الصلدة النقية؛ فلم يخذلها ابتعاد حبيب، ولم يُدنسها وفاة قريب.

دخلت لأصلي في الجامع الذي كان بابهُ موارباً، سرت ببطءٍ كي لا أوقظ الشيخ صالح النائم على بساطٍ بسيطٍ في ركن المسجد.. اقشعرَّ بدني وانتصب شَعْرُهُ حين نظرت إلى النعش الموضوع آخر المسجد؛ كان مفتوحاً كفم تمساحٍ يُناديني، وبداخله ثلاثة أكفان من أموال التبرعات، أُعدت خصيصاً لصدقات الدفن.. حاولت تجاهله وفرغت سريعاً من صلاتي، عُدت إلى رفعت محاولاً إيقاظه.. فتح عينيه بصعوبةٍ وأطلق عليّ فيضاً من السُّباب واللعنات لتكديري منامه.. لم يتوقَّف حتى رأى الكيس بجواره، فتحه بنهمٍ شديدٍ قائلاً:

- عارف لو كنت نسيت الكبدة ماكنتش دخلتكَ طحا.

أجبتهُ ضاحكاً:

- عارف، بس مشوار الحسين ده سحلة.. ماعرفش أنا إيه

غيتك في عربية الكبدة دي بالذات.

ناولني لفافةً ورقيةً من الكيس وقال:

- الراجل ده واقف في نفس المكان من زمان، مَّا أبوك دخل الجامعة أَجَّرت له الشقة الي أخوك ناجي عايش فيها دلوقتي.. كنت كل ما أزوره لازم آكل من عند الراجل ده..

سألت بفضولٍ عن سرِّ تسمية الرجل بلقب "المزاجنجي" ..
أجاب بعد صمتٍ لم يدم طويلاً:

- أصل طلع عليه إشاعة من زمان إنه بيطحن الحشيش ويحطه على خلطة الكبد، فالناس كل ما تاكل عنده تتكيف وتاكل أكثر.

قلتُ ضاحكًا وأنا أفتَحُ اللفافة:

- المشكلة إننا مش عارفين دي كبدة إيه..
علَّق رفعت قائلاً:

- المفروض نسأل دي كبدة مين أصلاً!

انفجرت ضاحكًا، فلكزني رفعت لأخفض صوتي. دام صمتنا لدقائق حتى فرغ من طعامه، سألني بلهجةٍ جادةٍ عن أخلاق حسن قبل مماته، وعن خاتمته.. أجبته بصدق:

- حسن كان بيعمل الي فرحة استنته من ناجي: حاول ينضف وساخة أبوه على قدِّ ما يقدر.

سألني بقلقٍ عن أحوال فرحة.. طلبت منه أن يدعو لها؛ فقد ثقلت حقيبة الأدوية الخاصة بها.. حاولتُ تغيير الموضوع فمازحته قائلاً:

- اللي يشوفك ويشوفها ما يقولش إنها أصغر منك بخمس سنين.. ده إنت يا مفتري لحد دلوقتي بتغلبنى في الريست.

نطق بعبارة التكبير باسطاً أصابعه أمام وجهي ناكراً قوته، وساخراً من ضعف جسدي الذي أصابني باكراً.. سألته عن سبب إغلاقه المسجد واختفائه ساعة مرور جنازة حسن.. فأجابني بهمهمةٍ لم أفهمها، أخبرني أنه لا يفتقد من حياته السابقة إلا فرحة، سرح في ذكرياته معها قائلاً:

- عارف يا واد يا يحيى.. فرحة وهي صغيرة كانت سمرة ورفيعة وطويلة ومكانش حدّ من العيلة عايز يتجوّزها.. لحدّ ما أمي قالت لي عليها.
خبطته على فخذة مُداعباً، وقلتُ:

- وأنت بقى حبيبتها بجدّ وشوفت جمالها اللي جوّة؟.. يا أبو الرفاع يا رومانسي!

ردّ ضاحكاً:

- لاء.. بس مكانش فيه حدّ أطول منها في رجالة العيلة غيري.

ضحكت مرةً أخرى بصوتٍ حاولت أن أجعله خفيضاً
ففشلت.. سألني عن موعد عودتي للعمل بالمدرسة.. أبيتُ
رفضي لتلك الفكرة؛ فلم أخرج من كلية العلوم لأعمل
في مدرسةٍ ابتدائيةٍ، كما أنني لا أحب التدريس للأطفال ولا
أملك صبراً لهم.. أبدى قلقه من وضعي المادي المُعْرَضُ
للانهيار.. طمأنته أن إيجار الأرض وراتب مي يضمنان لنا
حياةً جيدةً.. أطلق لفظاً اعتراضياً، وقال ناهراً:

- إنت مش كسيح ولا عويل عشان تكمل لقمتك من
مراتك.. ومش فلاح يا يحيى عشان تخلي رزقك كله
من أرضك.

- أبيع الأرض يعني عشان ترتاح؟

- اعملها عشان أنا وفرحة نتبري منك ومن خلفتك اللي
هتيجي.. وأخلي العيال الصغيرة يزفوك في البلد.

- اشمعنى حسين ابن عطوة بيعمل كده؟

- حسين ابن عطوة.. إنت ابن أحمد.

- تفرق يعني؟

- أنا ندمت إني خليتها تفرق.

سألته قائلاً:

- كنت بتحب أبويا أكثر؟

هزَّ رأسَه نافيًا، قصَّ عليَّ تفضيله لعطوة "البكري" على أبي، وكيف جعل أهل طحا يُنادونه بلقب "العُمدَة" منذ صغره ويتعاملون معه على هذا الأساس، أردف قائلاً:

- وفي الوقت اللي دلعي بوظ عمك وخلاه ما يحبش غير نفسه.. أبوك كان يبذاكر وبيحاول يكون أحسن عشان آخذ بالي منه، ويوم ما قال لي إنه هايبقى مهندس حبست نفسي يومين بأعيط وباستغفر ربنا إني فرقت بينهم.

ثم أردف وهو ينظر في عيني:

- لما ربنا يكتب لك رزق من الذرية.. ما تفرّش بينهم مهما حصل.

لم يدرِ جدي أنه قد ضرب وترًا حساسًا عندي حين تحدّث عن الإنجاب الذي لم أنل حظي منه. كانت هذه من المرات القليلة التي يفتح فيها رفعت قلبه لي، انتهزت الفرصة وسألته عن سبب اعتزاله الحياة باكراً؛ السؤال الذي أرّقني طويلاً دون إجابةٍ شافيةٍ.. سكتَ قليلاً ثم أجاب أن الحياة لا تطيب له بعد وفاة أبي.. عرفتُ أنه يكذب على غير عاداته، فهزّزتُ رأسي نافيًا وصححت له قائلاً:

- أنا كنت صغير بس فاكر كويس.. أنت سايب البيت قبل حادثة العربية اللي أبويا وأمي ماتوا فيها.

زفر مستسلمًا، نظر إلى السماء وقال إن هذه إرادة الله..
قلتُ له بهدوءٍ إن الله لا يُريد له- بالتأكيد- أن يعتزلَ
الحياة ويقتاتَ من التسول مثل الشيخ صالح.. وبّخني قائلاً
بلهجةٍ جادة:

- أنا مش عايش شحاة.. الأكل اللي بيجيلي من الناس ده
كله رد لجميل عليهم.. أنا ياما إديتهم فلوس وأراضي
لما كانت نص البلد ملكي.

- ماهه ده اللي مجنني.. حدّ يبقى عنده كل ده ويعيش
في جامع زي الدراويش؟!

- إرادة ربنا يا يحيى.

- إرادة ربنا إن عطوة يفترى على أهل البلد ويلم منهم
إتاوات؟!.. إرادة ربنا إن فرحة تلحقنا منه بالعافية؟!..
إرادة ربنا إنه يخليّ ناجي يشتغل معاه وإن حسن
يموت بسبب علاقاته مع ناس زبالة زيه؟.. إنت إزاي
سايه يعمل كل ده وأنت قادر تمنعه؟

نظر مباشرةً في عينيّ، وقال بغضبٍ:

- وليه ربك سايب الشر اللي في الدنيا مع إنه على كل
شيء قدير.. من غير الشر عمر الخير اللي جواك وجوه
واحد زي حَسَن- الله يرحمه- ما كان هايبان!

- إنت مش ربنا عشان تحكم.. ولسّه قادر ترجع وتهدّ
المعبد على دماغ اللي فيه.

- بس مش كل اللي في المعبد يستاهلوا كده...

قاطع حديثه صوتُ رنين هاتفي، كان المتصل ناجي،
أجبتُ على الفور وبعد ثوانٍ أنهيتُ المكالمة ونهضتُ من
مكاني مُسرّعًا وأنا أقولُ لرفعت:

- دي جارة ناجي في الحسين.. بتقول لي إنه اتخطف!

٤

خَارِجُ الصُّنْدُوقِ

انغلق القبرُ ببطءٍ مُعلنًا هيمنة الظلام التام.. صرختُ
من أعماق روحي أنني ما زلت حيًّا، ولكن أحدًا من
المُشيعين لم يسمعني، رحلوا جميعًا وتركوني أواجه الموت
وحدي.

لم تكن لحظاتي الأولى تحت الثرى يسيرةً؛ بدأت تتجسّد
أمامي خيالاتٌ مُفزعة.. وكان عقلي يُعاقبني على ما فعلته
بنفسي؛ فبدأ يعرضُ أمامي المخاوف الكامنة في أعماق نفسي
البشرية. لو كانت لديّ القدرة على الحركة لارتجفتُ كل
جزئيات جسدي من فرط الهلع. الآن فقط أستوعب المعنى
الحقيقي للهول الذي يختزله البشر في مواقفٍ عاديةٍ، يعجزُ
عقلي عن خلق الكلمات التي تصفُ شعوري في هذه
اللحظات المريرة، لا أظن أنني سأعيشُ بعد ما رأيتُ،

حتى وإن مدَّ الله في عمري قليلاً فستتوقف حياتي عند
هذا الموقف الذي لن أستطيع نسيانه.. أريد الخروج من
هذا اللحد بأي ثمن!

الثلاثاء 7 فبراير 2006

صدقت توقعاتي لثاني أيام العزاء؛ حين انفضَّ الجَمْعُ ولم
يُقبَل على العزاء الكثيرون من خارج العائلة.. انقضت ليلةٌ
طويلةٌ ملأتني بالضجر، وملأت هواتف الطحاوية بالأرقام
الخاصة برجال الأعمال وذوي الحிثة ممن أتوا لمجاملة
عطوة. اتصل بي ناجي من رقمٍ غير مُسجَلٍ لديّ أثناء
توجُّهي إلى القاهرة بحثاً عنه، أخبرني أن جارته قد بالغت
في الوصف حين ظنَّت أنه اختطف؛ أقسم أنه بخير، وأنه
سيختفي لمدة يومين إنجازاً لعملٍ شديد الحساسية يخص
مُوكلاً مهمًّا.. حاولتُ أن أستشف من كلامه إن كان واقعاً
تحت أي تهديدٍ.. طمأنني وطلب مني ألا أخبر أحداً من
العائلة؛ فبررت اختفائه ثاني أيام العزاء بأنه قد مرض حزناً
على ابن عمه. قررتُ أن أبلغ الشرطة والجميع إن طال
اختفاؤه ساعة عن المهلة التي حددها.

قُدت سيارتي متوجّهاً لزيارة أمجد في عيادته.. ملحتُ
أثناء مُغادرتي للقريّة عزاءً بسيطاً قليل التكاليف خَمَّنت
أنه يخصُّ ابن فاروق السبَّك الذي انسحب من العالم

بنفس الهدوء الذي أتى به، لمحتُ أيضًا المقهى مُكتظًا بأهلها مُجتمعين حول التلفزيون.. تعددت المقاهي والبؤس واحدًا! عرفت فيما بعد أنهم كانوا يُتابعون مباراة منتخبِي مصر والسنغال.. لم أعرف هل أحزن من قرية لم تراع حرمة فقيدِها في ثاني أيامهما تحت التراب، أم أحزن من بلدٍ كاملٍ لم يُعلن يومًا واحدًا من الحداد حزنًا على فقدان أكثر من الألف شهيد!

حاول المسئولون وأد قضية العبارة وإبعادها عن العقول بشتى الطرق، ونجحوا في ذلك بمرور الوقت، وبفضل المهليات الكثيرة التي يستخدمونها دائمًا مع الناس جاعلةً منهم سمكًا بلا ذاكرة...

اللعنة!.. من أين ظهر هذا الكلب الأسود!؟

جلستُ وحيدًا في غرفة الانتظار مُترقبًا دوري في الكشف.. كان ذوق إيفلين زوجة أمجد واضحًا في كل أركان العيادة؛ فموسيقى ريتشارد فاغنر تنبعثُ بصوتٍ هادئٍ من اللامكان تاركةً بداخلي وقعًا رائعًا، ولوحات مُقلدة بإتقان لفرانتس مارك وفريدريش على الجدران تتوسط شهادات أمجد الطبية باللغتين العربية والإنجليزية. حرص جُبران على تنفيذ تعليمات أمجد بخفض الإضاءة ورش مُعطر الجو كل نصف ساعة مع عدم خلق أي فرصة لإثارة الضوضاء. أخذت من

فوق مكتب جُبران إحدى المجلات الخاصة بالطب النفسي؛ قرأتُ أحد المقالات المكتوبة بأسلوبٍ مُبسَّطٍ عن الفرق بين المرض النفسي والعقلي. خرج جُبران من الحمام للمرة الثالثة خلال نفس الساعة مُعتذراً لي عن تأخر أمجد في داخل غرفة العلاج، لم أتعجب طوال فترة علاجي أنه لم يسألني عن مرضي؛ فقد تعلَّم من أمجد الحرص على خصوصية المريض والتعامل معه باحترافيةٍ دون الحكم على أي تصرفاتٍ تحدث داخل أروقة العيادة.. أخبرته مازحاً أن يرشَّ قليلاً من مُعطر الجو على قميصه حتى لا يعرف أمجد أنه يدخُن خلسةً في دورة المياه، ضحك في خجلٍ وطلب مني ألا أخبره.. سألته عن الكفن بحذرٍ فأخبرني ألا أقلق، فكل شيء على ما يُرام. على الجانب الآخر من الباب تفرَّس أمجد في مظهر المريضة الجالسة أمامه؛ كانت على درجةٍ كبيرةٍ من الحُسن، ترتدي فستاناً زاهي اللون وصففت شعرها على هيئة ذيل الحصان، ظلَّت تتأمل شكله الأقرب لنجوم السينما؛ ببشرته البيضاء وعينيهِ العسليتين وأنفه الدقيق وذقنه الذي يقفُّ لونه على الحافة بين اللونين البني والأحمر كأنه مصبوغٌ بالجِنَاء.. سألت بعد دقائق من الصمت المخرج عن نسبة الأمل في شفائها من المرض الذي استحوذ عليها.. ابتسم أمجد قائلاً:

- مافيش مرض مالوش علاج.. تعرفي إني عشان آخذ
رخصة علاج نفسي برّه قعدت سنتين أتعالج وأتحلل نفسيًا.

قالت باندهاش:

- يعني كل الدكاترة اتعالجوا نفسيًا؟

قصّ عليها أنّ هذا الأمرَ طبيعي خارج مصر، مُستشهدًا
بخضوع كل المحللين النفسيين المشهورين للتحليل النفسي؛
باستثناء سيجموند فرويد الذي قطع علاقته بكارل يونج
حين حاول أن يُحلل له أحد أحلامه.. سألته بخجلٍ:

- مش فرويد ده اللي معظم تحليلاته بتروح لحاجات
مش كويسة؟

أوماً أمجد برأسه دون أن يفقد ابتسامته، شرح لها أنّ
معظم تحليلات لفرويد توّول للغريزة الجنسية، مؤكّدًا أنه
لا يُشاركه نفس المجال؛ فشتّان ما بين المُحلل والطبيب
النفسي.. قالت بحذرٍ:

- هو ينفع مريضة تحب الدكتور بتاعها؟

ردّ ضاحكًا بخجل أنّ أحد المحللين النفسيين من أصدقاء
فرويد قد حدث معه موقفٌ مماثلٌ؛ فمع الوقت تهيأ
لإحدى حالاته أنها تُحبه، وراودتها تخيلاتٌ عن حملها منه،
حتى تركها واعتزل المهنة كليًا.. قاطعت حديثه الذي بدأ

يُثير مللها مصارحةً إياه بحبها له، احمرَّ وجهه حياءً وقال
بهدوءٍ:

- مش غريب إنك "تُعجبي" بالدكتور بتاعك.. لأن بيكون
جواكي مشاعر متخزنة تجاه القربين منك، المشاعر دي
بتطلع لما الدكتور بينكش عنها؛ سواء حُب أو كُره.

وأردف مُحذراً بلهجةٍ جادةٍ أنه سيضطر لتحويلها لطبيبٍ
نفسي آخر يثق فيه، في حالة زاد هذا الشعور عن حدِّه
لدرجة التي قد تضرَّ علاجها، أو تؤذيه في حياته الشخصية.
شَرَعَتْ في البكاء المُفاجئ بصوتٍ خفيضٍ، فنهض من مكانه
وجلس مُقابلاً لها قائلاً برفقٍ:

- إنتي مش بتحبيني يا حنين؛ مشكلتك إنك مالقيتيش
حدَّ يعوضك عن حنان والدك.. وقلت لك قبل كده
إن سبب مرضك الرئيسي هو المشاكل اللي حصلت بين
أبوكي وأمك، واللي بعدها أبوكي ساب البيت واختفى
تماماً من حياتك.

قالت وسط نحيبها الذي قلَّت حدَّته إن سنها قد تخطى
العشرين، والمفترض أنها تجاوزت ذلك الصراع.. أجابها بحذرٍ:

- للأسف فيه جزء من عقلك مُتوقف عند الصراع ده
ورافض يتجاوزه.. عشان كده ساعات بتلبسي وبتتصرفي

زي ما تكوني طفلة عندها تسع سنين؛ وقت حدوث الصراع ده في حياتك.

- بس ده مش سن صغير على تحوُّل نفسي كبير زي ده؟

- لأطبَعًا.. كل واحد في سن خمس أو ست سنين تقريبًا بياخد early decision بيحدد من خلاله كل قراراته المستقبلية وبيخزنها في عقله الباطن.

- بس مش ممكن القرارات دي تتغير مع الزمن؟

- أكيد.. التغيير بيحصل بشكلٍ تدريجي من خلال تجارب الحياة سواء النفسية أو العاطفية، ده غير عوامل تانية زي البيئة المُحيطة واستعدادك النفسي للتغيير ده.. المهم دلوقتي الجلسة خلصت، نتقابل يوم...

قاطعته بصرخةٍ مُدوية انطلقت من حنجرتها، شرعت بعدها في البكاء ودفنتُ وجهها بين يديها.

لم يتوقف ناجي عن إطلاق السباب على خاطفيه دون أن يُبدي مقاومةً جسديةً لهم خشية أن يتعرض للأذى. حملوه بعد أن ربطوا عصابة على فمه وعينيّه.. سمع صراخ جارتها الأرملة، التي تعيش بمفردها، حين رأتهم يهبطون به درجات العقار المتهالكة.. وبعد نصف ساعة أراحوا

غطاء عينيه ليجد نفسه في مخزن رطب وحوله الكثير من الأسلحة.. وخمسة رجال من ذوي البنى الضخمة، والذين لم تخلُ وجوههم من ندوب، قال أحدهم:

- المعلم عيد لما اتقبض عليه قال لنا ماتسيبوش أستاذ ناجي غير لما يطلّعي.

فكّ آخر قيوده ولثام عينيه.. عدل ناجي من وضع بيجامته المنزلية، نزع كمامة فمه وصاح فيهم مُطلقًا الكثير من الشتائم، لم يبدُ على أحدهم أي تأثير بلعناته التي تنهال عليهم، قال بعد أن أطلق صوتًا اعتراضيًا:

- إنتوا رجالة عيد المَجْبَرَاتِي؟.. ماهه لازم يتقبض عليه عشان مشغّل بهائم زيكووا!

ردّ أضخمهم حجمًا مُهددًا بأنه لا داعي لمثل هذا الأسلوب في الحديث.. لم يبدُ على ناجي الخوف، ذكّرهم أن روح المعلم عيد بين يديه، وأردف مُحذرًا إذا جرى له مكروه فسينتهي مصير ربّ عملهم إلى الأبد.. قال آخر بهدوء:

- المعلم اتقبض عليه وهو رايح يجامل في فرح؛ كان معاه فرد خرطوش.. ومحجوز في القسم اللي جنبنا.

أشار ناجي إلى أضخمهم قائلاً:

- والبغل ده ماخدش منه السلاح ليه لما الحكومة كَبَسِت، آهه كان ديته كفالة وقضية حيازة.

- أصله كان فرح قرايبه، ومكانش عايز حدّ فينا يروح معاه.

لم يعبأ بنظرات التهديد التي رآها في عين ذلك الضخم والذي بدا أنه من ينوب عن المعلم، وقال بلهجةٍ عمليةٍ:

- حدّ يوصل البيت يجيب لي نضارة القراية والسجاير بتاعتي.. ويا ريت وهو نازل يعدّي على أي كُشك يجيب علبة تانية زيها، ويفوت على المزاجنجي يشتري لي ساندويتشين سمين، بس خلوه يصفّيهم من الزيت كويس.

لم يعبأ بنظرات الاستنكار والدهشة التي رآها في أعينهم، وأردف قائلاً:

- وواحد تاني يروح القسم يدّي الأمين زينهم ورقة بخمسين وياخذ صورة من المحضر، وإعوا تطلبوا منه يدخّل حاجة للمعلم بتاعكوا ولا تقولوا له إن الموضوع يخصّني؛ مش عايزهم يحسُّوا إننا بنتحرك عشانه، وعايز حدّ يروح وسط البلد يقابل صاحب قهوة هناك اسمها "الصعيدي" يقول له إنه من طرفي.. وبالمرّة شوفوا حدّ ما يكونش مُسجّل، قولوا له جهّز نفسه عشان احتمال ندخله الحجز إنهاردة.

اعترض أضخمهم طالبًا أن يشرح لهم مبتغاه من كل ما طلب، فردَّ ناجي ساخرًا أنه إما أن يفهمه أو يحصل على براءة المعلم، أمرهم بسرعة التحرك. قسّموا المهام فيما بينهم، وتركوا أحدهم بصحبة ناجي حتى لا يهرب. سأل ناجي مُستدرِّكًا- قبل مغادرتهم- عمّا إذا كان المعلم عيد لا يزال يعمل مع رجل الأعمال الكبير الذي يتاجر سرًّا في الآثار والسلاح، فشل في تذكُّر اسمه فأطلق عليه: "حوت الحزب الوطني".. تبادل رجالُ المعلم عيد نظراتِ الحيرة والتردد، فنهرهم ناجي قائلاً:

- الراجل ده مفتاح خروج المعلم بتاعكوا.. انطقوا!

أجاب أضخمهم مُتجاهلاً تحذيرات رفاقه:

- آه لسه شغال معاه.. اسمه صبري بيه العموري.

قال ناجي بفهم:

- عشان كده المقدم شريف مستقصد الدودة اللي

مشغلکوا.. عايز يوقّع التعبان الكبير.

- إحنا عارفين كذا حدّ من رجالاته، وسمعنا إن وراهم

عملية تسليم بكرة.

قال ناجي بجديّة:

- طب كويس.. عشان هانبُلِّغ عنهم.

برغم أنني لا أرتاح أبدًا على تلك الأريكة الخاصة
بالعلاج النفسي "الشيزلونج" إلا أنني لم أقدر يومًا على
رؤيتها دون الاستلقاء عليها وسرد أزمة حياتي على أمجد..
كنتُ أدفعُ ثمن الجلسة كأني مريضٍ آخر، الأمر الذي لم
يعترض عليه أمجد من باب "المعاملة الإنجليزي". اعتذر
لي عما سببته المريضة السابقة من هلعٍ وإزعاجٍ، أسرَّ إليَّ
بصعوبة مرضها؛ فكثيرًا ما تدخل في نوبات بكاءٍ مُفاجئةٍ
وتتحدث مثل الأطفال دون أن تشعر، لتفوق من تلك
الحالة لا تتذكر شيئًا مما حدث. تناول ملقًا سميًا من
درج مكتبه المكتظ بملفات باقي المرضى، أخبرني من قبل
أنه يقضي أيام عطلة أمام الكمبيوتر؛ ليفرغ كل ملحوظاته
التي خطها في دفتر ملاحظاته أثناء الكشف وكل التسجيلات
الصوتية، ويرفقاها داخل هذه الملفات.. راح يقرأ من ملفي
مُستعيدًا أولى جلساتنا التي انعقدت منذ سنة تقريبًا؛ حين
عاد ليستقر في مصر.. أخبرني أن مشكلتي لم تكن واضحةً
له في البداية؛ شخصٌ يهاب الموت كسائر البشر، وبعد فترةٍ
شخصٌ حالتي على أنها وسواس قهري.. كنت على درايةٍ
بكلِّ ما قال، أشرت إليه ليسرع في سرده، فأردف قائلاً:

- الوسواس ده عبارة عن فكرة بتجيلك إنك هاتموت
وأنت بتحاول تقاومها، فضلت تقاوم الهاجس ده لحدِّ
ما دفاعاتك انهارت..

اعتدل في جلسته أمامي، قال بلهجة آسفة- دون أن ينظر في الملف- إن فرع الطب النفسي مُعقد؛ تحدّث عن حُلم الأطباء والمحللين النفسيين بوجود جهاز طبي قادر على اكتشاف المرض وتحديدِه بشكلٍ قاطعٍ بعيداً عن الفرضيات.. تجاهل الضجر الذي ظهر على ملامحي من كلامه العائم.. أشار بيده طالباً مني أن أصبر، قال بعد أن عاود النظر في ملفي:

- مشيت معاك في فرضية إن عندك وسواس قهري، وجربنا كذا آلية للعلاج؛ جربنا العلاج الدوائي اللي برع فيه أطباء جامعة عين شمس.. وأخذت جرعات من الفلوكسيتين fluoxetine مع كذا دوا تاني بس حالتك ما اتحسنتش.

عدّل من وضع نظارته الخاصة به.. كانت رقيقة العدسة بلا إطارات، واستكمل حديثه قائلاً:

- واشتغلنا بالعلاج النفسي اللي برع فيه أطباء القصر العيني.. طبعاً المدرستين بيؤمنوا بأهمية العلاج النفسي والدوائي مع بعض، بس أنا باذكر اللي برع في مجال أكثر من التاني. المهم إن برضه حالتك ما بتتحسنش.. عقلك مش قادر يتجاوز الحادثة اللي اتعرضت لها في سن المراهقة لما العربية اتقلبت بعيلتك، وفضلتوا فترة

محبوسين جَوَّاهَا، وشاء القدر إن أنت وأخوك تطلعوها
بإصابات خفيفة، وإن أبوك وأمك...

أشرتُ له كي لا يُكمل جمَلته؛ ارتجفت كل أعضائي لدى
سَماع تلك الذكري.. لم يعبأ أمجد بالفزع الذي ظهر على
مَلامحي، وأكمل حديثه ممتدحًا حمايتي لأخي من أي عُقدة
نفسية قد تصيبه حين احتضنته وجعلته يُغمض عينيه يوم
الحادثة؛ فلا يرى منظر والديه قاطعين النفس مُحطمة
أجسامهم، وصفني بالبطل لأنني تعايشتُ مع الحادثة
بمفردتي. أخبرني بإصابتي بهوس من فكرة الموت مُذ تلك
اللحظة، ذكّرني بالكوابيس التي تُطارِدني بشكلٍ شبه يومي؛
أراني فيها ميتًا، وأعيش تفاصيل الموت منذ لحظة انقطاع
النفس حتى دخول القبر.. قلتُ له بعصبيّةٍ إن حالتي قد
سَاءت مؤخرًا؛ فالكابوس بدأ يأتيني بدايةً من اللحظة التي
أغفل فيها، ولا أستطيع التعايش معه، ولا أقدر- بالطبع-
على الامتناع عن النوم، وأنَّ الوضع قد تأزم أكثر بعد وفاة
حسن؛ فأصبح الكابوس يقتحمُ عقلي أثناء لحظات سرحاني
وأحلام يقظتي!.. نظرت إلى السقف وتحنّنتُ في خجلٍ
قائلًا:

- علاقتي بمراتي ما بقِتش بخير خالص، لدرجة إن شوية
الأمل اللي كانوا عندها في الخلفة راحوا.. استقلت من
شغلي في المدرسة، ومش قادر أكتب حرف.. لو اللي

حواليًا حسّوا بحاجة مش هايرحموني وممكن يرموني
في مصحة زي شكري.

أوشكت العبرات على الخروج من عينيّ حين ضربت
رأسي بكف يدي وأردفتُ قائلاً:

- أنا تعبت يا أمجد؛ بقيت بشوف الموت في كل حاجة
حواليًا، ريحته ما بتفارقنيش، بتجيلي هواجس دايماً إن
النّفس اللي باخده ده هو النفس الأخير، مرعوب أخسر
نفسي في غمضة عين.. حاسس إني عايش بنبض صفر!

تعرف إني فكّرت في الانتحار كذا مرة من كتر الخوف؟!

رد أمجد بهدوء- كأنه لم يسمع شكواي- أنه استغلّ
سفريته الأخيرة وعرض حالتي على البروفيسور "بيتر
مورجان" الذي أشرف على زمالته أيام البعثة، وأنه طرح
تشخيصاً لمرضي كان أمام ناظري أمجد طوال الوقت؛ ولكنه
استسهل ولعب على الفرضية الأكثر شيوعاً.. سألته بلهفةٍ
عن التشخيص، أجاب مُبتسماً:

- ثاناتوفوبيا ونيكروفوبيا يا يحيى.

- مرضين!

- الإتين إلى حدّ ما مرتبطين ببعض؛ الثاناتوفوبيا هي
مرض "الخوف من الموت"، ووجود هواجس عند
الإنسان إنه هيموت قريب.. أما النيكروفوبيا فهي

الخوف من كل شيء متعلق بالموت؛ زي الجثث وخشبة الحانوتي والكفن والنعش، وأي حاجة من مقتنيات واحد مات قُرب ممكن تخوِّفك، ده غير كلامك عن الحالة اللي بتجيلك كل ما تكون في مستشفى أو حتى جنازة معديّة قدامك.. وده بيفسر الكوايس، وبيفسر الاضطراب السلوكي والعصبي اللي بيظهر عندك، مش محتاج أقول لك إن وجودك في موقف زي اللي حصل لك زمان ممكن يعمل أكثر من كده.

أكمل حديثه أن هذه الأمراض صارت مصحوبةً مؤخرًا فيما يُعرف باسم Panic Disorder؛ أي اضطراب هلعي يأتي في صورة نوبات خوف وشعور بالخطر.. ذكّرني بالحالة التي عشتها في جنازة حسن، وبشكواي الخاصة باستيقاظي من النوم مذعورًا غارقًا في عرقي، لا أستطيع التحكّم في قلبي الذي ينبض كالطبل، ولا في نفسي الذي يضيق... قاطعته ساردًا عليه الكارثة الحقيقية: أن هذا الاضطراب بدأ يأتي في لحظات اليقظة، أصبت به بعد دفنة حسن مباشرة.. قال بلهجةٍ حَذِرَةٍ من غضبي:

- الكارثة الحقيقية إن الثاناتوفوبيا والنيكروفوبيا - زيهم زي معظم الأمراض النفسية - مالهمش علاج واضح سواء نفسي أو كيميائي.. بس أنا قررت أستعمل معاك أسلوب علاج نفسي جديد.

ثم قام من مكانه وانحنى أمام درج مكتبه، أخرج كيسًا بلاستيكيًا، وألقى عليّ ما فيه.. لأصرخ رعبًا مذكرًا إياه أننا اتفقنا في الجلسة الأخيرة على أن ألمس الكفن من بعيدٍ. قال أمجد بصرامةٍ:

- اتعودّ عليه من دلوقتي.. ده مجرد بروفة لطريقة العلاج.

سألته بفهم:

- هتعالجني بالصدمة؟

- طريقة العلاج في حالتك اسمها "العَمْر".. والعلاج بالعَمْر ده مرحلة أشد من العلاج بالصدمة.. بيتم فيه تعريض الحالة لمخاوفها بشكلٍ أقوى.

حاولت أن أتجنّب ملمس الكفن الذي أجبرني على الإمساك به، وطلبت منه أن يشرح تلك الطريقة.. قال إن الشرح المفصل قد يطول بلا داع، فسيختصر قدر الإمكان ضاربًا المثل بحالتي:

- يعني أنت لازم تتغلب على الصراع اللي نشأ عندك وأنت صغير، محتاج تعيش تجربة شبه الكابوس اللي مجننك ومبوّظ حياتك عشان تخفّ منه.. زي ما تقول كده مُحاكاة أو Simulation .. غالبًا هاتجيب نتایج إيجابية، وفرضًا ما خفتش بشكلٍ كُلي؛ فعلى

الأقل هاتكون شوفت ما هو أبشع في الواقع، وساعتها الكابوس بالنسباك هايكون مجرد لعب عيال.. وطبعًا كل ده لازم يتم بموافقتك، وأنا هنا هيكون دوري "معالج نفسي" بالمفهوم العام.. مش طبيب نفسي؛ لأننا بنجرب طريقة علاج تعتبر مش موجودة.

لم أفهم بعضًا من حديثه، سألته المزيد من الشرح.. فشبهني بمريض البرد الذي يُلقى داخل حوضٍ به ماء مثلج كي يُشفى، وأكمل حديثه قائلاً:

- يعني أنت ببساطة خايف من الموت، فاحنا هانموتك!

احترس كابوس مُتكرراً!

الأربعاء 8 فبراير 2006

نَفَذْتُ وَعَدِي أخيراً بالبيات لدى فرحة في بيت العائلة الذي تعيش فيه مع نرجس.. نائمة كملاكٍ أعيته الحياة مع البشر؛ تجاعيد وجهها الأسمر، عيناها المنهكتان، قامتها التي قصرت وفقراتها التي انحنت، شعرها الأبيض الذي تساقط معظمه أسفل حجابها.. يجتمعون ليَقْضُوا الكثير مما عانت ورأت.

كانت تحظى بحب واحترام جميع أفراد العائلة منذ صغرها، ولم يظفر بقلبها منهم سواي.. اهتممت جيداً بصحتها وبصحة رفعت عاملةً أن قطار الزمن سيفرم الجميع تحت عجلاته، أتذكر بريقَ عينيها وإشراق وجهها أيام صغري.. حتى أنني في بعض الأحيان كنتُ أراها أصغر سنّاً من أمي،

خَفْتُ وهج ملامحها بعد رحيل جدي من المنزل مُفضلاً
إكمال ما تبقى من حياته مع شيخٍ ضريّرٍ، بدأ المرض
يطرُقُ بابها بعد وفاة أبي.. أصيبت بالجلطة التي أعقبها
شللٌ نصفي في آخر مشهد في صراعها مع ابنها عطوة؛ من
أجل حقي أنا وناجي والذي خرجت منه مُنتصرةً. في معركةٍ
مع مستبداً كهذا تحتاج للكثير من الجرأة والذكاء والإصرار
على الحق.. وهكذا كانت فرحة.

لا أذكرُ أنني رأيتها تشكو من أحدٍ قد آذاها.. هجرها
زوجها ولم يَفْجُرْ لسانها في حقه بعد الفراق، مات ابنها
الأصغر ولم تفقد إيمانها في خالقها وقابض روجه، افترى
كبيرها على جميع مَنْ سواها ولم تتمنَّ له من الله سوى
الهداية، انهالت عليها لطماتُ الزمن وظلت كما هي: فرحة.

وصل فرحات إلى منزل العائلة كما جرت العادة الأسبوعية
أيام السبت والإثنين والأربعاء، بعد دقائق لحق به أطفال
القرية؛ ثلثة منهم أتوا مُرغمين بإلحاح من أهاليهم وقليلٌ
منهم أتى مقبلاً.. أمرهم فرحات بالالتفاف حوله في أحد
أركان البهو المتسع، لم يلتفتوا إليه وركضوا جميعاً مُقبِلين
يد فرحة التي طالما أهدقت عليهم بالعملات المعدنية
وبعضاً من الحلوى التي كانت تأمر نرجس بإحضارها لهم،
صافحني فرحات بفتور، وطلب من الأطفال الابتعاد عن
فرحة حتى ترتاحَ ويبدأوا دروسهم.. عاوتها على الصعود

إلى حجرة نومها التي قلّما تنزلُ منها في الفترة الأخيرة.. أثناء صعودنا المتهمل سمعت فرحات يسأل الأطفال عن السورة التي سيمتحنهم فيها، فأجاب أحدهم بسرعةٍ وقد بدا من صوته الواثق أنه أنجبهم:

- هانسمّع من الماضي سورة قاف، والجديد النص الأول من سورة مريم.

بدّلت ملابسِي وغمّت إلى جوارها.. لأول مرة منذ زمنٍ لا يزورني هذا الضيف الكابوسي اللزج؛ فقط نوم مظلم بلا أحلام، وكأن فرحة هي دواء لعنتي ومرضي...

مهلاً، يبدو أن مفعول فرحة قد زال وأن ضيفي الثقيل اقتحم أحلامي مُعتذراً عن تأخره..

بدأ صوتُ تلميذ فرحات النجيب يعلو بالتلاوة من سورة قاف متداخلاً مع المشهد الذي أمثّل فيه دور البطولة.. فما أنا ذا على فراشي أطلق كحة قوية.. أحاول أن أنادي مي لأخبرها أنني لستُ على ما يُرام فيأبي صوتي الخروج، جالسة أمام التلفزيون لا تعبأ بي كالعادة، صارت تُعاملني مؤخراً كأنني ضيف في زنانة الزوجية..

(وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ)

كانت تصرخُ بالضحك على نكات سعيد صالح في "مدرسة المشاغبين" برغم أنها شاهدت هذه المسرحية ما

يزيد على الخمسين مرة! حاولت أن أحرِّك أي شيء بجواري كي تسمعني بلا جدوى. قلبي ينبض بعنفٍ وكأنه يشتاقي إلى التحليق بعيدًا عن صدري، أحسستُ بسخونة وجهي وبعجز قدميَّ، رحْتُ أضربُ الهواء بيديَّ كالغريق بلا قشةٍ.. لم أعرف متى اقتحم عطوة غرفتي، حاولتُ أن أستغيث بمي منه، وقف أمامي ضاحكًا بصوتٍ أجش.. سمعتُ في الخلفية نكات سعيد صالح التي لم تتوقف، قال لي بصوتٍ غريبٍ عن صوته:

- حانت لحظتك يا ابن آدم.. هل أنت مُستعد؟!

حاولتُ أن أجيب نافيًا بشتى الطرق، فلم يصدر عني سوى حركاتٍ عشوائيةٍ غير مفهومةٍ.. فاستمر الصوت قائلاً:

- ألم تؤمن يومًا بفنائك؟.. لا يهم إن كنتُ مُستعدًا أم لا، فإن أجلك إذا جاء لا يُؤخر.

حاولتُ أن أطلب فرصةً أخيرةً فسمعتُ:

- أغلق باب عودتك، وانقطع عملك في الأرض.. الآن لا حيلة لك ولا مفر؛ ولو اجتمع الناسُ كلهم على أن يمنحوك نفسًا زائدًا.. ما منحوك إلا ما كُتِب لك.

حاولتُ أن أبعد هذا "الكيان" عني، أو أشتت تركيزي عنه علَّه يرحل.. ضحكات مي بالخارج تزداد، و"مرسي ابن المعلم الزناتي اتهزم". شعرت ببرودةٍ شديدةٍ تجتاحني،

واقترح صوته كافة حواسي.. لم أعرف كيف يُحدثني الصوتُ
متجسداً في عطوة الذي لم يزرني في هذه الشقة من قبل،
أسمع صوت ضحكاتٍ مي آتياً من بهو المنزل.. بدأ يتقدم
نحوي ببطءٍ باسطاً يديه دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.
- (لقد كنت في غفلةٍ من هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

جلس أمجد أمام شاشة جهاز الكمبيوتر في منزله يُطالع
بريده الإلكتروني.. لم يلحظ إيفلين التي اقتربت منه حاملَةً
طبقة خزفياً، جلست مقابلة له وشرعت تأكل في صمت،
قال لها بسعادةٍ إن دكتور بيتر قد وافق على تنفيذ طريقة
العلاج التي فكرا فيها معاً.. أجابته إيفلين بفمٍ مليء
بالطعام أنها جاهزة بالتركيبة الطبية.. هز رأسه مُشجعاً..
استدركت بعد صمتٍ قصيرٍ مُتسائلةً عما إذا كان شخصٌ
آخر قد علم بأمر التجربة.. أجابها بهدوءٍ:

- لأ.. حتى جُبران مايعرفش.. بس ناجي أخو يحيى
عارف، أصله محامي وهيخُلص إجراءات الدفن والورث، ده
غير إنه هايكون مشرف على تنفيذ التجربة في طحا، ولو
حصل أي قلق سهل يحتويه.

ثم أردف قائلاً بقلبي أن مَكَمَن المشكلة في يحيى الرافض
لإجراء التجربة خشية أن تنقلب المحاكاة إلى حقيقة ويموت!..
تساءلت إيفلين عن تفسير وفاته في كوابيسه.. قاطعها أمجد
قبل أن تنهي جملتها مُصححًا:

- يحيى مش بيموت، هو في الحلم الي حوالية بيعاملوه
كأنه اتوفي، وبيعيش التجربة كأنه روح عايشة في جسم
ميت. بصي الموضوع نفسيًا شرحه صعب.. بس علميًا لو
حد حلم إنه مات وروحه انقبضت في الحلم يبقى مات
بجد؛ زي الحلم الي الناس كلها بتحلم بيه بتاع السقوط
الحُر؛ لو السقوط حصل فعلاً في آخر الحلم يبقى الي
بيحلم مات في الحقيقة؛ لأن المخ بياخذ إشارة بانتهاء عمله..
يعني من رحمة ربنا على يحيى إنه بيصحى أول ما القبر
بيتقفل عليه.

سألته عن إمكانية إقناعه بإجراء التجربة.. طمأنها إلى
قدرته على هذا؛ فلا حلَّ أمامه إلا هذه المحاكاة، طلب
منها أن تكون مستعدةً بالتركيبة.. أعربت بصوتٍ خفيضٍ
عن قلقها من أن تكون سببًا في حُزن عائلةٍ كاملةٍ على
ابنها.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾

انهار جسمي على الأرض بجوار الفراش، وعلى الرغم من الصوت العالي الذي أحدثه وقوعي إلا أنني لم أشعر بأي وجع.. أحاول النهوض فلا يتحرك لي جفن!.. أحاول الصراخ مرةً أخرى فلا أستطيع.. أحاول فِعْلَ أي شيء غير التحديق في أرضية الغرفة.. فلا تتحرك عيناى عن هذه الزاوية التي سقطت عليها. أقبلت مي مُسرعةً على صوت سقوطني لتجدني بلا حول ولا قوة، حاولت رفع جسدي إلى الفراش فلم تستطع إلا أن تقلبني لأستلقي على ظهري.. صاحت فيّ لأستيقظ ولكني لم أفعل، اشتد صراخها وراحت في نوبة بكاء.. اصرخي كيفما شئت ولكن ابتعدي عن أذنيّ أيتها المزعجة.. ألا لعنة الله على بنات جنسك!

نهضت من جوارى وتركتني طريح الأرض، ظلّت واقفةً في حيرة لا تعرف ما العمل، وبعد مكالمة هاتفية قصيرة مع ناجي حدث كل شيء بسرعة؛ من الغُسل إلى التكفين إلى الصريخ إلى رحلة المقابر المرهقة إلى دعوات بالرحمة والمغفرة من حنجرة الشيخ عزازي إلى تأمين عليها من أهلي وباقي المُشيعين إلى الدخول إلى ظلمات القبر وانعدام الرؤية من خلال قماش الكفن الخانق إلى صوت سلامة وهو يبدأ في إغلاق القبر!.. كنتُ أرغب في وجود ولد صالح يدعو لي ويحوز اهتمام المُشيعين. الآن ستنتهي آلامي ومعاناتي إلى

الأبد، ليفنَ البشر جميعًا من بعدي، ليحترقَ العالم بعد
فقداني.. اشتدَّ الإِظلامُ من حولي وقللَ الكفن من سرعة
أنفاسي.. أرى وسط الظلام نورًا أبيض اللون، ولكنه بعيدٌ..
هل هذا بصيصُ الأمل في العودة أم أنه بداية لظهور...

﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾

- اصحى يا يحيى.. الغدا جُهِز.

لا يزال ظلامُ القبرِ يُحيط بي برغم عودة حواسي إلى العمل
في الواقع.. أدركتُ أن نرجس من أيقظتني بصوتها المزعج
ولهجتها الريفية، سألتها عن فرحة فأجابت بفخر طفولي
أنها أوقظتها منذ قليلٍ هذا حتى تُعطيها الدواء في ميعاده..
لعنتها في سري وأنا في حالةٍ ما بين النوم والاستيقاظ.. حاولتُ
بصعوبةٍ أن أفتح عينيَّ لأجد مؤخرة نرجس العريضة أمامي،
تمثل أنها تُحاول التقاط شيء من الأرض، حين شعرت أنني
أتأملها تعمّدت إثارتي بالإطالة في الانحناء والنهوض بإيقاع
بطيء يُبرز منحنياتِها.. ضحكتُ ساخرًا من تصرفها المريب
مما سبّب لها الحرج وجعلها تنتفض وتُغادر الغرفة مُسرعةً
وهي تُغمغم ببعض الكلمات عن الطعام الذي سيبرد. لا
أنكر أنني أحيانًا ما كنت أستثار من جمالها الريفى قليل
القدر مُتوحش الملامح؛ بشعرها شديد السواد الذي اعتادت
أن تخرجَ نصفه من خلف حجابها، وشفتيها العريضتين
الكاشفتين عن فلجةٍ صغيرةٍ بين أسنانها، وبشرتها الخمرية

وعينيها السوداوين الواسعتين كاملها.. ولكن سرعان ما كانت تنطفئ رغبتى تجاهها حين تنطق بتلك اللهجة القروية التي لم أحبها قط خاصةً من حنجرة نرجس، ملحت فرحة أثناء شبابي لرغبتها في أن أتزوج من بنت عمّتي حتى "أسترها"، تحدّثت عن طبيعتها وأخلاقها وكونها من دمي، وعن خراط البنات النشيط الذي خرطها قبل أوانها. اضطررت أن أسرّ إليها برفضى مبدأ الزواج من طحا، وصارحتها بمشاعري تجاه مي.. تحمّلت-سرًا- القدر الأكبر من تكاليف الزواج؛ فابتاعت لي شقةً بعيدًا عن شقة الحسين التي كنت أقطنُ فيها مع ناجي بعد وفاة والدينا في الحادثة، وتبرّعت بربع ذهبها لأقدمه شبّكةً زواجي.. لم أخبرها أن مي رفضت الزواج بشبّكة قديمة واضطررنا لتبديلها بشبّكة جديدة، ولكنها عرفت ولم تحزن؛ ففرحة تعرف كل شيء.

- تعرف إن ستي فرحة ماكلتش بنفس مفتوحة كده من سنين ؟

هكذا قالت نرجس وهي تُطعم فرحة في فمها على مهلٍ، ظلّت تُحدق بي بتلك النظرة الشغوفة التي لا أرتاح لها، ظلّ طبّقها كما هو لم تمسسه.. سألتني عن رأيي في الطعام فأخبرتها أنه دَسِم زيادة عن اللزوم، وأن شغفي تجاه الطعام لم يعد كما كان، ولولا فرحة ما أكلت.. دَعَت لي الأخيرة بابتسامةٍ أن يديمني الله عليها نعمةً، وصدفتني

بأنني "ابن روحها" ... قَبَلْتُ يدها لتخبرني أن لديها ما تُريد
إطلاعي عليه، نظرتُ حولها قائلةً:

- أنا عايِزة البت نرجس تعمل لنا كوبايتين شاي.. هي
راحت فين البت دي؟

ضحكتُ ضحكةً قصيرةً أوقفتهَا نظرةً غاضبةً من نرجس
التي قالت لجدتها معاتبَةً:

- أنا جنبك آهه يا ستي.

قالت لها فرحة ناهرةً:

- قومي غطِّي راسك يا بتّ..

ردّت نرجس ضاحكةً:

- هو يحيى غريب يعني؟

لم ترد فرحة، ونظرت لي مُتسائلةً في حيرةٍ:

- مين دي؟

أجبتها ساخرًا:

- أنا عارف!

نهضت نرجس غاضبةً وهي تصيح بعباراتٍ غاضبةٍ..

فقالت فرحة وهي تضحك:

- أنا فاكراها.. بسّ باحب أضايقها.

- خدت بالي.

لن تشعر في محراب فرحة سوى بالراحة التامة؛ فرائحتها الطيبة تملأ أرجاء الغرفة، ومكتبة جدِّي تحتل مكانًا كبيرًا بجوار الفراش الكبير المذهب المعلقة فوقه صورة قديمة باهتة بالأبيض والأسود تجمع رفعت وفرحة يوم زفافهما؛ ارتدى فيها رفعت جلبابًا أبيض مزيّنًا صدره بوشاحٍ عريضٍ، كان أطول قليلًا من فرحة التي لم تكن جميلةً بمقاييس النساء، ولكن رفعت لم يرها كأى من أبناء جنسه.. رأى فيها الراحة المتكاملة؛ عقلاً تثقُ في رجاحتها، وقلبًا تهناً بين أحضانه، وروحًا يسكن إليها.

عاونتها نرجس على السير حتى وصلت إلى باب الغرفة لتستند على ذراعيّ وتأمّر نرجس بالرحيل، طلبت مني أن أفتح خزانة الملابس العملاقة المستقرة بجوار المكتبة التي تحمل في طياتها لغة الرافعي وعبقريات العقاد ورؤية الحكيم وعبرات المنفلوطي وملحمية الإلياذة وكفاح هتلر وكوميديا دانتي وصراعات ديستوفسكي النفسية وتأريخ نجيب المجتمعى وغيرهم.. مع الكثير من الكتب القديمة النادرة التي انتهكت الأتربة قدسيتها. أخرجت صندوقًا كبير الحجم، ساعدتها على حمله وجلستُ مُقابلًا لها على الفراش، أخرجت الكثير من الصور الورقية، وقالت:

- رفعت طول عمره غاوي رسم وتصوير..

نظرت إلى صورةٍ عائليةٍ تم التقاطها في بهو البيت بالأبيض والأسود جمعت فرحة ورفعت وأبي الذي عرفته من الشامة المميزة التي تحتلُّ الجانب الأيمن من خدّه، كان أبي يضع يده على عمتي التي بدا أنها تعلّمت المشي لتوها، وكان جدي يحمل عطوة الذي بدا وكأنه في العاشرة وقد تغيّرت ملامحه كثيراً عن الآن.. أكملت فرحة حديثها مشيرةً إلى بورتريه صغيرٍ مرسومٍ بالقلم الرصاص، أخبرتني أن رفعت من رسمه.. وأنه كان يُداعبها قائلاً إنه بهذه الرسومات يوفر ثمن الهدايا. حدثتني مُبتسمةً أن الحب لم يعد كما كان؛ لم يتلقنوه من الأغاني ولا الأفلام مثل أبناء هذا الجيل، حكّت لي أن جدي لم يقل كلمة "بحبّك" كثيراً.. لكنه فعلها كثيراً؛ لم يرغمها يوماً على فعلٍ يتنافى مع إرادتها، دافع عن حقّها أكثر مما فعلت، صنع لها هالةً من الهيبة وسط أفراد العائلة، فجعل لها اليد العليا والكلمة المسموعة. سألتها السؤال الذي طالما حيّرتني إجابته: لماذا غادر رفعت المنزل واعتزل الحياة؟.. قالت بعد صمتٍ طويلٍ:

- ربنا يهدي الجميع.

ثم سألتني محولةً دفة الحديث عن علاقتي مع زوجتي مي، وجدتني أجيبها دون تفكيرٍ كثيرٍ أن مرآة الحب لم تعد عمياء كما سبق.. سألتني بقلقٍ عما إذا كانت كوابيسي

هي سبب تعاستي معها.. لم أسألها كيف عرفت، قلتُ لها
بصوتٍ خفيضٍ:

- لأ الموضوع من قبل الحادثة.. ما بنتفكش على حاجة
من أول ريموت التلفزيون لحد السرير، والموضوع زاد
بعد ما سبت الشغل.

قالت مبتسمةً بخفوتٍ: "لا تدرِ لعل الله يُحدث بعد
ذلك أمرًا.." ثم أردفتُ مازحةً:

- تحب يا وله أبعثك مع حدّ من العيلة للشيخ سليمان
عبد النور في الكفر الي جنبنا عشان يريقك ولا يشوف
إيه لابسك؟

كنت أعلم أنها- مثلي- لا تؤمن بتلك المعتقدات الساذجة
التي ينشرها القرويون ويصدقها أهل الحضر.. فهزئتُ رأسي
نافيًا، وقلتُ ضاحكًا:

- بس ما قولتيش ليا بقى.. إيه اشتغالة الزهايمر الي
إنتي عاملها على العيلة دي؟!

قبل أذان المغرب بدقائق توقفتُ سيارة رياضية باهظة
أمام بوابة أحد المصانع المهجورة على طريق بنها- القاهرة
الزراعي، على الفور ظهر شخصٌ ضخمٌ الجثة ليفتح البوابة

الحديدية المتهالكة.. تحركت السيارة متوقفةً أمام أحد المباني في الداخل؛ والذي يبدو- من الخارج- مهجورًا منذ زمنٍ بعيدٍ.. نزل منها شاب في منتصف الثلاثينيات من عمره، أشار للضخم الذي فتح له كي يتبعه، دخلا الدور الأرضي للمبنى الذي كان شديد النظافة من الداخل، لا يقل عددُ الموجودين فيه عن عشرين رجلًا، كان المكانُ رطبًا ذا سقفٍ عالٍ وإضاءةٍ خافتةٍ، مرصوفةٍ في أركانه الكثير من الثلاثيات الخاصة بمصانع اللحوم. استدعى الشاب الثلاثيني كل الموجودين في المكان مُناديًا عليهم بصوتٍ عالٍ تردّد صدها في المكان.. وعلى الفور اجتمعوا حوله.. سألهم عن الأماكن التي سيتوجهون للعمل فيها اليوم.. اقترب منه شاب أنيقٌ يرتدي جاكيت "بليزر" كحلي اللون وبنطلون جينز أسود وجزمة سوداء لامعة، كان أصغر الموجودين سنًا وأكثرهم ذكاءً.. أجابه ناظرًا في ورقةٍ صغيرةٍ يحملها:

- الشغل إنهاردة كتير يا دكتور أنس؛ فيه أربع أموات في قلوب واتنين في بلبيس وخمسة في الغفير.

ردّ أنس بصوتٍ خفيضٍ لمُحدثه:

- إيه دكتور أنس دي يا كريم؟ إنت أخويا الصغير!

ردّ عليه كريم مُبتسمًا بضرورة الحفاظ على الرسمية أمام العاملين لديه، نظر إليهم أنس وقال أمرًا:

- فيه طلب مخصوص.. لو لقيتوه ما حدّش يتصرف فيه..

أشار لكريم كي يدوّن ما سيقول، سرد مواصفات الجثة المطلوبة؛ ذكر قمحي اللون، لا يقل طوله عن ١٨٥ سنتيمترًا، وأن يكون نصفه الأعلى ممتلئًا.. أمرهم حين يحضروا الجثمان المنشود أن يحلقوا له شعره من الأمام، وأن يكفنوه قبل وضعه داخل الثلاجة.. تعجّب كريم من تناقض أوامر أخيه؛ فما الجدوى من كل هذه المواصفات إن كان سيتم التسليم داخل الكفن.. ردّ أنس:

- ممكن حدّ يفتح الكفن بالغلط أو يحسّس على راسه.. مش عارف، بسّ المهم نفذ المطلوب عشان نعور الزبون في قرشين حلوين..

أشار كريم للرجال كي يستعدوا للتحرك؛ كل اثنين في شاحنة من الشاحنات الصغيرة المركونة خلف المبنى كما اعتادوا يوميًا، قال لأنس بلهجة جادة وبصوت هامس:

- بمناسبة القرشين.. ابقى زوّد إيجار المبنى لأصحاب المصنع عشان رجعوا يسألوا تاني عن اللي بنعمله؛ شايفين عربيات عليها شعار شركة أغذية بتخرج المغرب فاضية وبترجع الفجر محمّلة.. ولولا إنك دكتور وشركة الأغذية اللي بنقل بعربياتها معروفة كان زمانهم شكوا في إننا تجار مخدرات ولا سلاح.

أوماً أنس برأسه طالباً من كريم أن يراقب بنفسه
العميل الذي طلب هذا الطلب الغريب.. فحرّك كريم
القلم مُدوِّناً العنوان الذي تلاه عليه أخوه، سأله عن سبب
مراقبة هذا العميل دوِّناً عن غيره، وسر الاهتمام بشخصه
عكس المعتاد.. ردَّ أنس بهدوءٍ:

- أصل ده مش زبون عادي؛ ده دكتور نفسي.. والمواصفات
اللي طالبها مش زي اللي بيطلبها الطلبة بتوع التشريح
ولا المهاويس بتوع النيكروفيليا اللي بيعشقوا جت
الأموات؛ فأكيد وراه سر ممكن نطلع من وراه بمصلحة
أكبر.

ضحكت فرحة حتى اهتزَّ صدرُها المنهك وضافت
عينها، قالت:

- بيني وبينك أنا اتخنقت من الناس اللي عايشة معايا
دي.. وما حدش فيهم حاول يكذبني لما ادعيت المرض،
كلهم ما صدقوا إني نسيت.

ثم لمست وجنتي بيدها وأخبرتني مداعبةً أنني الوحيد
الذي لم تقدر على تزييف نسياني، وأنني الوحيد الذي لاحظ
هذا الزيغ الذي ستنتهجه حتى وفاتها.. اقشعرَّ بدني لمجرد
طرح الفكرة، قلتُ لها بصدقٍ:

- أنا بحبك أوي يا ستي.

- وأنا روحي فيك يا ولا.

احتضنتها لدقائق غسلت عني كل همومي، رأيتُ في كل ما يُمكن أن يكون جميلاً في هذا العالم.

وكأي شيءٍ جميلٍ انتهى سريعاً، سألتها وأنا أطلع باقي محتويات الصندوق عمّاً إذا كان ناجي قد كشف ادعاءها المرض.. فقالت بحسرةٍ إن الغشاوة الجائمة على عينه كبيرةٌ تمنع بصيرته عن الرؤية، أخرجت صورةً من داخل الصندوق؛ ظهرتُ فيها مراهقاً أقف بجوار أبي وأمي وناجي طفلاً، طلبت مني أن أتذكر له دائماً صورته في هيئته الصغيرة الضعيفة، وأن أصفى تجاهه داعياً له بالهداية.. لم أخبرها بموضوع اختفائه، خاصةً أنه يتصل بي يومياً يطلب مني ألا أخبر أحداً.. قالت فرحة مشيرة إلى أبي المتجسد على ورق الصورة:

- أنت ماشي لحدّ دلوقتي ببركة الراجل ده.. ياما عمل خير وما استخسرش في حدّ علمه ولا ملكه؛ بنى المستوصف والجامع اللي عند التُّرب من فلوسه، ورفض إن حدّ من الطحاوية يشاركه فيهم وقالهم يعملوا هما خير تاني.. كان صاحب فكرة إن أستاذ فرحات يبجي في بيت العيلة هنا يحفظ العيال قرآن ويعلمهم عربي زي ما كان بيحبك لك مصر يعلمك في شقة الحسين..

دققت النظر في الصورة، لاحظت دمعةً فلتت منها.. تركتها تكمل حديثها عن أبي؛ قصّت عليّ ليلة الحادثة حين مكث في هذا البيت وقتًا طويلًا كأنه يُودعه، كانت هذه أول مرة يرتدي فيها جلبابًا من أزياء رفعت، أخبرتني أنها تعجّبت حين شهدته متعجلًا العودة إلى القاهرة، قبّل يدها واعتذر منها لأنه قد وعدني أنا وناجي بالخروج في نزهة.. تطرّقت لعلاقته بأمه التي كان يعتبرها نصفه الثاني، استطاع دائمًا التعبير عن حبه لها بأرق الكلمات عكس رفعت.. تعجّبت من موقفها المتناقض من كلام الحب؛ فكيف تحب قلته من رفعت وتحب أكثره من أبي.. أجابت أن كلاً مُيسر لما خُلق له.. سألتها وأنا أطلع محتويات الصندوق:

- تفتكري أبويا كان بيحبني أكثر من أخويا؛ زي ما ناجي دائماً يقول؟

هدأ حزنها قليلاً وقالت وهي تنظر إلى السقف:

- هو كان شايفك حيطرة عفوية، وكان حاسس إنه هايتماد عليك قدام، وإنك قادر تحمي أخوك من بعده.. وده اللي حصل فعلاً يوم الحادثة.

قلت متهكمًا:

- لو كان يعرف أنا هابقى إليه وناجي هايبقى إليه مكانش فگّر كده.

اعترضت فرحة قائلة:

- وهو أنت كده وحش يا عبيط؟!.. إيه يعني شوية
مشاكل في الشغل وفي البيت، ما كلنا بنقع وبنقوم،
المهم فطرتك تفضل سليمة.. وما تتعلمش الأونطة من
أخوك وعمك.

قلت بصدق إنني راضٍ بقسمتي: أن أعيش نصف إنسان
بروح مشوهة.. قالت فرحة بلهجةٍ جادةٍ:
- ناجي عمره ما كان زيك، ولا عمره هايكون.

أخبرتها بلهجةٍ لم تخلُ من عتابٍ أن كلامها قد تغَيَّرَ،
وأنها قالت في الماضي إن ناجي أجدر مني بالوقوف أمام
عطوة.. أعادت قولها أنَّ كلاً مَيَسَّرَ لما خُلِقَ له، وأنها أخطأت
في تقديري وبالغت في تقدير ناجي، وأردفت قائلةً:

- ناجي مش زي عطوة؛ عطوة ابني وبدعيله بالهداية
كل يوم.. بس ده عقرب ملعون لدغته توديك القبر..
إنما أنت وناجي بتكملوا بعض، أنت قلبه وهو عقلك.

قبلت يدها مُضِيْفًا على كلامها أنها روحنا. لأول مرة
ألاحظ احمرارًا زائدًا في كف يدها، تناولت يدها الأخرى
فوجدت نفس الاحمرار! لم أسمع من قبل أن هذا الاحمرار
من أعراض أي مرض.. نظرت إلى فرحة مُستفهِمًا فانخرطت
في بكاءٍ صامتٍ مقهورٍ، أمسكتُ كتفيها وسألتها عن السبب

بصوتٍ عالٍ فزاد بكاؤها.. لم أرها من قبل على هذه الحالة
من الانهيار. خطرت ببالي فكرةً غريبةً؛ فأرحتها على الفراش
ونظرت إلى كفي قدميها فوجدتهما على ذات الحالة.. كما
لاحظت جرحًا آخر أسفل ركبتهما.. قالت فرحة بلهجةٍ
متوسِّلةً، جاهدت للحفاظ على كلماتها رصينة:

- ورحمة الغالين انسى اللي أنت شايفه ده.

لا أعتقد أنني قد بلغت هذه الحالة من الغضب من
قبل فقلت بصوتٍ عالٍ:

- لو اللي في بالي صح...

قاطعتني فرحة قائلةً برجاء وهي تُحاول بلوغ يديَّ
بشفتيها:

- أبوس إيدك بلاش.. أنا كلها شوية وهاغور من الدنيا
كلها؛ العيلة هي اللي باقية لك.

تركتهَا مُنخرطةً في بكائها، نزلت السلم مُسرِّعًا عازمًا على
أن تكون الليلة سوداء على رأس الطحاوية جميعًا.

الأربعاء

8

فبراير
2006

٦

وَزَهَقَ الْحَقُّ..

لا أتوقع لهذا الظلام المُخيم على قبوري
سوى نهاية واحدة.. نهايتي.

الأربعاء 8 فبراير 2006

شرع ناجي في ارتداء ملابسهِ التي أحضرها رجال المعلم
عيد المجبراتي في الوكر الخاص بهم.. أرسل أحدهم لأحدِ
موظفي الشهر العقاري بتوصيةٍ خاصةٍ بالقضية، طلب من
آخر تحضير القهوة. فرك عينيه راجياً منها الصمودَ دون أن
تنغلقَ على نفسها، طلب من عقله ألا يُفِرِّطَ فيما تبقى بين
طيّاته من تركيزٍ وانتباهٍ.. تمنّى ألا ينهار مغشياً عليه من
قلة النوم أثناء عَرَضِ موكله على النيابة. لم يثق في قدرة
هؤلاء البلطجية على تنفيذ ما أراد؛ فلم يُظهروا أي فطنةٍ

منذ اختطفوه ولازموه حتى وصل إلى النيابة ليجبروه على ما لم يتهرب منه.

وقف عيد مُكَبَّلًا من يسراه أمام مكتب وكيل النيابة، اقترب ناجي تجاهه ليقدم له المعلم عيد التحية مادًّا نحوه يده اليمنى.. نظر له ناجي بازدراءٍ دون أن يُحرِّك يديه وقال:

- باعت لي البهايم بتوعك يخطفوني؟.. ما أنا ممكن أخش دلوقتي ألبسك تأبيدة وعلياً وعلى أعدائي!
اتسعت عينا عيد وانتزع يد ناجي مُصافحًا إياه عَنوة، قال:

- طب وعهد مين ده؟

أجاب ناجي مُتهكِّمًا:

- عهد مبارك.

لم يعبأ عيد بسخرية ناجي من كلامه وأكمل قسَمه مؤكِّدًا أنهم حفنةٌ من الحمير الذين أساءوا فهم تعليماته.. اشمأزَّ ناجي من رائحة عيد حين اقترب منه؛ وخاصةً رائحة فمه الكريهة التي كانت مزيجًا من رائحتي السجائر والاستيقاظ من النوم، أشاح بوجهه بعيدًا وردَّ دون أن ينظر إليه:

- حمير عشان شغالين عند مُتخلف زيك.. عامةً أتعابي في القضية دي إني ماشوفش وشك تاني.

ابتلع عيد الإهانة، سأله بلهجة متوسلةٍ أن يُخَلِّصه من هذا الكابوس وسيدفع له ما يشاء.. أمره ناجي أن يلتزم الصمت أمام وكيل النيابة ولا يتحدث إلا بنكران الواقعة.. سأله عيد عن الرد المناسب إن عُرض عليه حُكْمٌ مخفَّفٌ.. ردَّ ناجي بعصبيةٍ مُحاولاً خفض صوته- حتى لا يسمعه العسكري المُكبَّل لعيد- أن المتهم الغبي فقط من يعترف مُبكرًا؛ فيجب عليه التَّمَسُّكُ بكذبتَه حتى الموت، ولا يبيع نفسه لأنصاف الحلول.

رَنَّ صوتُ الجرس الخاص بمكتب وكيل النائب العام؛ فأدخل العسكري عيد وفك أصفاده، كانت هذه المرة الأولى التي يترافع فيها ناجي أمام هذا الوكيل، سمع الكثير عنه ولكن السمع ليس كافيًا. حاول أن يتفرَّس في ملامحه فلم يقدر على قراءة الكثير؛ لم يعرف السبب: أهو غموض الرجل، أم أن هذا تأثير انعدام النوم؟ أشار إليه الوكيل بالجلوس، حيَّاه ناجي بابتسامةٍ مُنهكةٍ، وقبل أن يفكر في نقطةٍ لبداية سرد حجج براءة مُوكِّله قال له وكيل النيابة مُبتسمًا:

- أنت متوصي عليك توصية محترمة يا أستاذ ناجي.. سمعتك ما شاء الله يعني.

حرّك ناجي كتفيّه مُستفهِمًا عمّا سمع عنه، تمَنّى أن يكون خيرًا.. أجاب الوكيل أن صيته قد سمّع في محاكم ونيابات القاهرة سريعًا لدرجةٍ مُفزعةٍ.. فاجأه ناجي قائلاً:

- المهم سيادتك هاتسكت على اللي بيحصل ده؟

- إيه بيحصل؟

- فيه تعنّت واضح جدًّا من الشرطة تجاه موكلي الحاج عيد عبد السلام الشهرير بعيد المجبراتي.. وواضح جدًّا إن القضية متلفقة.

ضحك وكيل النيابة الذي عرف ناجي أن اسمه عماد حنا، وقال:

- دي حالة تلبّس بيّنة والمحضر متقفل صح.. دورية القسم كانت معدية، اشتبهت في موكلك وبعد التفتيش لقت معاه فَرْدُ خرطوش.

ردّ ناجي بلهجةٍ عمليةٍ أنه لن يتلو عليه مرافعاتٍ طويلةً ولا خُطبًا عصماء كباقي أبناء مهنته؛ فكل ما يطلبه من النيابة إعادة تمثيل الواقعة طبقًا للقانون.. هزّ عماد رأسه موافقًا، استدعى عماد أحد الحرس من خاصته، أمره بإخراج الحرز، وبدأ في قراءة المحضر وإعادة تمثيل الواقعة.. أمر العسكري:

- حط له يا ابني الفرد في كَمَر البنطلون زي ماهه
مكتوب.

نهض العسكري وفعل ما أمر به، فسقط بنطلون عيد
كاشفًا عن ملبسه الداخلية فضحك ناجي بانتصارٍ قائلاً:

- شايف يا باشا.. إزاي بقى هيمشي في الشارع بالمنظر
المُهزَّق ده، ده حتى فيه قَطْع أنا شايفه من عندي.

أشار عماد للعسكري بإرجاع الحرز إلى كيسه البلاستيكي،
والخروج مرةً أخرى.. وابتعد قليلاً ليُجري مكالمَةً هاتفيةً
وعاد لناجي قائلاً:

- كان لازم أبلِّغ توصية نائل بيه للنقيب أكمل العطار
اللي حرَّر المحضر.. هو ذكي وشاطر بس لسه جديد
على شغل الدائرة.

قال ناجي مُستفهِمًا:

- أنا مش فاهم حاجة يا عماد بيه.

قال عماد وهو يُصفق بيديه دون أن يصدر صوتًا عاليًا:

- أنت طلعت لعُيب فعلاً زيِّ ما اتقال لي.. كنت متوقع
إنك ممكن تلعب في الحرز زي ما عملت قبل كده
في قضية الحشيش اللي نائل بيه حكى لي عنها ضمن
قضاياك؛ لما دفعت لأمين الشرطة عشان يُقطم صُباع
حشيش من الخمس صوابع اللي اتمسك بيهم موكلك

وقتها.. وطبعًا كده الحِرْزُ قُدام النيابة بقى فيه ست صوابع؛ وبقى غير مُطابق لمحضر الشرطة، يعني القضية باظت.

ضحك ناجي وقال إنه لا يتذكر هذه القضية، كما أنكر هذه الفعلة "المخالفة للقانون".. طلب منه عماد التزام الصمت، وأن يدعه لِيُدلي بالتفسيرالذي توصل إليه؛ أخبر ناجي أنه لم يجد أي ثغرة لتحسين موقف موكله سوى وصف ملابس المتهم في محضر ضبط المتهم، أردف قارئًا من أوراق المحضر أمامه: "قميص أبيض وبنطلون أسود استقرَّ في كَمَره فرد خرطوش به ثلاث طلقات".. أكمل حديثه قائلًا:

- واضح إن حضرتك كان عندك معلومة بإن الدائرة عندنا عينها على صبري العموري الي موكلك شغال تحت إيده...

قاطعته عيد قائلًا:

- وربنا ما أعرفه يا باشا.. كل الي أعرفه عنه إنه عضو مجلس شعب عن دايرتنا، بس وغلاوتك ما شوفته في حياتي.

أشار ناجي إليه كي يصمت.. أكمل عماد حديثه الموجه إلى ناجي قائلًا:

- فسيادتك عملت بلاغ كاذب بالليل عن عملية كان المفروض رجالة العموري يعملوها.. العملية اتلغت في آخر لحظة بعد ما حد بلَّغ رجالة صبري إنها اتشمت.. وطبعًا الناس في القسم ما حسوش إن ده طُعم إنت رميته لهم؛ عشان الضباط التقال يتحركوا من القسم وتعرف تدخّل أي حدّ من رجالة المعلم الحبس الاحتياطي، بعيد عن عيونهم ومن غير ما النقيب أكمل العطار يشك إن الموضوع يخصّ قضية المجبراتي.

ضحك ناجي ساخرًا من التفسير "السينمائي" الذي يُقال، زجره عماد مؤكدًا أنه التفسير الوحيد لما حدث، أردف قائلاً:

- وجوه الحبس المعلم بتاعك قلع بنطلون الخروج الأسود اللي كان لابسه واللي كان معلق فرد الخرطوش في حزامه ولبس بنطلون البيت الأسود اللي الواد بتاعكوا اتحبس بيه، وطبعًا لما أعدنا تمثيل الواقعة اللي حصل قدامي ما طابقش المحضر، والله يرحمك يا قضية.

ابتسم ناجي قائلاً بلهجة خبيثة أنه لو كان لديه نصف هذا الدهاء لأصبح أهم محامي في مصر، ردّ عليه عماد باستياء:

- أنا عارف كويس النوع اللي زيك؛ اللي هو راضي بالمكتب البسيط والموكلين الغلابة، باعد نفسه عن حيطان القانون.. عندك Safe zone خاصة بيك بعيدة

عن أي صراع ممكن يئذيك، وأكد بتشتغل في قضايا كبيرة من الباطن لصالح الناس الثقيلة.. اللي زيك هما اللي ممشيين العدل على مزاجهم يا ناجي.

لم يندهش ناجي من ذكاء عماد ولا من استخدامه لمصطلحات إنجليزية أثناء الكلام.. كان على علم بأنه ابن أسرة ثرية؛ فوالده مستشار كبير في محكمة النقض العليا.. أخبره ناجي دون أن يفقد هدوءه أنه يُبالغ في تقديره، وأقسم أن القبض على موكله كان كيديًا.. سأله عماد مُتعصبًا عن السبب الذي سيجعل قسم الشرطة تستهدف تاجر سلاح لأسباب شخصية.. ردَّ ناجي مُصححًا أن المعلم عيد لا يُتاجر في السلاح؛ فهو رجل شريف يمتلك مقهى في وسط البلد، وأردف قائلاً:

- القهوة دي بقى ساكن فوقها جناب المأمور؛ وواضح إن ريحة الدخان بتضايق المدام بتاعته أو ممكن حدّ من الزباين بصّ لبناتها بصّة مش كويسة.. حاجة يعني مش في إيد الحاج عيد.. المأمور طلب من موكلي ينقل مكان القهوة بس طبعًا ما حدّش هايفرط في مكان أكل عيشه.

ضحك عماد وسأل ناجي عن المبلغ الذي تم دفعه لصاحب المقهى الحقيقي كي يكتبها ويسجلها باسم موكله بتاريخ قديم لحين انتهاء التحقيقات، وصاح فيه غاضبًا أن

الجميع يعرفون نشاطات عيد المجبراتي في تجارة السلاح.. ردَّ ناجي بهدوءٍ أن عمله يعتمد على الورق والمستندات؛ وذكَّره بأن "البينة على من ادَّعى".. كتم عماد غضبه وسأله بلهجةٍ لم تخلُ من اللين عن حقيقة كونه من أوائل دفعته ورفض التعيين الجامعي.. أوماً ناجي برأسه إيجاباً وقال:

- الكلام ده صحيح.. أصلي شايف إن القانون ده فن يتحسَّ أكثر من كونه مواد بتتلقن، بعدين ليه أبيع أسرار ناجي لطلبة نصَّهم مش مُهتم والنصَّ الثاني ممكن يستغلوه ضدي في المستقبل؟

سأله عماد بخبثٍ عمَّا إذا كان السبب الحقيقي وراء رفضه كان السعي وراء التعيين في النيابة، وأنه فوجئ برفض هذا التعيين بسبب سلوك عمه المشبوه.. ضحك ناجي قائلاً: "لا تستقضين إلا إذا مال وذا حسب؛ فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس، وإن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس".. وأردف مُبتسماً:

- طبعًا يا عماد بيه أنت حافظ الجزء ده من كلام الفاروق عمر بن الخطاب عن القضاء، حضراتكم دايماً بتستشهدوا بيه بعد كل حركة تعيينات.. فواضح إن مؤسسة العدالة مش شايفة فيا المواصفات المذكورة.

استدعى عماد العسكري وجعله يصطحب عيد تمهيداً
لاستكمال إجراءات الإفراج عنه من القسم، وأشار لناجي
بالانتظار، وقال له بصوتٍ هامسٍ:

- أنا حاسس بيك.. ليّا واحد صاحبي مرّ بظروف زي
ظروفك دي.

أجاب ناجي بابتسامةٍ صفراء:

- أنا مش عايز حدّ يحسّ بيا..

قال عماد مُحذراً:

- الكلام اللي هاتسمعه دلوقتي ده أنا ماقولتوش؛ بس
ماتلعبش مع الرُتب تاني، عشان عينهم عليك ونهايتك
بتقرّب.

لم أشعر بمثل هذا الغضب من قبل.. نزلتُ السلم بسرعةٍ
لا تتناسب مع بنياني ولا عمُري، توجهت إلى غرفة نرجس في
الدور الأرضي من البيت، فتحتُ الباب بعنف؛ كانت نرجس
مُستلقية على فراشها بملابس البيت تستعد لقيلولةٍ، فزَعَت
من منظري ونظرت لي مستفهمةً، لم أرد وسحبتها من قدمها
بسرعةٍ ليسقط جسدها بصوتٍ مدوّ على الأرض.. جررتها
ورائي حتى بلغت بهو الدوّار، أوقفتهَا وأمسكتُ بشعرها،
صرخت فيها بغضبٍ:

- إنتي بتعملي إيه في فرحة لما بتكونوا لوحدكوا؟!!

قالت وسط بكاء كلمات غير مفهوم لم أفهم منها سوى:

- هي قالتلك...

لم أتركها لتُكمل جملتها فقد تأكدت ظنوني؛ لطمتُ
مُقدمة وجهها بكف يدي بقوةٍ ثلاث مرات حتى نزفت
من أنفها، صفعتها على جانب رأسها بكلتا يديّ وتعمدت
أن أطرق أذنيها بكفيّ، لم أعبأ بصراخها وركلتها في معدتها
وقفزت على نهديها داعسًا.. ركضتُ نحو المطبخ وأحضرتُ
سكينًا حاميًا، صرختُ فور رؤيتها للسكين وحاولت النهوض؛
أحكمتُ قبضتي على شعرها أثناء محاولتها للفرار، ألقيتها
على الأرض وانكبتُ عليها بكامل وزني، ثبّتُ مقدمة رأسها
ساحبًا شعرها بيسراي وجززت شعرها بالسكين، لم أنتزعه
كله ولكن ما فعلته كان كافيًا لتشويهاها.. لطمتها على
وجهها عدة مرات، حتى شعرت بالإنهاك وبفتور حماسي..
سكنتُ لثوانٍ سمعت خلالها بكاء فرحة فانهلثُ على
نرجس بالضرب أكثر ليزدادَ صُراخُها، أحكمت ذراعي حول
عنقها عازمًا على خنقها حتى احمرَّ وجهها وانغلقت عيناها
تدريجياً، فتركت رقبتها كي لا تموت وضغطت على عينيها
بكلا الإبهامين.. انتقمتم من هذه النجسة بقدر ما أحببت
فرحة، وبقدر ما مررت به في الفترة الماضية من ضغطٍ
انفجر فيها.

أعرف أن هذه اللحظات لن تدوم؛ فسيأتي خفر عطوة لينقذوها من براثن ثورتي.. ولكنني لن أضيع الوقت في مجرد ضربها مُسببًا كدماتٍ ستزولُ مع الزمن، توجَّهت سريعًا إلى الحمَّام بحثًا عن مُنظف الأرضيات الحامضي "مِية النار".. سمعتُ صوت محاولات فتح الباب المُستميته والمُلبية لاستغاثة هذه اللعينة، ركضت عائدًا إلى البهو، فتحت زجاجة الحمض لأجد خفيرين ضخمي الجثة يركضان نحوي مسرعين بعد أن تحطم البابُ تحت أقدامهم.. أمسكا بي بكامل قوتهما، وانتزع ثالثهما زجاجة الحمض من يدي بحرص، لم أقاومه فلم أكن أريد إيذاء غير تلك البغيضة.. لحقهم عطوة ومَرَّت دقائق من الصمت التقط فيها الجميع أنفاسه دون أن يتركوني أفلت منهم، بدأ جسدي في الانهيار.. ظلت نرجس تبكي بصوتٍ عالٍ ككلبٍ يعوي جوعًا.. أتت زوجة عطوة وأعانتها على النهوض مُحضرةً لها كوبًا من الماء.. ظنَّ عطوة أن شجارًا عاديًا قد نشب ولكنني أخبرته قائلاً:

- البهيمة دي بتضرب فرحة وبتتمدها على إيديها ورجليها.. فاكرة إن عندها الزهايمر وهاتنسى!

لم ترد نرجس ولم تُدافع عن نفسها مُنخرطةً في بكاءٍ طويلٍ، أبعدت زوجة عطوة يدها عنها باشمئزاز، نظر لها عطوة بغضبٍ شديدٍ حاول أن يكتمه.. أكملتُ حديثي قائلاً:

- لمَّا أبوي طفش وجرى ورا نجاسته وسابك إنتي وأمك لوحدكوا، وأمك حلفت ما هي مربياكي عشان بتفكريها بديل الكلب اللي كانت متجوزاه.. مين اللي خدتك زي ماتكوني عيل من عيالها واتكفلت بمصاريك لحد ما بقيتي قد البقرة؟

قالت بصوتٍ متهدجٍ وبحنجرةٍ أعيها الصراخ إنها لا تُنكر فضل جدتها، حاولت تبرير موقفها فقالت إن فرحة كثيراً ما تتغوط على نفسها وقت الطعام؛ فلا تستطيع أن تُسيطر على نفسها من الاشمئزاز.. صرختُ فيها بغضبٍ أن فرحة تحمّلت منها نفس الفعلة حين كانت رضيعَةً.. حاولتُ أن أحرر من الخفيرين ولكنهما كانا قويين بحق، قالت نرجس باكيةً:

- خلقي ما بقاش زي الأول.. أنا معدية التلاتين ولسه بنت بنوت...

قاطعتها بنفس الجِدَّة أن فرحة- سامحها الله- كانت تترجاني كي أتزوجها، وأحمد الله على أنني لم أفعل.. ابتلعت الإهانة قائلةً:

- آخر عريس اتقدملي كان من ست سنين؛ لا كلام الناس بيرحم ولا حتى جسمي بيرحميني!

- إنتي عارفة إن فيه مليون بنت زيك كده؟!.. بس ولا واحدة فيهم منعت الرحمة عن أحنّ واحدة في الدنيا عليها؟

نظرتُ إلى عطوة ووجهت له حديثي، طلبت منه أن يذكّرهما حين أراد ذلك "البغل" الذي أنجبها أن يختنها كباقي بنات القرية.. من التي تصدّت له وأفهمته الصواب من الخطأ والحلال من الحرام! طأطأت نرجس رأسها في الأرض وانخرطت في بكائها الكاذب كأنثى تمساح بغیضة، أشار عطوة لزوجته كي تصعد لتطمئن على فرحة.. وقال لي بلهجة صارمة إنه سيخبر أم نرجس بما فعلت، وسيأمرها بأن تنسى أنها تعرفها من الأساس، وأصدر فرماناً بأنها لن تشم نسمة هواء خارج دوّاره، ولن تدخل الحمّام إلا مرة كل أسبوع حتى تشعر بالمسكينة التي عدّبتها بلا ذنب. وإن تقدّم أحدٌ لخطبتها- وذلك احتمال مستحيل- فسيرفضه معللاً أن الطحاوية لم يُنجبوا فتاة تُدعى نرجس.

أومات برأسي موافقاً عطوة لأول مرة منذ أن كنتُ في المهدي، وقامت نرجس من مكانها وانحنت محاولةً تقييل يد عطوة الذي رفسها بقدمه، كادت أن تتوسل إليه بكلماتها المسمومة.. ولكن قاطعها صوتُ زوجة عطوة القادم من أعلى صارخاً:

- إلحقوني.. فرحة ماتت!

V

رَحِيلٌ مَعَ إِيقَافِ التَّنْفِيدِ

الخميس 9 فبراير 2006

استلقت إيفلين فوق فراشها ووضعت جهاز اللابتوب الخاص بها فوق ركبتيها، للمرة الثالثة تراجع بحثها المتعلق بحالة يحيى، كان مشروعاً قديماً عكفت على دراسته قبل زواجها وتقاعدت عن إكمالها.. حتى جاءها أمجد بطريقته العلاجية التي اقترحها على صديق عمره المستعصية حالته. لم تنزعج حين علمت برفض يحيى التام لهذا الأسلوب العلاجي؛ فمن الممكن لهذا الحل أن يؤدي إلى وفاته، أو حدوث انتكاسة مرضية.

طرق أمجد باب غرفة النوم قبل الدخول، كما عودته أن يفعل منذ أن انتقلا للعيش معاً، فأذنت له بالدخول.. وضع أمامها قفصاً معدنياً يتحرك بداخله نسناس، صرّح لها

أمجد وهو يستريح على المقعد المقابل للفراش بأنه لا يفهم الفائدة من إحضار هذا النسناس؛ خاصةً بعد إجراء التجربة على عينةٍ من الفئران.. عكفت إيفلين على مراجعة نقطة أخيرة في بحثها؛ قالت دون أن تنظر إليه أن رتبة الرئيسيات تُعطي نتائج أدق للتجربة عن القوارض، وأن الأمر ليس هينًا كي ترضى بنتيجةٍ مبدئيةٍ.. بدأ أمجد مستاءً من غلو ثمن النسناس، أخبرها بنيته في أن يطلب ثمنه من ناجي بعد إعلام الوراثة.. سألته عن مستجدات حالة يحيى، فأجابها أنه لا يزال مُختفيًا لليوم الثالث على التوالي منذ أن علم بموت فرحة، أردف موضِّحًا أن شخصًا كـيحيى لا يستطيع الهرب طوال العُمُر؛ وأن اختفائه مدفوعٌ بعدم رغبته في أن يراه الناس على مثل هذه الحالة الصعبة. استلقى جوارها على الفراش وألقى النظر على الكمبيوتر مطالعًا ملفها البحثي، مراجعًا أهم نقاطه، قال لها:

- طريقة العلاج دي لو نجحت ممكن نقتنع يحيى يتخلى عن خصوصية مرضه وتبقى ورقة بحث مُحترمة في تاريخنا، ومش بعيد نتكرم عليها.. أنا بالشق النفسي وأنتي بالشق الكيميائي.

ردَّت إيفلين بفتور أنهم لم يضيفوا للعلم كثيرًا؛ فأمجد شخصٌ مرضًا قديمًا، وابتكر له طريقة علاج معروفة؛ الإبداع فيه يكمن في التنفيذ ليس أكثر. أردفت، وهي تشير إلى

بعض العناوين الرئيسية في بحثها، أنها لم تفعل الكثير أيضًا؛ عملت على بحثٍ قديمٍ لها مكوّنة تركيبتين دوائيتين: الأولى قوامها البوتاسيوم والأدرينالين كي تُدخل متعاطي التريكية في متلازمة "لازاروس" بشكلٍ مُتعمد..

قال أمجد مُستفهمًا:

- يعني يحيى هيدخل في حالةٍ مماثلةٍ لحالة الـ Hibernation؛ زي الحيوانات في المناطق الشتوية اللي بتنام لمدة طويلة عشان تهرب من البرودة؟

هزّت رأسها نافيةً، أوضحت له أن الحالة التي تُسببها التريكية ستكون مؤقتةً، أكملت شرحها مؤكدةً أن يحيى ستظهر عليه كافة أعراض الموت كالمُصاب بالسكتة القلبية، لكنه سيكون حيًّا واعيًا بكل شيء حوله دون القدرة على التدخل فيه... بدا على أمجد الفهم، وقال:

- يعني نبضه هيقف تقريبًا وجسمه هيتخشب، هيكون مشلول حركيًا بس إحساسه وإدراكه هيكونوا حاضرين؟

أومات برأسها مؤمنة على حديثه.. سألتها عن التريكية الثانية.. أجابته بهدوء أنه سيتناولها على هيئة قرص معمول له غُلاف مزدوج؛ أو حسب تعبيرها: "اتنين coating"؛ أولهما كبير الحجم، سيُحدث له انتفاشًا في الوسط الحامضي المحتوي على الماء؛ حتى يظل القرص في المعدة دون أن

يهبط إلى الأمعاء.. حاول أمجد استيعاب كلامها، فهم الكثير هذه المرة، سألها بعد دقيقةٍ من التفكير:

- والغلاف الثاني ها يكون مضاد لإنزيمات المعدة نفسها..
صح؟!

أجابت إيفلين بالإيجاب، مُتحدثة عن سهولة التحكُّم في وقت ذوبانه؛ بحيث يكون مفعول التركيبة بطيئًا حسب الحاجة التي تقتضيها التجربة.. أكدت على خطورة هذه التركيبة وأن نجاحها ليس أكيدًا ولا يزال قيد التجربة، ولكنها مهمة كي تقوم بعمل إنعاشٍ ذاتي لقلبه حتى يعود النبض إليه وتدبُّ الحركة في جسمه من جديد. أخبرها أن التركيبة الثانية ستكون خطة بديلة في حالة لم يستطع الوصول إلى يحيى في الوقت المناسب؛ فتنقذه من بقاءه في المتلازمة حتى الموت.. قالت إيفلين إنه من الأفضل أن يصل إليه بعد تبديل الجثتين وإنعاشه بالطرق العادية أو باستخدام الصدمة الكهربائية Electric shock لو لزم الأمر.

وأردفت قائلةً إن هذا القرص سيقوم بدور المسيح في قصته مع القديس "لازاروس" حين أحياه من الموت كما كُتب في العهد الجديد.. أعرب أمجد عن قلقه من أن يفوق يحيى مبكرًا قبل إتمام التجربة. شرح لها الخطة بإيجاز: سيتم إعلان وفاة يحيى أثناء وجوده بعيادة أمجد، سيطلب جُبران من المرضى الرحيل لضرورة إغلاق العيادة، وسيتم

إبلاغ ناجي أن يحيى قد أخذ التركيبة كي يعلن لعائلته خبر الوفاة، سيُنقل جثمان يحيى إلى المستوصف القديم بناءً على اقتراح سيصدر من ناجي، وسيقترح أيضًا أن يتم الغُسل والتكفين داخل المستوصف ليلاً على أن تكون الدفنة صباح اليوم التالي، سيلتقي حينها برجال دكتور أنس ليأخذ منهم الجثة البديلة وينقلها إلى طحا ليلاً.. ويتم تبديل الجثتين من خلال الباب الخلفي؛ فالمستوصف مُقام على مساحةٍ كبيرةٍ والمسافة بين البابين ستمنع انتقال صوت السيارة التي سيُطفئ نور كشّافها قبل بلوغ البوابة الخلفية.

قالت إيفلين بعد مهلةٍ من التفكير أن الخطة تبدو على الورق جيدة، ولكنها ستحتاج توفيقًا كبيرًا لتنفيذها، أعادت التأكيد على ضرورة الوصول ليحيى وإنعاشه قبل أن ينتعش ذاتيًا بفعل التركيبة الثانية.. على فرض أنه سيوافق على إجراء التجربة من الأساس. قال لها مُطمئنًا أنه سيقدر على إقناعه، أخبرها أن شعور الناس تجاهه بعد موته المزعوم سيكون عاملاً مؤثرًا على موقفه؛ فقد يشعرون بقيمته حين تُعلن وفاته، ويرحبون بعودته حين يعلنها.. أكمل أمجد حديثه بحماس أن حلمه بالكتابة قد يتحقق؛ فدار النشر التي رفضته قد تُعيد النظر في موقفها من كتابه الذي سيسهل عليها تسويقه على أساس أن كاتبها حديث الوفاة، سيلعبون بسهولة على مشاعر الناس.. أردف مقترحًا:

- أنا هابعت له الأسباب دي في رسالة على الموبايل يمكن يظهر ويوافق على التجربة.. أكيد هو بينتكس دلوقتي بعد موت جدته ولازم نلاقيه بسرعة.

قامت إيفلين وأخرجت قفص النسناس من غرفة النوم ووضعتة في غرفة صغيرة اتخذتها معملاً منذ فترة.. أخرجت بعض الموز الذي ابتاعه أمجد لأجله، مزجت قدرًا من التركيبة الأولى وقدرًا أقل من التركيبة الثانية مع الطعام وقدمته للنسناس.. ضحكت ضحكة خفيفة حين شاهدت حركاته، حاولت أن تُداعبه محدثةً إياه بصوتٍ خفيضٍ. عادت إلى غرفة النوم لتطفئ النور وتستلقي بجوار زوجها مدثرةً بالغطاء، نامت على جنبها موليّةً ظهرها للأمجد الذي احتضنها من الخلف، هزّت رأسها مبتعدةً عنه، اعتذرت له عن فتورها تجاهه بحجة أنها "Out of mood" .. سألتها أمجد وهو يُداعب خصلات شعرها الأشقر بلهجة ناعمة إن كان هذا الموعد غير مناسبٍ لما يرغب.. أجابت مغمغةً أنها تفكر فيمَ قد يحدث إن كان هناك خطأ في التركيبة؛ الأمر الذي قد يُصيب يحيى بأعراضٍ جانبية كالشلل الدائم.. أو الموت!

لم أنتظر لأتأكد من خبر الوفاة الذي أعلنته زوجة عطوة.. ثلاثة أيام لم أفعل خلالها شيئاً سوى المكوث مع

رفعت؛ لم أذق النوم ولا الطعام ولا السَّكينة.. كذلك فعل
رفعت. لم نتوقع قدوم يوم فرحة؛ اعتقدناها خالدةً كالزمن،
باقيةً كبقاء الأرض، روحًا متمردةً على قوانين الطبيعة البشرية
الزائلة.. وفيمَ كانت تُشبه البشر كي تفنى مثلهم؟!!

استلقيت على فخذ جدي الأيمن، كان جالسًا على
المصطبة الأسمنتية الملتصقة بالمسجد، اتفقنا- دون حديثٍ-
على الاختباء من البشر داخل غرفة نوم الشيخ صالح
البيسيطة المجاورة للمسجد، بالطبع لم يعترض الأخير. كنا
نتنظر حلول الليل وخلود جميع أهل طحا إلى النوم حتى
نخرج لاستنشاق الهواء الريفي البارد المتفاعل مع سكون
طريق المقابر ورائحة زهر البرتقال المنبئة باقتراب الربيع
ليكونوا مزيجًا ساحرًا من النشوى الكفيلة بفتح شهيتي
للحياة بملذاتها في أي وقتٍ آخر؛ في وقتٍ لم تتبخر فيه
فرحتي من روحي.

غطَّ رفعت في نومٍ غير عميقٍ انتزع منه جسدهُ عَنوة،
فخارت قواه دون أن يتحرك من جلسته، لم يعد فخذهُ مُريحًا
لرأسي كما كان حين كنتُ صغيرًا؛ قبل أن يخسر الكثير من
وزنه، لكنه لم يفقد نفس المقدار من صحته ولا من طول
قامته؛ حتى بقى مهيبًا في عيني. كان- كفرحة- يفضلني
وناجي عن نسل عطوة.. أتذكر حين رُزق شكري بمولوده
الأول، قلتُ لرفعت مازحًا إن الله قد أطال في عمره ليرى

أبناء أحفاده؛ عماد الجيل الجديد من نسله.. هزَّ رأسه
نافياً وأخبرني أن ناجي لم يتزوج وأنني لم أرزق بالمولود بعد..
فأين ذلك الجيل الجديد الذي أحدثه عنه!

وبرغم أنني حُرمت من الإنجاب، إلا أنني لم أسع
للإتيان بمن يحمل لقبى الذي لا أحبه ووصفاي التي أبغض
أن أراها في شخصٍ آخر غيري.. حتى انعدمت رغبتى حين
انقشعت غشاوتي عن وهم حبي لمي، فليلعن الله الشيطان
الذي أوهمنا بانتظار حياةٍ زوجيةٍ سعيدةٍ قوامها التفاهم
والاهتمام والحب الذي سينتج عن عشرة طيبة ومودة
نستكين إليها.. لم أعرف حين صارحتها برغبتى في الزواج
منها أنني سألعن الفتور والبرود الذي سنعيشه لمدة عشر
سنين، اقتنعت أن زواجنا في سن الثلاثين سيجعلنا أكثر نضجاً
وتحملاً للمسئولية؛ أقنعت نفسي أنها مناسبةٌ لي أكثر ممن
هن أصغر منها.. مرَّ أمامي تتابع زمني غير مُرتب لذكرياتى
معها، ومعاناتى حين شهدت تحالف ناجي مع عطوة؛
ليصبح مسخاً يحمي شيطاناً.. أفكاري غير مرتبةٍ وأعتقد
أنني سأستغرق في النـ...

- أنا حلمت بفرحة..

هكذا اقتحم رفعت خواطري بجملةٍ جعلتني أنتفضُ
من مكاني وأطلب منه أن يقص عليَّ ماذا رأى، فقال لي بأم
ممسكاً قدمه:

- أنت طول الليل نائم على رجلي يا بغل؟

اعتذرت له طالبًا أن يحكي الحلم.. أجاب بغضبٍ مصطنعٍ أنه لا يذكره.. كررت اعتذاري مُقَبَّلًا فخذهُ، وقلت:

- حَقَّكَ عَلَيَّا.. بعدينِ رِجْلِكَ فَمَلَّتْ عِشَانُ أَنْتِ أَصْلًا
سُكْرَةً.

علمت أنه يُمَازِحُنِي لِنَتَنَاسِي فَاجْعَتْنَا فِيمَا فَقدْنَا.. رَدَّ
مُتَهَكِّمًا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مِنْ أَيْنِ وَرَثَتْ ثَقُلَ الظِّلِّ وَالْمِزَاحِ
السَّخِيفِ، أَجَبْتُهُ مُبْتَسِمًا:

- أَكِيدُ أُمِّي كَانَتْ بِتَتَوَحَّمُ عَلَيَّ عَطْوَةً.

تَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ بِضَحْكَةٍ خَفِيضَةٍ مَتَحَشِّرَجَةٍ، قَالَ بِأَسَى
أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ لِأَرْضٍ خَصْبَةٍ كَفَرْحَةٍ أَنْ تَنْجِبَ مِثْلَ هَذِهِ
الزَّرْعَةِ الْفَاسِدَةِ. أَخْبَرَنِي أَنَّهُ رَأَاهَا فِي الْمَنَامِ مُرْتَدِيَةً فَسْتَانَ
زَفَافَهَا، كَانَ يَأْكُلُ الْكَبِدَةَ كِعَادَتِهِ، فَنَهَرْتُهُ قَائِلَةً إِنَّ صَحْتَهُ
لَمْ تَعُدْ تَتَحَمَّلُ أَكْلَ الشَّوَارِعِ.. نَظَرَ فِي عَيْنِي مَقَاوِمًا دَمْعَةً
كَادَتْ تَفْرُغُ مِنْ عَيْنَيْهِ وَأَكْمَلَ مَا رَأَى: قَالَتْ لَهُ فَرْحَةٌ إِنْ
الدُّنْيَا الَّتِي نَتَقَاتَلُ عَلَيْهَا مَجْرَدُ وَهْمٍ، تَبْدُو كَبِيرَةً طَالَمَا تَحْيَا
وَتَسْعَى بِدَاخِلِهَا.. وَلَكِنْ حِينَ تَبْدَأُ رُوحَكَ تَصْعَدُ مِنْ سَمَاءٍ
إِلَى الْأُخْرَى تَسْتَوْعِبُ الدَّرْسَ؛ تَفْهَمُ كَمْ هِيَ صَغِيرَةٌ، جَرَمُ
صَغِيرٍ مِنْ كَوْنٍ عَظِيمٍ.. طَلَبْتَ مِنْهُ الْمَزِيدَ، فَأَرْدَفَ قَائِلًا:

- قالت إن كل حاجة في الدنيا مهما تبان حلوة بتكون صغيرة قصاد اللي عنده فوق.. مش كل الموت شرياً يحيى.

سألته بنفس اللفظة:

- طب هي مبسوفة؟!!

- فوق ما تتخيل.. رجعت شابة بنت الإيه، وقعدت تتريق على هيئتي تقول لي مالك كبرت كده!

لم أسأله المزيد، ظللت في صمتي مُبتسمًا؛ طُفت في ملكوتها متخيلًا رائحة حننها ومدى دفئه، هائمًا في ملامحها وضحكها التي لم تتبدل، متذكرًا صمودها أمام موت أبي وظلم عمي وانسحاب جدي وخذلان جسدها الذي خاض حربًا طويلةً مع أكثر من خصم لا يتسم إلا بالخسة والقتل غير الرحيم.

تأملت ملامح رفعت التي لم تشتعل شيبًا كفرحة؛ منذ يومه وهو يحب الحركة والأكل الصحي، كلما أصلي بجانبه أسمعته يدعو الله ساجدًا أن يميته واقفًا على قدميه وألا يحوجه إلى أحد.. أعتقد أن الله قد استجاب؛ أراه محتفظًا بقدرٍ من حلاوة وجهه على الرغم من تخطيه الثمانين عامًا، لم تنكمش ملامحه ولم تنحن قامته بالقدر الكبير كمن هم في سنه.. أتذكر- قبل رحيله من بيت العائلة- أن

فرحة كانت تغارُ عليه من جميع النساء؛ فقد بدت وكأنها تتقدم في العمر أسرع منه بكثير. قال لي بهدوءٍ إن فرحة أبلغته رسالةً خاصةً من أجلي، سألني عمًا إذا كنت مُستعدًا لسماعها.. أجبته بدون تردد أن يبلغني الرسالة.. قال:

- بتقول لك لو عايز تشوفها في أحلامك اقتل كابوسك بسكينة باردة، ومتخافش منه؛ الموت لما بييجي في غير معاده بيكون جبان.. فيا تعيش صح يا تاخذ الموت في حضنك، ماتقبلش بنص حياة.

قلت له إن هناك رسالةً أخرى من القدر كي أحارب كابوسي؛ فقد فتحت الهاتف منذ قليل لأجد رسالةً من أمجد طمأننتني إلى تنفيذ التجربة ونتائجها، أقنعني بالسير معه في نفقه المظلم.. ليس معي إلى نورٍ صغيرٍ؛ إما يساعدي على العبور، وإما ينطفئ لتسود العتمة وألحق بفرحة. لم يجب رفعت، فأعدت مضمون كلامي وانتظرت الرد فلم يأت.. فصحتُ فيه قائلاً:

- ما ترد علياً!

- عايزني أقول إيه؟

- تفتكر دي رسالة من ربنا؟!

أشار إلى قلبي وقال:

- اسأل فرحة!

ثم تنهّد تنهيدةً كبيرةً قائلاً:

- فإكر لما قولت لي إن اللي أبوه ييموت زهره بيتكسر،
وإن اللي أمه بتموت قلبه بيتكسر.. زوّد على كلامك إن
اللي حبيبته بتموت روحه بتتكسر.

قلتُ بأسى:

- طب واللي جدته بتموت.

- فرحته بتتكسر.

بكيت بحرارةٍ بعد أن ظننت أن عيني قد عقرت عن
الدموع، لا أظن أن ما أفعله الآن بكاء عين؛ فهو بكاء روح
خسرت جزءاً عظيماً منها، روح مُطالّبة بالتعرّض للتشويه
من خلال تجربةٍ أليمةٍ؛ حتى تستطيع استكمال ما قُدّر لها
من الحياة، لا أعلم سبباً لحرارة الدموع وانقباض القلب؛
أهو حُزني على فراق الراحلين أم خوف من أن ألحق بهم.
قال رفعت مبتسماً:

- نسيت أقول لك.. فرحة قالت حاجة كمان.

- خير يا جدي؟

ردّ ضاحكاً:

- قالت بطلوا تعددوا عليا زي الولايا.. أنا في مكان أحسن
من بلدكوا كلها.

ابتسمت حتى خجلت ابتسامتي من دفء عَبراتي،
لم أهتم بالتحقق من صدق كلام رفعت عن رؤياه؛ فقد
سمعت كل ما أردت سماعه لأخدر أحزاني، نهضت من
مكاني عازمًا على قبول عرض أمجد والخوض داخل تجربته،
أخبرت رفعت بقراري.. حيَّاني بقلقٍ.. أخبرته دون أن أنظر إلى
عينيه أن ينتظر عودتي خلال ثلاثة أيام؛ فإن غبتُ أكثر من
هذا.. فليترحم عليَّ وليد عليَّ أن أجمع بفرحة.

صِرَاعٌ نِهَائِيٌّ

الجمعة 10 فبراير 2006

لم أدر كيف وصلتُ إلى عيادة أمجد؛ مرَّ عليَّ اليوم طويلاً غير واضح المعالم.. كنت كالمُخدَّر منذ عُدتُ إلى زوجتي بعد غياب بضعة أيام، احتججتُ إلى راحةٍ - لم أنل منها قسطاً- قبل معركتي اليوم مع الموت؛ الصراع الأخير الذي سأسترد بعده كرامتي أو ستستكين روحي إلى الأبد. عاتبنتني مي على غيابي غاضبةً من الحالة اللامبالية التي كنتُ عليها.. أدركتُ بفطرتها أن ثمة خطأ بي، خاصةً حين صليتُ كل الفروض منذ استيقاظي؛ فلم تعتدني مواظبًا على صلاتي بالشكل المثالي.. أكلت؛ علَّها آخر وجبة لي.. ما لبثت أن غسلت يديَّ حتى أفرغت كل ما في جوفي، شكت أن كوابيسي قد تملَّكت مني.. فوعدها أن كل شيء سينتهي اليوم.

أعرفُ أن الموتَ خصمٌ قوي، وأنني أعزل بلا سلاح؛ فلا طاقة ولا إيمان ولا رباطة جأش.. فما هي نقاط قوّتي أمامه؟.. لا أمتلك سوى الحظ الذي لم يُنصفني طوال أربعة عقود. سمعت فيما سبق عن أسطورةٍ لا أتذكر الكثير من تفاصيلها؛ أعتقد أنها كانت تحكي عن طبيبٍ ذهب لعلاج فتاةٍ جميلةٍ.. فوجد الموت مُتجسِّدًا عند رأسها تمهيدًا لقبض روحها، فأدار الفراش سريعًا ليعيد رأسها عن الموت الذي تحرّك حتى بلغ الرأس ثانية.. ظلَّ الطبيبُ يُدير الفراش والموت يُطارده حتى ملَّ الأخير وترك الفتاة مُنقذها الذي أحبها. فهل سيرضى الموت معي بهزيمةٍ مؤقتة؟!.. هل سيتركني أحيًا الباقي من عمري في سلام؟.. أم أن ذلك الباقي سينتهي اليوم؟..

أخرجني أمجد من خواطري حين طلب مني أن أهدأ وأن أشرب كوب الليمون الذي أتاني به جُبران؛ فيجب أن تمر فترةٌ كافيةٌ من مدة الكشف وتسير الأمور بشكلٍ طبيعي أمام المرضى المنتظرين بالخارج؛ فمعظمهم مُصابٌ بالبارانويا وسيتشكك في الأمر إذا لم يتم حبه بالصورة الصحيحة.. طلب مني أمجد أن أصف له شعوري اللحظي.. أحبته أنني لا أشعر بنصفي السفلي، ولا أستطيع تجميع أفكارى.. نظر لساعته معلنًا انتهاء وقت الجلسة المعتاد، أخرج زجاجة صغيرة وطلب مني أن أتناول التركيبة.. ترددت لدقيقةٍ قبل أن أتناول منه الزجاجة، ألقيتها على الأرض صارخًا أنني لا

أريد الموت.. حدجني أمجد بغضبٍ طالبًا مني أن أخفض صوتي، اقترب مني وقال بهدوءٍ إنني لن أموت.. نهضت من مكاني قائلاً إنني لن أخوض التجربة، وسأذهب لقضاء الأيام الباقية لي بصحبة رفعت في صومعته.. أشار نحو باب الغرفة قائلاً:

- براحتك مش هاقدر أجبرك على حاجة.

كاد أن يقول شيئًا إضافيًا.. لم أعبأ بكلامه وخرجت مندفعًا من غرفة الكشف كأنني أهرب من الجحيم، وصلت إلى سلم العمارة وبدأت النزول، تعجبت أن أمجد لم يركض ورائي لإقناعي باستكمال التجربة؛ فأنا أعلم أهمية التجربة في مسيرته العلمية..

كيف أتعرِّق بهذه الغزارة في أواخر الشتاء؟!.. ولماذا أجاهد لالتقاط أنفاسي؟.. وحين أتحسس نبضي لا أكاد أشعر به!

الآن أفهم إصرار أمجد على أن أحتسي الليمون، أستوعب عدم معارضته لي في قرار العدول عن التجربة؛ لقد أراد أن تبدو حادثة وفاتي طبيعية تمامًا. أرى جُبران يركض نحو جسدي الذي شُلت حركته بصحبة بعض المرضى وخلفهم أمجد.. حاولوا إفاقتي بالطرق التقليدية ولكن أمجد وحده يعلم أنني لن أنهض الآن.. اقترب أمجد وشرع يقيس نبضي، ضغط على صدري مُزيِّفًا فزعه على صديق عمره ويصيحُ فيَّ

كي أستيقظ.. أذكر أنه أخبرني بوجود تركيبة ثانية يجب أن
أخذها على شكل قرص سميك حتى تحدث عملية الإنعاش
ويعود نبضي مجددًا.. فأين هي؟!

نظر إليهم أمجد، أخرج هاتفه متصلًا بناجي، بلَّغه
أسفًا بخبر وفاتي بصوتٍ عالٍ.. اقترح أحد الواقفين نقلي إلى
المستشفى لكي يتم إنعاشي هناك، صاح أمجد فيه مُنهيًا
النقاش أو أي نقاش مماثلٍ قائلًا إن أحدًا لن يحرص على
حياة صديق عمره أكثر منه، ولكنه الآن في عداد الموتي.
أقنعني تمثيله لدرجة جعلت هاجسًا يستيقظ بداخلي:
أمن الممكن أن يكون أمجد قد اتفق مع ناجي على تلك
الخطوة؟.. وأن ما تناولته كان مجرد سُمٍّ عادي، وأن قرص
الإنعاش الثاني مجرد أكذوبة؟.. لكن هذه الفرضية تعني
أنني ميت الآن!

اعتذر أمجد لمرضاه تاركًا جُبران ليحدد معهم ميعادًا
آخر بعد ثلاثة أيام، لم أعرف إن كان قد أخبرَ جُبران أمجد
بالخطوة أم لا.. لكنني استشففتُ من ردود أفعاله الصادقة
أنه تأثر بما حدث لي؛ عكس رب عمله. حملني أمجد
بمساعدة بعض الجيران الذين تعاملوا معي كجماد فأنزلوني
على السلم دون رفق. تعجَّبتُ من كوني أكون مُتخشبًا لا
أستطيع الحركة كالأموات، وبرغم هذا أرى وأسمع وأشعر
بكل ما يحدث حولي.. لم أعرف هل قصدت إيفلين أن

تحافظ التركيبة على إدراكي.. أم أنه قد حدث مصادفة.. أم أنني أهلوس متوهماً بإدراكي لما يحدث.. السؤال الأهم: هل هُزمت مبكراً في معركتي مع الموت بخيانة من أمجد وناجي؟!

أجلسني أمجد برفقٍ على الكنبه الخلفية للسيارة، شكر الرجال الذين حملوني تاركين أمجد، ضربوا كفوفهم مُتحرسين على حال الدنيا التي خُطفتَ منها والموت الذي يأتي بغتةً والكفن الذي بلا جيوب.. لا أعرف إن كان لكفني جيوب فماذا كنت سأضع فيها! ذبح أمجد شكوكي بعد تحركنا بدقائق حين توقّف، ونزل ليهمسَ في أذني مطمئناً أن كل شيء يسير على ما يُرام، فتح فمي عنوة ليُعطيني القرص الضخم متبعاً إياه بنصف زجاجة مياه لم أشعر بها أثناء الابتلاع.

أظن أن حالتي الحالية لم تتكرر كثيراً مع البشر؛ فكيف أشعر بكل ما يحدث حولي دون القدرة على تحريك أي شيء غير جفني عيني؟!.. لا أعرف ولا توجد لدي الخبرة الطبية لأفسر أي شيء، ولكن ما أظنه أن إيفلين هذه إما عبقرية أو محظوظة.. مع افتراض أن ما يحدث لي حقيقي وأنني لا أزيّف هذا الإدراك، أو أهلوس متخيلاً الموقف برمته!

أعتقد أنني قد غفوتُ قليلاً داخل السيارة التي لم تكن نومتها مريحةً، لا أظن أن أمجد يُدرك أنني أشعر بالألم أصلاً؛

لا يريد إلا أن أكون واعياً أثناء التجربة ليس أكثر.. أفقت من خواطري على توقُّف السيارة وصوت عطوة المختلط بصياح بعض رجال العائلة الذين حاولوا إقناع أمجد بعدم ضرورة مبيت جثماني في المستوصف وأن جميع بيوت العائلة مفتوحة لأجلي حتى الدفن، ولكن ناجي عَضَّد موقف أمجد وقال بمنطقٍ سليمٍ إن هذا الحل الأنسب؛ حتى لا يفزع أحد من الطحاوية بعد أن تشاءموا من الموت الذي اجتاح ثلاثة أرواح من نسلهم في وقتٍ قصيرٍ.. واقترح أن يتم الغسل والتكفين الآن على أن تقام صلاة الجنائز والدفن بعد ظهر الغد.

وافق عطوة على مضضٍ دون أن يفهم سبب عجلة ناجي وأمجد.. واتصل بالمُغسِّل للحضور فوراً، أرسل أحد خفره لإحضار الكفن، وأمر آخر بتنظيف غرفة الكشف في المستوصف، وطلب من ثالث المبيت أمام باب المستوصف لحراسة جثتي.

شعورٌ غريبٌ أن تسمع اسمك يُنادى في مكبر صوت المسجد ليُعلم أهل القرية بوفاتك: "البقاء لله والدوام لله.. توفى إلى رحمة الله تعالى أستاذ يحيى الطحاوي قريب كل من...!"

سمعت خفيراً من ذوي عطوة يخبر زميله أنني لم أكن معروفاً لدى أهل البلد، وأن من عرفوني لم يُحبوني كثيراً..

وكأنني كنتُ أتلهف لحجز مكانٍ في قلوبهم الرحبة التي
تسع الجميع!.. أجابه الآخر بلا مبالاة أن ما يزعجه الآن
أنه لن يشاهد مباراة نهائي كأس إفريقيا بين مصر وساحل
العاج.. لا يعلم أنه يحضر الآن مباراة نهائي أكثر قوة
وتنافسية؛ أخوضها ضد خَصْم أقوى مني كثيرًا، صراع أخير
الهبزيمة فيه تعني الفناء بلا أدنى فرصة للتأر.

أمر عطوة خفيّره بحمل يحيى إلى إحدى غرف الكشف
داخل المستوصف، والتي تم تنظيفها بعناية، ووضع ملاءة
جديدة فوق سرير الكشف بداخلها تمهيدًا لاستقبال جثمانه.
أتى المغسل متعجلًا خلفه زوج المساعدين اللذين أتيا برفقته؛
حمل أكبرهما سنًا خشبة المغسلة ذات الأربعة أرجل، وحمل
الأصغر كيسًا بلاستيكيًا أسود اللون.. قال المغسّل للأول:

- يلا يا سعد، خد محمود وروحوا قلّعوا المرحوم
ونحنحوه لحدّ ما أخلص كلمتين مع الحاج عطوة..

فقال الأصغر سنًا إنه سينتظر بالخارج؛ فلن يقدر على
مشاهدة المنظر.. نهره المغسّل الذي اتضح أنه أبوه، أخبره
أن هذه مهنة العائلة منذ زمن، ولن يسمح له بأن يوقف
هذه السلسلة، سأله مُستنكرًا:

- عُمرُك سمعت عن جزار بيخاف من الدم؟!.. عارف إن أول مرة صعبة، بس الثانية هتتعود، والثالثة هتتحايل عليًا أشغلك معايا.

قال الابن بحدة أقل وتذمر أكثر إن زملاءه في المدرسة يُعايرونه بمهنة أبيه واصفينه: "ابن الحانوتي"، وأنهم يشمئزون من الأكل معه والجلوس إلى جواره.. تألم المُعسَّل للحظة، ابتلع حزنه حفاظًا على منظره أمام الطحاوية وخفرهم، تغلَّب على ألمه بصفعةٍ على وجه ولده وقال بحزم:

- يبقى العيب على المدرسة اللي ما علّمتش العيال تحترم الناس، مش العيب على أبوك اللي بيأكلك واللي لولاه كانت جتت الخلق عفنت في الشوارع.

أمره بلهجةٍ أقل حدة أن يلحق بمساعده سعد كي يُعلِّمه الشغل.. ثم ذهب ليتفق على مستحقاته مع عطوة، بدأ حديثه بمجاملةٍ قائلاً إن يحيى كان أخًا عزيزًا وأنه لن يتقاضى قرشًا عن غسله، ولكن سرعان ما تطرق إلى تفاصيل عمله ذاكراً تكاليف كل مرحلة، أخرج عطوة محفظته ولكن ناجي أمسك يده، وقال بلهجةٍ حاسمةٍ إنه سيتكفل بكافة المصاريف.. ردَّ عطوة بحزنٍ مفتعلٍ أن معزته ومعزة يحيى من معزة أبنائه.. هزَّ ناجي رأسه نافيًا، أخبره بنفس الجدية أن كافة مصاريف أخيه سيتم تسديدها من خير

أبيه الباشمهندس أحمد رحمه الله. لم يتمادَ عطوة في عرضه كثيراً حتى لا يُقبل به، لم يقل عطوة إنه كان ينوي تدوين كل قرش دفعه؛ كي يُطالب به من ميراث يحيى لاحقاً.. أدرك ناجي أن عطوة ليس جاداً في "عزومة المراكبية" تلك؛ فسأل المُغسِّل بلهجةٍ عمليةٍ عن القيمة الإجمالية التي يُريدها.. ردَّ المغسل بابتسامةٍ صفراء أنه يريد نفس التكلفة التي أخذها يوم وفاة حسن مُضافاً عليها خمسون جنيهاً.. أطلق ناجي سُبَّةً وقال له:

- إنت جاي تنصب على الطحاوية؟.. خُد خشبتك واتكل.

ردَّ المُغسِّل بلهجةٍ مُتوسلةٍ أن الغلاء زاد، وأنه بلغ من الكبر عتياً، وحين يمرض لن يجدَ من يصرف على بيته؛ فجميع أولاده هاجروا خارج مصر وصغيره لا يُحب العمل.. لم يبدُ على ناجي التأثير بحديثه.. فأكمل المُغسِّل أنه قد أتى بكل اللوازم؛ بدايةً من الخشبة حتى زيت الكافور، وأن كل ما يريده قدر من الماء وطسَّت واسع أو أي إناء مُشابه.. تدخَّل عطوة مُعاتبًا:

- فالح بس كل ما تشوفني تقول لي "كل من عليها فان،

والكفن مالوش جيوب يا حاج"!

ردَّ المغسل بنفس الابتسامة الثقيلة:

- أنا هابقى أفصل لي كفن بجيوب.

قال ناجي للمغسل أن يُنهي الغُسل سريعًا.. قبل أن يدخل المستوصف أوقفه عطوة مُستدرگًا:

- وأنت مروّح عدي على منصور بتاع الرخام؛ خليه ينحت لنا رخامة نخطها على التربة باسم المرحوم "يحيى أحمد الطحاوي" وبتاريخ إنهاردة.

ضبط مساعد المُغسل من وضعية جسدي على مغسلته الخشبية، بدأ يخلع عني ملابسني، انتزع خاتم زواجي من يدي دون رفيق، وشرح لابن رب عمله ما يفعل، أمره بصوتٍ خفيضٍ أن يفتح الحقيبة ويأتيه بقطعةٍ من القماش تستر عورتني، كما طلب منه إخراج القفازات البلاستيكية التي سيرتديها أثناء الغُسل.. أوماً الصغير محمود برأسه موافقًا دون نقاش.. خلع المساعد عني الباقي من ملابسني ساترًا نصفي السفلي بقطعة القماش، أمر الغلام بثني ساقني على فخذي وفردهما ثم شرع بدوره في ثني ذراعي مقربًا الساعد من العضد تارة ومباعدًا تارة أخرى.. وقال:

- كده إحنا بنليّ الجثة عشان ما تخشيش زيادة، ولو كنا هنتأخر عن كده كان المفروض نخط حاجة ثقيلة على بطنه عشان ما تتنفخش.. بس الجدع ده مش متخشب أوي الحمد لله، شكله كان راجل صالح.

أثارت عبارته السخرية بداخلي.. سأله محمود عن
العلاقة بين تصلب الجسد وبين كوني شخصاً مستقيماً.. فكَرَّ
سعد قليلاً وقال وهو يهز كتفيه بلامبالاة:

- أي حاجة بتمشي سهلة من لحظة الموت لحدّ الدفن
تبقى فال حلو على الميت.

هزَّ محمود رأسه بلا اكتراثٍ فأردف سعد:

- يلا عشان ننحنه.. ارفع رجله فوق.

نَفَذَ الغلام الأمر على مضضٍ، فشرع سعد يرفع ظهري
أيضاً ضاغطاً على معدتي.. أحسستُ بتسرُّبٍ يخرج من
أحشائي على الخشبة، شعرتُ باشمئزازٍ كبيرٍ من نفسي
وكذلك فعل محمود، أمره سعد بتكرار العملية حتى شعر
أنه قد نظفني من الداخل جيداً، ثم نظَّف ما خرج مني
دون أن يكشف سترتي. وصل المغسل مع عطوة الذي وقف
بعيداً وتبعه خفيران حاملان دلوين من المياه، أمر المُغسِّل
مساعدَه بإغلاق عيني، ربط قطعة من القماش من فكي إلى
قمة رأسي حتى لا يفتح فمي، شعرتُ بفزعٍ لم أمرَّ بمثله
ما حييت، كان الكابوس يتحقق بصورةٍ أبشعٍ بكثيرٍ مما كان
يصوِّرها لي عقلي؛ كل هذه العيون تراك عارياً عاجزاً، كل
هذه الأفواه تتحسر على حياتك، كل هذه الأيدي تعبث
بجسدك محاولةً تنظيفه.

أمر المغسَل ابنه بإلقاء الخرقة التي مسح بها أسفل عَجْزِي بعيدًا، سأله محمود في حيرةٍ وبصوتٍ خفيضٍ حتى لا يسمع عطوة الذي شعرت أنه يقف بعيدًا ويخاف الاقتراب والنظر:

- ليه يابا جبت العمدة عطوة يحضر الغُسل مع إن أستاذ ناجي أقرب للمرحوم؟

قال المغسَل هامسًا إن أهل العلم استحبوا أن يحضر أكثر أقرباء الميت ارتكابًا للمعاصي البيّنة؛ حتى يتعظ قبل أن يحين أجله.. هزَّ الولد رأسه في فهمٍ.. أمر المغسَل مساعده أن يفرك الصابون في طبق المياه حتى تظهر الرغاوي على سطحها، شرح لولده قائلاً أنهم الآن يقومون بـ"غُسل النظافة"؛ يبدأ بغسل الرأس جيدًا مع الحرص على عدم فتح فم الميت أو عينيه وتجنُّب تساقط الشَّعر، يتم بعده غسل الجزء الأيمن من الجسد من أعلى إلى أسفل باستخدام اللوفة أو أي قماشة خشنة، وتكرار نفس العملية على الجانب الأيسر.. مع الحرص التام على غض البصر عن عورة الميت.

بدأ في تنفيذ ما شرحه لولده عليّ، كانت يده قاسيةً ولوفته خشنةً.. أعتقد أنني لم أكن على هذه الحالة من الطهارة في أي يومٍ من حياتي، قال لمحمود أمرًا:

- حط ذراعه اليمين على صدره، ورجله اليمين فوق الشمال؛ عشان نقلبه على جنبه الشمال وننصف ظهره.

كانت يد محمود ترتجف كلما لمسني، ولكنه كان خائفًا من بطش الأب، ففعل ما أمر به. اجتاح الماء- الذي بدأ يفقد دفئه- جانبي الخلفي، كرّر محمود الفعلة حين قلبني على جانبي الأيمن لإتمام ما فعله بمساعدة أبيه.. أمر المُعَسَّل سعد بتجهيز قِطْع القطن، شرح لمحمود أن غسل النظافة قد انتهى وسيبدأ الغسل الشرعي؛ مسح فمي بقطنة مبتلة ثلاث مرات مكرراً نفس الفعلة مع أنفي باستخدام قطنة أخرى، ثم أكمل وضوئي بشكل طبيعي.. وبعد أن انتهى أمر مساعده بخلط زيت الكافور بالماء ليُعمّم به بدني كله من الأمام والخلف.. طلب من ولده تجفيف الخشبة من تحتي ومن مساعده تجفيفي بمنشفة بيضاء أحضرها عطوة من منزله.. أمسك محمود رأسي بيده المترددة وبدأ في تجفيفها بحرص، قاومت رغبةً عارمةً في أن أفتح عيني لأرى ما يحدث حولي؛ خاصةً أنها العضو الوحيد الذي أستطيع التحكم به.. صرخ الولد بفرعٍ شديدٍ تاركًا رأسي، وهو ينظر إلى عينيّ وقال لأبيه:

- الميت صحي!

نظر له والده بغضبٍ، نهره بصوتٍ منخفضٍ، أمره أن يحترم حُرمة الميْت.. تحرَّك المُساعد سريعًا ليغلق عينيَّ بسبابته وإبهامه، وقال لمحمود بهدوءٍ:

- دي بواقى عصب عنده لسه ماماتتش.. ممكن عينه تفتح أو صباعه يترعش؛ حلاوة الروح يا محمود.

حفظت أشكالهم برغم أن لمحتي كانت سريعةً كالومضة؛ لم أرَ عطوة لحسن حظ كلينا.. كان سعد بدينًا أبيض البشرة عكس رب عمله- الذي لم أعرف اسمه- وولده محمود؛ كانا يتميزان بضآلة الجسد وسمر البشرة، كما كان المغسل يتميز بحَوْلٍ ملحوظٍ في عينه. أحضر سعد قطعةً كبيرةً من القطن، وقال لمحمود شارحًا:

- دي قطنة مبلولة زيت كافور.. ممكن تتبل بريحة عادية بس الكافور بيبعد الدود عن الجثة لفترة كبيرة؛ بنمشيها الأول على مواضع السجود السبعة؛ الراس والكفين والركبتين والرجلين.. بعد كده في المغابن.

قال محمود مُستفهمًا عن معنى المغابن.. أجاب والده أن المغابن تعني المواضع المخفية من الجسد؛ كالإبطين والرقبة وما خلف الركبة، شرح له أن قطعة القطن يجب أن تغطي العورة كاملة؛ من الدُّبُر إلى القبل.

تعجبتُ من ثقافة هذا المغسل الذي كان يعرف ما يفعل حقًا، لا شك أنه أزهرى أو تعلّم مهنته على يد أحدهم أو تفقّه في عمله على يد آخر.. تأكد من تجفيفي تمامًا ومن جفاف الخشبة أسفل مني واضعًا القطن فوق عينيّ وفي فمي وأذني ومنخاري حتى أصبحت أتنفس بصعوبةٍ شديدة.. بدأ في وضع أول ثوب من الكفن أسفل مني برفقٍ وطبّقه على جسدي حتى أصبحت ملفوفًا بداخله، وكرر العملية حتى أحاطني بثلاثة أثواب واضعًا بين كل ثوبٍ والآخر بعضًا من الكافور.. سأتجمد من البرد إن بتُّ ليلتي هنا؛ فلا يزال الشتاء يحتضر.. أصبح التنفس أكثر صعوبة، يكاد يكون منعدمًا، لقد غفلنا هذا الجزء من الخطة تمامًا!

ربطني المساعد بثلاثة خيوط؛ الأول فوق رأسي والثاني عند وسطي والثالث أسفل قدمي.. سأفقد الوعي بعد ثوانٍ إن استمر الوضع هكذا!.. حملني ثلاثهم بحرصٍ حتى وضعوني على سرير الكشف بالمستوصف المهجور، سمعت صوت حملهم للخشبة وصوت إغلاق بوابة المستوصف...

أفقت بعد فترةٍ لأجد ناجي أمامي يخبطني على وجنتي بشدة كي أستفيق، فتحت عيني لأدرك أنني أسمع يهمس قائلاً إنه أخبر الخفر برغبته في توديعي؛ حتى يفتح الباب الخلفي للمستوصف كي يدخل أمجد منه، وأثناء خروجه

تذُكر صعوبة تنفسي لوجود القطن وطبقات الكفن الثلاثة..
أردف قائلاً بحيرةٍ واضحةٍ:

- أنا خُفت تقطع النفس.. بس مش فاهم بتتنفس إزاي
من غير مايبان لك نبض، وما أعرفش التركيبة دي عاملة
معاك إيه.. بس لما فَتَّحت عينيك بعد ما ضربتك
فهمت إن الخطة تقريبًا ماشية كويس.. أنا هاربط
الكفن بس هاخلي أول طبقتين واصلين لحد رقبتك
بس عشان النفس، وهاسيب تالت طبقة بس هي
اللي مغطية راسك كلها.. وربنا يستر.

اتصل دكتور أنس بأخيه كريم الذي أجابه من داخل
سيارته المركونة أسفل منزل أمجد.. قال كريم بقلقٍ إن
أمجد نزل منذ أربع ساعات مع جيرانه حاملين ما بدا له
شخصًا ميتًا، وأنه تتبعه حتى وصلا إلى بلد ريفية تُدعى
(طحا-الطريق)، راقبه من بعيدٍ ورآه يُقابل مجموعة من
الناس الذين استلموا منه الجثة، انتظر كريم داخل سيارته
نصف ساعة حتى انتهى أمجد من الوقوف والحديث مع
من بدوا كأنهم أقارب الميت، سار خلفه بسيارته حتى عاد
إلى بيته ثانيةً.

قال أنس بلهجة لم تخلُ من الحيرة إن أمجد يلعب لعبةً كبيرةً، وأنه يجب أن يعرف ما يحدث؛ فلن يكتفي بالمال مقابلًا للجهد المبذول في إيجاد جثةٍ مطابقةٍ للمواصفات التي حددها أمجد، طلب من كريم الاستمرار في المراقبة دون أن يدع أمجد يغيب عن عينه.. قال كريم مطمئنًا:

- أنا مستنيه ينزل تاني، هو قال هايقابل الرجالة ياخذ منهم الجثة إمتى؟

أتاه صوت أنس مؤكدًا أنهم اتفقوا على أن يتم اللقاء بعد ساعة؛ أي أنه يجب أن يتحرك الآن حتى يصل إلى مكان التسليم القريب من استراحة On the run على الطريق الصحراوي المؤدي إلى الإسكندرية..

قاطعته كريم قائلاً إنه لمح شخصًا يُغادر العقار مُتحركًا بمحاذاة سيارة أمجد، استدرك سريعًا نافيًا كونه أمجد.. بعد دقائق ظهر أمجد خارجًا من بوابة العقار محييًا حارسه، وتحركَ بسيارته مُتجهًا إلى الطريق الصحراوي حيث مكان اللقاء، تبعه كريم على مسافةٍ مناسبةٍ كي لا يعرف أن هناك من يُراقبه.. لاحظ تهور أمجد في القيادة فاعتقد لوهلةٍ أنه قد كشفه ويُحاول الفرار من مراقبته، ولكن أمجد لم يغير طريقه وإن زاد تهوره.. تساءل كريم في نفسه عن السبب الذي جعل أمجد في هذه الحالة من التوتر؛ فسرها بخوفه

من مقابلة رجال أخيه أنس وتسلمَّ الجثة.. خاصة أنه طبيب نفسي ولم يتعامل مع الأموات منذ انتهاء دراسته.

ظهرت فجأةً أمام أمجد سيارة نقل ضخمة على الطريق السريع.. حاول أن يتفادها فحاد عن الطريق واصطدم بكثب رملي انقلبت السيارة على أثره.. تجمَّد كريم في مكانه ولم يدرِ ما العمل، توقفت بعض السيارات التي تحرك أصحابها مُسرعين للاطمئنان على سلامة أمجد وإخراجه من السيارة المقلوبة. بعد دقائق اتصل أنس بأخيه متسائلاً بقلق عن سبب تخلف أمجد عن مواعده مع الرجال.. أجابه كريم باقتضاب:

- بلِّغ الرجال إن العملية اتلغت؛ أمجد عمل حادثة ومات.

المؤءود

السبت 11 فبراير 2006

عرفتُ فيما بعد أن ناجي ظل واقفًا بلا حيلةٍ خارج المستوصف قبيل صلاة الظهر، لم يترك هاتفه من يده؛ كان يُحاول الاتصال بأمجد الذي لم يظهر صباح الجنازة مما أصابه بالقلق على نجاح الخطة.. نظر له فرحات متعجبًا، طلب منه أن يتماسك ويتسلح بالصبر على فاجعة فقداني، سأله برفقٍ أن يدخل المستوصف مع رجال العائلة؛ حتى يتحركوا بالجثمان وصولاً إلى الجامع لصلاة الجنازة على روحي.. أشار إليه ناجي بكف يده علامة على أنه سينتظرهم في الخارج، أشعل آخر سيجارة كانت معه، طلب من أحد خفراء عطوة القريين منه أن يذهب ليشتري علبتين سجائر؛ واحدة له والأخرى توزع على رجال العائلة كما جرت العادة في هذه المواقف.. أخرج هاتفه ثانيةً وأعاد الاتصال بأمجد.

في نفس الوقت استرددتُ وعيي فزعاً على صوت الجلبة التي أحدثها اقتحامُ عطوة مع رجال العائلة للمستوصف مُرددين الشهادتين، لم تكن ليلتي يسيرةً؛ فقد راودتني الكثير من الخواطر عن تفاهة الحياة ومشاكلها، تعجبت من عدم إدراكي أن الموت قريب لهذه الدرجة، وكأنه يحدث للآخرين فقط، استرجعت لمحاتٍ كثيرةً من حياتي: ذكرياتي مع أبي وأمي اللذين لم تشبعتني الحياة منهما، عناقي المطمئن لناجي يوم الحادثة لأخفي الحقيقة عنه، وألبوم صور فرحة بمن فيه، وعراكي الأخير مع نرجس، وسلسلة من الأحضان التي أودعتني إياها فرحة؛ منحتني دفئاً جسدياً دون أن تدثر روحي، قسوة عطوة وسلبية فرحات التي سلبتني ثقتي في عائلتي، والنوم على فخذ رفعت مُستمعاً إلى قصصه التي لا تنتهي.. دون أن أجرؤ على معاتبته بعد ما فعل بنا، ترددت في أذني الكثير من جَمَلِه المحفورة في ذهني..

”حياتك بين كفتين؛ البصر والبصيرة.. لحظة الموت كفة البصيرة بتطّب، غشاوة البصر بتنجلي، بتمنى لو كل الناس تيجي تشوف الحياة بعينك؛ لحظة الموت قادرة تليّن قلب فرعون وتعلّمه الدرس متأخر، قادرة تحوّلك من ملة للتانية ومن تفكير للتاني، لحظة الموت فاس إبراهيمي قاسي بيهد كل أصنام حياتك، لحظة تجلّي مهما حاولت تحيد عنها هاتفضل هي الحقيقة الوحيدة الثابتة.. النبي آدم الصح هو اللي بيدركها قبل ما يتخلّد في عذاب غفلتها“.

أفقت من خواطر نومي المضطرب على صوت أذان الفجر، لم أحب يوماً صوت إمام جامع القرية الذي يضع مكبر الصوت كله داخل فمه مُستعرضاً تشنجات أحباله الصوتية.. ولكن اليوم- لدهشتي- بدا صوته بديعاً، تعجبت من تأخر أمجد الذي خرج عن الخطة المتفق عليها ولم يأتي حتى الآن لتبديل الجثتين تمهيداً لإنعاشي، تيقنت أنه لن يأتي حين اقترب الظهر وبدأ كلام مَنْ حولي عن تفاصيل التحرك إلى المقابر.. هل ستركني أتحلل حياً تحت الأرض؟! ولماذا لم يتدخل ناجي لإنقاذي من مصيري الذي أسير نحوه بلا أدنى مقاومة؟ على مدار الليلة ألفتُ شعور الوهن وضعف التنفس اللذين حلَّأ بي منذ بدأ مفعول التركيبة في الظهور، كما اعتدت ظلام الغرفة وخنقة الكفن، الأمر الذي لم يمنع خوفي القديم من الحشرات التي توهَّمت بوجودها حولي تُداهم جسدي المشلول وتنخر في ثناياي.. تمنيت أن يسمح لي عجزي الجسدي- الذي منحتني إياه التجربة- بتغيير موضع نومي ولكنه أبقى.. بقى سؤال واحد يراودني ويلهيني عن بشاعة التجربة: "كيف أدرك وأشعر بجميع المؤثرات الحسية على الرغم من عجزي التام عن الحركة؟!"، ظللت أرمش بعينيَّ للشعور بالحياة؛ كانت عيني العضو الوحيد الظاهري مني والذي لم يطله تأثير التركيبة.. هل سيأتي أمجد، أم سيكون كشخصية "جودو" في مسرحية صمويل بيكيت الذي طال انتظاره دون جدوى؟!

”مين اللي فك توب الكفن الجواني من على وش يحيى؟!“

هكذا قال فرحات حين وضع كفَّ يده على وجهي ليقراً عليه الفاتحة؛ فشعر بعظام وجهي قريبةً لا يفصلها عن يده إلا ثوبٌ واحدٌ.. أجابه عطوة دون اِكْتِراثٍ:

- تلاقية الواد ابن الحانوتي نسي يغطي وشه من جوه؛ أصله كان متلبّش إمبراح.

ولحسن الحظ.. رفع فرحات ثوبي الكفن الداخليين دون أن يكشف الخارجي؛ حتى لا يعيد دفس القطن في فتحات وجهي.. أين أمجد وناجي الآن؟ فلينقذني أحدهما أو كلاهما قبل أن يحدث ما أخشى التفكير فيه!

شعرت بأيادٍ غليظةٍ تحملني من الفراش الطبي حتى الصندوق الخشبي، ما لبثتُ أن خرجت للنور حتى سمعت صراخ الحريم الذي كان يُخيفني كثيراً.. إلا أنه هذه المرة أثار سخريتي وتهكمي؛ فلا واحدة من هؤلاء تعرفني من الأساس باستثناء مي التي لم تحبني كثيراً، ونرجس التي لم أسمع نحيبها فخمنت أن عطوة لم يُعْطها إفراجًا استثنائيًا كما كنتُ أتمنى.. أنبأني ظهورُ الظل وصوت الأذان المرتفع بوجودي داخل المسجد، شعرت بألمٍ جمٍ في فقرات ظهري التي لم تحتمل الاستلقاء على خشب النعش، عرفت أنها النهاية وأن أحدًا لن ينقذني سوى حظي والدعاء؛ لكمني

الموت في أول جولةٍ فأسقطني دون حراكٍ.. لبيدًا الحَكم في العَد التنازلي لإعلان هزيمتي.

أقيمت الصلاة.. بدأت أحرك لساني بأذكارها، وأرمش متخيلاً حركاتها كأنني أقف بينهم، الآن فقط أستوعب عبارة "صلوا صلاة مودّع"، أحسست بدمعةٍ صغيرةٍ تفلت مني.. تخيلت أنني سأشعرُ بالفخر حين يتقطّع الأقربون حزنًا على فراقني نادمين على كل ما اقترفوه بحقي.. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وتحوّل فخري المتوقع إلى كومةٍ كبيرةٍ من خيبة الأمل؛ يحيى ابن مريم مجرد رقمٍ جديدٍ.. عاش فتأمّم فمات، لينضم إلى أممٍ ظنّت أنها باقية ببقاء الزمن، الآن سأرقد مثلهم تحت تراب عالم كبير لن يؤثر فيه رحيلي! أخبرني جدي أن يومًا ما سينشغل الأقربون عني، وسيتجنب الأصدقاء مجلسي، ويضجر الأحياء من وجودي.

بعد انقضاء صلاة الظهر حمل المُصلون النعش؛ ليصبح في مقدمة الجامع أمام محراب الإمام الذي شرع يشرح قواعد صلاة الجنّازة التي يتعلّمها الحضور كل مرة كأنها الأولى!.. صرخة مدوية تنطلق من داخلي: أنا ما زلت حيًّا.. لا أرزق ولكنني حيٌّ!

حاولت إثارة أي حركة أو صوت علّهم يتراجعون عن إكرامي كميّتٍ وجب دفنه، لم يطاوعني أي من أعضائي سوى جفوني التي بدأت تشعر بالإرهاق.. تمكّنتُ بعد عدة

محاولاتٍ من تحريك خنصري الأيمن، صحيح أنها حركةٌ قصيرةٌ المدى والمُدَّة ولكنها قشَّةٌ يُمكن أن أتعلق بها.. حاولت تكرار الحركة لأطرق على خشب النعش فغرقت مُجددًا في العَجْز.. فلتوقفوا مراسم تشييعي ولتوقفوا عن تبادل حمل النعش بينكم، شعرت ببطء الجنازة فتيقنت من أنهم سيقضون ليلتهم يتحدثون عن نعشي الذي لم يستطع "الطيران" كدليلٍ عن عصياني وفسادي في الأرض.. سمعتُ همسهم من حولي؛ فمنهم من يتلو الفاتحة ومنهم من يُردد الشهادتين، ومنهم من يطلب حمل النعش قائلاً لمن يريد أن يحل مكانه "أجرني": أي اتركه لي ودعني أتناقش أجر التشييع معك. هبط النعش على الأرض؛ علمت أن النهاية قد حانت، سمعتُ سلامة اللحد يُردد قائلاً لرزق المعتوه بلهجةٍ عمليةٍ:

- يلا يا رزق شيل معايا.. هو فين أستاذ ناجي يدخل معانا!؟

سمعتهم يتساءلون عن ناجي الذي اختفى وسط الزحام، قال فرحات مُستسلماً إنه سينزل معهما.. حملني ثلاثتهم، أدخلوني برفقٍ داخل غرفة اللحد المُقامة تحت الأرض.. ردد سلامة بصوتٍ تزلزل له كياني: "بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله.. بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله".

تجلى صوتُ الشيخ عزازي من فوق الأرض، ساعدتني خطبته المعتادة على المرور بهذا الموقف. عدل سلامة التري من وضع جثماني بحيث أستلقي على جانبي الأيمن ويكون وجهي باتجاه القبلة.. بدأ رزق في صُنع وسادةٍ ترابيةٍ أسفل وجنتي اليمنى المحجوبة بالكفن، وأهالا التراب على جانبيّ لئلا أتزحزح عن موضعي، حتى امتلأ أنفي بالغبار وشعرت بألمٍ في عيني.. شرعا في فك أربطة الكفن تاركين فرحات عند قدمي يُردد ما تيسّر له من الآيات القرآنية، بدأ رزق يضبط من وضع جسدي للمرة الأخيرة؛ فحرك ذراعي الأيمن قليلاً لكي لا يتحمل ثقل جسمي كاملاً، وأمسك يمناي أثناء محاولةٍ أخيرةٍ مني نابعة من إرادتي ورغبتي بالبقاء، فحركت أصابعي ليشعر رزق بنجاح محاولتي وصاح قائلاً: "الله".. نَهَرَه سلامةً آمراً باحترام "حُرمة الدفن".. قال رزق مُعْتَرِضاً:

- يا عم سلامة..

ثم صمت بإشارةٍ حازمةٍ من سلامة الذي قضى على آخر آمالي في البقاء.. خرج ثلاثتهم من غرفة اللحد الكبيرة نسبياً كسائر مدافن العائلة مقارنةً بباقي القرية، وكما كان يفعلُ في كابوسي الوحيد: خرج سلامة مُتأخراً عنهما بعد أن همس في أذني قائلاً:

- افتكريا يحيى: الله ربك.. الإسلام دينك.. محمد رسولك.

بدأ في إغلاق باب اللحد ليظلم العالم من حولي تمامًا..
انتظرتُ ظهور الومضة التي أراها في منامي فلم تأتِ..
سمعت صوت سلامة يقول لرزق:

- سدّ معايا التربة.. وإوعى تقول اللي قولته لما كُنّا
بنعجن الأسمت في دفنة الست فرحة.. الطحاوية
عمّالين ينقصوا يا غراب البين!

ردّ رزق بلهجته المبهمة وبصوتٍ خفيضٍ لم يسمعه سلامة
لحسن حظه:

- هاسيب شوية أسمت كمان عشان تُرب الطحاوية
هاتفتح تاني قريب.

أوصد اللحد ورحل الجميع آخذين معهم آخر أملٍ لي
في الخروج، وساد السكون معلناً احتضاري بالإيقاع البطيء،
تدفق في عقلي نهرُ الأسئلة التي لا أعلم لها جواباً: أين
أمجد الآن؟.. هل سأموت جوعاً أم من قلة الهواء تحت
الأرض؟.. هل ستتزوج مني من بعدي؟.. كم سيصمد جسمي
أمام غياب الأكل والماء؟.. وماذا سيفعل ناجي وعطوة في
غيابي؟.. هل سيحسم الفزع المعركة مبكراً لينهي حياتي؟..
ماذا تركت خلفي من تراث؟.. متى سيبدأ الدود في التهام
وجبته العاجزة عن طلب العون؟.. هل ستنجح تركيبة
إيفلين الثانية في إنعاشي كما نجحت الأولى في وادي؟.. أم
ستؤدي إلى حتفي؟.. هل ستُنشر روايتي تخليداً لذكراي؟..

هل سيستجيب سلامة التُّرْبِي لاستغاثتي إذا دبَّت الحياة
في جسدي مرةً أخرى أم سيخاف أن تكون هذه روعي
الغاضبة؟.. هل كان كابوسي يستحق كل هذا العناء للتخلص
منه؟.. والأهم: أين أمجد؟!

مع الوقت اعتدت الظلام والبرد وحركة الحشرات حولي،
ألفتُ رائحة التراب الذي كان يُحيطني متساقطًا على كفني
من سقف اللحد بين الحين والآخر حتى ملأ أنفي، شعرت
بوجود عظمة آدمية صغيرة أسفل أذني؛ يبدو أن سلامة لم
يرها من التراب، جاهدت وساوسي بوجود ثعابين وعقارب
تتحرك من حولي؛ لم أعلم إن كان وجودها حقًا أم هاجسًا
أتوهمه.. حاولتُ إلهاء نفسي بعد حَبَّات الحصى أسفل خدي
الأيمن. لم آلف الوضع بقدر ما حاولت عقد هدنة معه،
كانت الرائحة بشعةً، لا أريد إلا موتًا سريعًا بلا معاناةٍ مُفزعةٍ
ولا سكرات مؤلمة.. أريد أن يسمع الجميع الصرخة المدوية
بداخلي طالبةً النجاة، سأوافق على الحياة مريضًا بهاجس
الموت فقيرًا عاجزًا إن تطلب الأمر.. أخرجوني وسأعيش هائمًا
مثل رزق؛ ذلك المعتوه الذي لا يعلم شيئًا عن النعمة التي
يعيش فيها.. أريد نصف حياة!

بدأت أشعرُ بخفة جسمي وروحي معًا، وتحررت من
ضيق نَفْس الكفن وبرودة اللحد وظلام القبر.. ظهرت
الومضة التي طالما داعبتني أثناء نومي وهونت عليَّ

كابوسي الأزلي الذي لم يتوقف عن إفزاعي وتكدير حياتي، يبدو أن علاج أمجد قد نجح وتحررتُ من كابوسي.. ولكنه سلّمني لكابوسٍ آخر؛ أشد إيلامًا وأكثر واقعية!

بدأ بصيُصُ النور يتسع حتى تبدد الظلام تمامًا وأصبحتُ قادرًا على الحركة، صار جسمي أصغر حجمًا.. كنتُ أقف على شاطئٍ خالٍ من البشر مياهُه هادئةٌ شديدة الصفاء تعكس لون السماء الصافية، أعكف على بناء قلعةٍ مصغرةٍ على رمال الشاطئ شديدة البياض، كذلك كانت إضاءة الشمس شديدة البياض كأننا نقبع في الجليد، سمعت صوتًا مألوفًا تردد صداه باسمي.. استدرت لأجد أبي؛ بدا أصغر سنًا ومشابهاً للحالة التي كان عليها في صورة زفافه على أمي: أكثر نحولًا ويحتل وجهه شاربٌ كثيفٌ واكتسب وجهه قشرةً سمراء من أشعة الشمس.. لم تمنع انبعاث النور من وجهه، توجّهت نحوه سريعًا مُحْتَضِنًا نصفه السفلي فنزل على ركبتيه ليُعانقني عناقًا تمنيت ألا ينتهي.. حملني على ظهره ونظر إلى نموذج القلعة الذي بنيت، أشاد بما صنعت يداي وأخبرني بأنني أحتاجُ بناء عمود إضافي تحت سقف القلعة حتى لا تنهار؛ وضع بعض الحصى الصغير فوق القلعة وداخلها كأنهم الجنود المفترض وجودهم فيها.. شرح لي أهمية حساب مقدار الحمل الحي المتمثل في الأشخاص، والحمل الميت المتمثل في وزن المنشأ نفسه لعمل الدعامات المناسبة حتى لا يسبب وزنهم انهيارًا أو هبوطًا مقوِّسًا

للسقف. تنبأ لي بأنني سأصبح مهندسًا أكثر نجاحًا وبراعةً منه، فَرِحْتُ بهذه الإشادة وطلبت منه أن ننزل المياه مرةً أخرى، ظهرت أُمِّي من العدم حاملةً منشفةً لتُخبرني بوجود ارتداء ملابسي استعدادًا للعودة إلى المنزل.. كان بطنها مُنتفخًا علامةً على اقتراب نزول حملها، استدرت لأستعطف أبي كي يتركنا على الشاطئ قليلًا، ولكنه اختفى وبدأت أُمِّي في الصراخ مُمسكة بطنها.. ركضت نحوها لأحتضنها وظللت متشبثًا بها ليستمر صراخها دون أن تُحاول إبعادي عنها.. شعرتُ بسائل الرحم يتسرب منها، أدركت بفطرتي أن هذه علامة على اقتراب الولادة.. حاولت أن أمنعها من السقوط على الأرض ولكن جسمي ذا الخمسة أعوام لم يسعفني فهويت معها.. نظرت أثناء سقوطي نحو موضع بناء قلعتي الصغيرة فلاحظت تغييرَ معالم هيكلها؛ لا أعلم تحديدًا متى تحوَّلت من قلعةٍ إلى شاهد قبرٍ؟!

لم أتوقف عن البكاء حتى احتضنتني فرحة وضممتني بين ضلوعها الهشة.. كان وجهها مشرقًا وفي كامل صحتها، قالت بضحكةٍ مجلجلةٍ:

- يا عبيط ما حدّش بيتعلم سواقة العَجَل صحّ غير لما يقع.

ثم صاحت في نرجس امرأةً:

- روعي الدوّار هاتي قطن وشاش عشان ابن خالك.

تأملت المكان حولي؛ كنا في حديقة الفاكهة المنعزلة على أطراف أراضينا، أظن أن هذه الأرض قد بارت فيما بعدُ وبنى أبي المستوصف مكانها.. عدت إلى حضان جدتي ثانيةً واستكملت سيمفونية بكائي.. لم تفهم أن بكائي لم يكن بسبب آلامي الجسدية؛ كان الوجد ألمًا لكرامتي كمراهق لا يستطيع قيادة دراجة كباقي أقرانه، في حين أن أخاه ابن العشرة أعوام يقود دراجته بمهارةٍ شديدةٍ دون سقطةٍ واحدةٍ!

جذبني رفعت من أحضان فرحة منظرًا ملابسي بيدٍ قويةٍ آلمت جسدي، قال لي مُبتسمًا:

- تيجي معايا أوريك حاجة أحسن من العَجَل وشغل العيال ده؟.. ولا هتقعد تعيط زي الولايا!

وضع يده على كتفي وسرنا وسط الأراضي الزراعية، شرح لي تقسيمة الأرض ومجرى المياه فيها وأنواع المحاصيل وأوقات زراعتها.. هززت رأسي دون أن أكثرث بما يقول، أخبرته أنني أشعر بالإنهاك من طول السير، فربت برفق على كتفي دون تعليقٍ.. وصلنا إلى شجرةٍ عملاقةٍ يوجد أعلاها عش مكتظ بالغربان، فقال لي باستمتاع:

- دي شجرة الغربان.. ما حدّش يعرف طريقها وسط الأرض غيري أنا وعمك عطوة، حتى الفلاحين بيوصلوا لها بالصدفة.

لم أرتح لمنظر الغربان بريشهم الأسود ونعيقهم المزعج
وحركاتهم العشوائية.. عَقَّب جدي ضاحكًا أن الجهلة فقط
من يتشاءمون من تلك الطيور؛ فالغرباب كان رسالةً من
ربنا لعبده قابيل كي يَعْلَمه الدفن ويكرم أخاه.. قال مُبتسمًا
إن الغرباب ليس نذير شؤم، وإنما بشير للراحة والتكريم..
التصقْتُ به أكثر وقلتُ بصوتٍ متهدجٍ إنني خائفٌ وأريد
العودة إلى فرحة.. ردَّ رفعت بحزم:

- ستك هاتعلّمك تكون بني آدم، أنا هاعلمك تكون
راجل!

تنصَّل رفعت من ذراعيَّ وابتعد عني.. حاولت اللحاق
به ولكن قبضة أخرى أُحكِمت حول ساعدي الأيسر بقوة،
التفتُّ لأجد عطوة يُطالعني بنظرةٍ ناريةٍ، أعدت النظر نحو
رفعت مُستنجدًا فلم أجده.. دفعني عطوة لأسقط على
الأرض وابتعد مُشيرًا للغربان التي هبطت من فوق الشجرة
ملتفة حولي في دائرةٍ ضيقةٍ، كانت أضخم حجمًا مما
تخيَّلت.. رفعت أجنحتها في حركةٍ جماعيةٍ وراحت تُحكّم
إغلاق الدائرة من حولي، اقشعر بدني حين لامسني ريشها
ووخرتني مخالِبُها، انفتحت مناقيرُها مقتربةً مني في نهمٍ...
أطلقت صرخةً مُدويةً لم تنقطع حتى توقفت تلك
اللعبة في الملاهي عن الدوران، نزلتُ بصحبة مي ومريم
الممسكتين برأسيهما من الدوار، كان أمجد ينتظرنا بجوار

اللعبة يتناول إبطاره.. كنت في السنة الثالثة من دراستي الجامعية بكلية العلوم التي أنجح فيها بمعجزة لا يعلمها إلا الله، وافقتُ بالكاد على الاشتراك بتلك الرحلة بعد إلحاح من أمجد وإقناع من مي، ولكن ابتسامة واحدة من مريم حسمت أمري.. لا أنكر انجذابي الشديد نحوها حين أحسستُ أنها تُشبهني؛ توفي إخوتها الثلاثة في حادث انهيار عقار كارثي بسبب مقالٍ عديم الضمير وموظف حكومي مرتشٍ وجشعٍ صاحب العقار.. كما كان اسمها كأمي فيما اعتبرته إشارة من القدر، اضطررت قبل رحيلي أن أجعل ناجي يُقسم على ألا يهمل مذاكرته يوم سفري، أخبرته أن الثانوية العامة تحتاج إلى ذهنٍ مُحصَّنٍ ضد التشويش.

كانت مي زميلتي في الكلية وصديقتي المقربة، عرّفتني على مريم جارتها وعرّفتها على أمجد صديقي اللدود، بعد حادثة وفاة والديّ لم أشعر بشيء تجاه بشرٍ سوى مريم، حتى أخي الذي حرصتُ على مصلحته إرضاءً لضميري وليس بدافع الأخوة والحب المطلق. بعد أن عرفت مريم تغير كل شيء؛ أصبحت أستمتع بالأفلام الرومانسية وأتذوق حلاوة كلمات الأغاني، اعتنيت بمظهري كما لم أفعل من قبل، بدأت التفكير في مستقبلي بعيداً عن شقة الحسين التي كانت مُستقرّاً لأسرتي وملاذاً لي ولناجي من بعدهما.. ولكن أمجد تركني أحلم وتحركت لتحقيق الحلم كعادته؛ نجح في اصطياد مريم بذكائه ووسامته ولباقته، لم يحبها

ولكنه لم يشأ أن تفلت منه، ملك قلبها ثم هجرها متعلقةً
بأمل عودته، فعل كل شيء وتركني أسيراً لأحلامي!

لم تحمل مريم ضغينةً ضد أمجد.. كانت كالأطفال في
كل شيء؛ عاملته كصديقٍ على أملٍ أن يعود إليها نادماً على
ما اقترف. اقترح أمجد ركوب تلك اللعبة الجديدة التي
تُدعى "قطر الموت" .. تشاءمت فور سماعي الاسم واعتذرت
عن مرافقتهم متحججاً برغبتي في الراحة وتناول الطعام،
رُحْتُ أتابعهم بنظري وهم يصعدون على متن ذلك القطار
المكشوف الذي يتحركُ بسرعةٍ على مسارٍ ملتوٍ.. جلست
مريم ومي في عربةٍ واحدةٍ وخلفهما أمجد بجوار أحد
رفاقنا في الرحلة، فتحت لفة الشطائر التي أعدتها مريم،
رحت أقطع ورق الجرائد المغلف للطعام، لم يكن هذا
أفضل طعام تذوقته.. ولكن يكفي أنه كان من صنع مريم.
لمحتُ أحد المهندسين يركض تجاه عامل تشغيل اللعبة
وقال له بقلبي:

- مش قولت لك ما ترغِّبش كل العربيات؟!.. وحطيت
لك علامة (x) على العربيات اللي لسه تحت التجربة!
أجاب العامل بعدم اكتراثٍ:

- النهاردة أجازة والدور ده كان زحمة؛ يعني الناس لو كانت شافت عربيات فاضية كانوا هإمسكوا فيا..
سييها على الله!!

أصابني القلقُ ورحت أتابع ثلاثتهم.. كانت مي تحيني بإشارةٍ من يدها كلما مرَّ القطار بالقرب من مكان جلوسي، أما مريم فكانت تصيحُ وتتنظر لأمجد لتري ثباته الذي حاول تزييفه كأنه يركب هذا القطار كل يوم.. ومع زيادة سرعة القطار زاد القلق على وجه العامل، وسمعت صوتًا واضحًا لخلخلة الأجزاء الممسكة لعربات القطار من أعلى.. أمره المهندس سريعًا بإيقاف اللعبة تدريجيًا حتى لا تحدث إصاباتٌ بفعل القصور الذاتي، حاولت التركيز لأرى أي عربة موضوع عليها علامة من المهندس لاحتمال للسقوط، أدركت بعد لحظاتٍ أنها العربة التي يركبها أمجد.. نهضتُ عازمًا على أن أركض خلفها حتى أمنع ارتطامه بالأرض، لم أخطط لشيء معين سوى محاولة إنقاذه، وأثناء تركي للفاضة لمحت خبرًا في المجلة المغلفة للشطيرة: كان نعيًا في صفحة الوفيات تتصدره صورتي وتحتها وصف "المغفور له"!

لم أتذكر بعد ذلك سوى إسراعي لإنقاذ أمجد الذي انخلع عنه حزام الأمان وسقط سقوطًا مدويًا فوقي، بعد سقوطنا علمت أن عربة مي ومريم كانت قيد الاختبار أيضًا؛ أدركت ذلك حين وجدت مي تصرخ باسم صديقتها

بعد أن ارتطمت رأسها بالأرض مباشرةً وسال دمها في كل مكان!

لم أستطع النهوض برغم أن أمجد لم يعد فوقي كما أن الأرض لم تعد أسفل مني؛ لا أشعر بكتلة جسمي على الإطلاق، اختفى كل شيء على مرمى بصري، لم يعد هناك سوى النفق المعتاد في كواييسي، ولكنه هذه المرة كان متوهج الإضاءة لدرجةٍ آلمت عيني حتى اعتدتها..أعتقد أن هذا هو البرزخ الفاصل بين عالمي الأحياء والأموات كما قرأتُ عنه من قبل، أم أنني خاضعٌ لهلاوس تجربة الدنو من الموت. هل ستنعقد محاكمة حسابي الآن لأعرف إن كنت سأثاب أو أخلد في عقابٍ مقيمٍ؟!..

تبَيَّنْتُ أنني أقف وسط النفق، تستقر في نهايته البوابة الحديدية الكبيرة الخاصة بحوش مدافن عائلتي.. ملحت فرحة تقف خلف البوابة تُحاول فتحها، بدأت أقترِب ومع كل خطوةٍ كنت أستعيدُ ذكرياتٍ لم أرغب يوماً في استعادتها: هروبي من جلسات تحفيظ القرآن، قبلاقي ولمساتي المُختلِّسة مع نرجس في الحديقة الخلفية للدوّار؛ التي لم تكن بدافع غير شهوة المراهقة.. تذكرت خداعي لمي في الكثير من لحظات زواجنا، واختلاس المواد الكيميائية من معمل العلوم بالمدرسة..

الحركة تزداد صعوبةً ولا أرغب في تذكر المزيد من تلك اللمحات المخزية.. أحسستُ أن شرط التقدم الوحيد هو الخوض في تلك الذكريات، أصبحت قريبًا من البوابة، أشارت إليَّ فرحة بالتقدم إليها؛ وقف بجوارها أبي وأمي وحسن ابن عطوة وأقارب رحلوا قديمًا لم أميزهم إلا من صورهم التي تحتفظ بها فرحة، بدت فرحة أصغر بكثير مما عهدت، وكان رفعت على كتفه ما يشبه جسم طفل في العاشرة من عمره الذي لم أتبين وجهه؛ خمنتُ أنه أحد أطفال العائلة أو ابن زوجة شكري الذي مات بسبب تخاذلي عن علاج زوج أمه من الإدمان.. لمحتُ خلف كتف فرحة آخر شخصٍ كنت أتوقع وجوده في هذا المكان ومع هؤلاء الأشخاص: أمجد!

لم أستطع الاقتراب أكثر من هذا، رفض عقلي تذكُّر أي خبيثةٍ إضافيةٍ، سأظل عالقًا في مكاني هذا لا أبرحه حتى أترجع عن النكران.. كيف بلغ هؤلاء السابقون البوابة؟!.. ليت هناك طريقة للتقدُّم غير هذا الاعتراف. تحرك الطفل النائم على كتف رفعت فجأةً إلى أعلى وطار بعيدًا، ثم اختفى من بعده كل الواقفين تباعًا.. انتهتُ بفرحة التي اختفت دون أن تفارق الابتسامة ثغرها. حاولتُ التحرُّك إليها فلم أستطع، حاولت الصراخ مُستنجدًا بها لتظل معي فلم يخرج صوتي.. اختفت البوابة واختفى كل شيء من حولي وعُدت إلى ظلام القبر مرةً أخرى..

أفقتُ لأجد نفسي غارقًا في بركةٍ من العرق الغزير
الذي بلل الكفن، وتسارعت أنفاسي كأنها تتسابقُ على
الخروج، وشعرتُ بزلزالٍ أحدثته نبضاتُ قلبي الذي أعلن
عودته للخفقان.. كما أعلنت التركيبة الثانية عن بدء عملية
الإعاش.

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ

الأحد 12 فبراير 2006

كما توقَّع ناجي؛ فقد اقتصر ثاني يوم من العزاء على الأقربين من أفراد الطحاوية وعلى الأقلاء ممن فاتهم الحضور أول يوم.. تعجَّب من غياب أمجد ظنًّا منه أن اختفاه جزء من الخطة التي -بالتأكيد- تسير على ما يرام بعد أن نفَّذ دوره فيها. استنكر ناجي حديث العائلة فيما يفترض أنه ثاني يوم يمر على وفاة أخيه؛ فقد اقترح أحدهم تجديد حوش العائلة ودهانه وعمل الأرضية ببلاط باهظ الثمن، وافق الجميع على الفكرة وأعلن عطوة تبرعه بنصف المبلغ، تناسوا الحداد وأخذوا يتحدثون عن أتفه التفاصيل في عملية التجديد.. تعجَّب ناجي من ولعهم الشديد بالتفاخر حتى في الموت، ضرب كفاً بكفٍّ دون تعليق. أعلن مؤذن الجامع القريب من مكان العزاء عن

وجوب صلاة المغرب، تباطأ ناجي ولم يلحق بهم كعادته،
ترجّل متمهلاً نحو عزاء الحريم المُقام في بيت رفعت
الطحاوي؛ ذلك البيت الشامخ والذي كثر بداخله المقيمون
والوافدون والزوار، تعددت استخداماته بين مسكنٍ ودوّارٍ
ومكانٍ لتحفيظ القرآن وسرادق عزاء حريمي.

وقف بعيداً يتأمل جدران البيت التي تشقق دهانها
واحتلت العنكبوت أركانها العليا، نظر إلى المقاعد العتيقة
التي تستقبل المُعزيات؛ نفس الوجوه ونفس الكلام ونفس
الحزن المصطنع.. أشفق على أرجل تلك المقاعد التي تصدر
صريها الذي يشبه الأنين حين تجلس فوقها النسوة من
ذوات الأرداف الضخمة.. أرسل رسالة إلى أمجد يُطالبه
بالظهور لحضور العزاء حتى لا يُشك في أمرهم، أخبره
بعنوان موكل قديم لديه يعمل بالتزوير مُقترحاً خلق هوية
جديدة كلياً ليحيى.

انتظر حتى قامت والدة مي لتذهب إلى دورة المياه،
ثم مال على ابنتها، سألها بصوتٍ هادئٍ ناظرًا في عينيها
الحمراوين من كثرة البكاء عمًا إذا زارتهم شخصيةً مهمةً
اليوم.. مسحت مي أنفها الدقيق بمنديلٍ ورقي وقالت
بصوتٍ مبجوحٍ إن جميعهن أتين البارحة، ولا يوجد في
العزاء غير قريباتها وقريبات يحيى.. صحح لها ناجي قائلاً:
"يحيى الله يرحمه".. لم تكد مي تسمع جملة ناجي حتى
انخرطت في بكاءٍ طويلٍ، لم يشأ أن يُخبرها بخطة يحيى في

تزييف وفاته؛ ففكر في التبرح من الموقف قدر الإمكان.
جلس على ركبتيه أمام مي، مدَّ يده إليها بمنديلٍ مُعطر،
قال لها مُهَدِّدًا إن الحياة كالقطار لن يقف من أجل أحدٍ..
صحيح أنه يسير ناقصًا عربية أو اثنتين.. ولكن يجب أن
يُكْمِل رحلته، أردف قائلاً بلهجةٍ عمليةٍ:

- تحبي نقسم ولا نسيبها مشاع؟

نظرت له مي نظرةً مُستفهمةً فوضَّح لها مقصده قائلاً:

- تركة يحيى.. ما بين نصيب يحيى في البيت ده والأرض
الي جنب المستوصف، وشقة الحسين الي أنا عايش
فيها وشقة الزوجية.. أنا هاكتب لك تنازل عن العربية
وعن أرصدة يحيى في البنك..

عقبت مي بلهجةٍ مُتهكمةٍ:

- اتنازلت عنهم عشان عارف إنهم ملايم؟

تلقت ناجي حوله، وحين تأكَّد من انشغال أعين النساء
الجالسات عنه، نظر إلى يد مي اليسرى المفرودة على ركبته
فوضع يده عليها برفقٍ ناظرًا في عينيها مباشرةً، قال إنه
تنازل لتتأكد أنه ليس طامعًا؛ فكل ما يريد أن تكون
مرتاحةً.. سحبت مي يدها بهدوءٍ، وقالت بحزمٍ:

- جتة أخوك لسه بلحمها يا أستاذ ناجي.. ولولا مشيئة
ربنا كان زماني أم أولاده.

وقف ناجي على قدميه قائلاً بابتسامة خافتة إن عطوة
سيعقد مجلساً مصغراً للعائلة، مشترطاً حضورها مكان
يحيى.. أجابته بتعجب أن يحيى نفسه لم يحضر أبداً.. ردَّ
بهدوءٍ:

- ما عشان كده لازم تحضري.

سألت مي مُستدركةً :

- صحيح هي فين نرجس؟.. مش شايفها خالص!

كان أنس يفضّل العمل في منزله الفخم ذي الإضاءة
الهادئة والأثاث داكن اللون، مارس عاداته في تناول "عين
الجمال" أثناء مطالعته للأوراق البحثية التي يعمل عليها،
كان يحرصُ دومًا على ظهور برواز صغيرٍ أمامه وسط
كومة الأوراق الموضوععة أمامه والتي يحمل بعضها توقيعه:
"د. أنس عز الدين".. استقرت داخل البرواز صورةٌ نهائيةٌ
لأنس مع زوجته وابنته الوحيدة داليا، يظهر في الخلفية
حمّام سباحة واسع خاص بأحد الفنادق الشهيرة في القاهرة؛
أقام فيه أنس منذ فترةٍ بناءً على دعوةٍ من إحدى شركات
الأدوية لحضور مؤتمرٍ طبي.

لم تكن داليا تُشبه أباهما بقامته القصيرة النحيلة وبشرته
الخميرية ورباطة جأشه التي لم يفقدها في أصعب أوقات

حياته، ولم تشبه أمها شديدة البياض ذات العينين العسليتين والقوام الممتلئ عند مناطق الأنوثة دون غيرها وضحكة طفولية لا تُفارقها؛ كان يرى داليا ناتجًا أكثر جودة ونقاء من العناصر المتفاعلة على الطرف الآخر من المعادلة.

كان أنس يحتفظ داخل درج مكتبه هملفٌ طبي يحمل اسم ابنته.. اعتاد مطالعته من آنٍ إلى آخر ليذُكر نفسه كيف تحوّل مسار حياته كليًّا؛ تذكر حين وُلدت داليا وتم تشخيصها بمرضٍ تجميلي يُدعى Plagiocephally ، ويعني تسطح عظام الجمجمة.. كان يعلم أنها مشكلةٌ بسيطةٌ، ولكن علاجها باهظ التكلفة ويجب أن يتم خلال السنة الأولى من عمر المولود. اقترح عليه أخوه كريم فكرة نبش القبور، وافق أنس على مضضٍ بعد تردد لم يدم طويلًا.. استعان كريم بأحد أصدقائه العاطلين عن العمل- وما أكثرهم- في تنفيذ أول عملية. تتابعت عمليات المتاجرة في الجثث، وقد اكتسبت طابعًا احترافيًّا، وفي وقتٍ قصيرٍ تضاعف العاملون تحت إمرة أنس الذي استطاع- خلال زمنٍ قياسي- توفير كافة النفقات اللازمة لسفر ابنته للعلاج في ألمانيا.

أدرك أن الأمر لم يعد بخصوص المال حين استمرَّ في عمله السري بعد شفاء داليا، وبعد نجاحه في جَنِّي الكثير من الأموال التي تكفل لأسرته مستقبلاً كريمًا؛ لكنه استمرَّ سعيًّا

وراء التميّز حين وجد ذاته في هذا العمل الذي تفوّق فيه كثيراً عمّن سواه.. عمل بمنتهى التفاني والجدية في هذا المجال المشبوه حتى كبرت جماعته واتسع نشاطها، فألت الأمور إلى ما أراد.. وأصبح الأفضل فيما يفعل.

اقتحمت داليا غرفة مكتب أبيها دون استئذانٍ حاملةً طبقاً كبيراً من المكسّرات المفضّلة لأبيها، ليحتضنها الأخير بعد أن يتناول منها الطبق ويجلسها فوق فخذه الأيمن، سألها عن أمها.. أجابته الإجابة التي توقعها: فأمرها تقضي معظم أوقات راحتها في قراءة الروايات البوليسية التي كان يراها مضيعةً للوقت، وكانت تراها قاتلةً للفراغ، في ظل غياب زوجها إما في العمل خارج المنزل أو لمواصلة العمل بداخله.. داعب أنس خصلات شعر ابنته السوداء التي ورثتها عن جدتها أم أمها، والتي زرعت داخل أم داليا منذ صغرها أن جمالها هو سلعتها الأعلى للقفزة الطبقية التي تتمناها؛ رفضت الكثير من المتقدمين لزواجها؛ لضعف مستواهم الاجتماعي والمادي، حتى حسم أنس المزداد على جمال الابنة التي تصغره بعشر سنين، حين أتى مُسلحاً بشهادة جامعيةٍ مرموقةٍ وثروةٍ صغيرةٍ وطموحٍ كبيرٍ، ساعده الحظ حين مرضت حماته بعد قراءة الفاتحة لتجده موفراً لها كافة أنواع الرعاية بمساعدة زملائه من مختلف التخصصات.. ليضع الأم تحت ضرسه، ويضع الابنة على فراشه.

ظَلَّ يُلَاعِب داليا ويبعد يديها عن الأوراق المنثورة فوق مكتبه، سرح في لقاءاته الحميمية القليلة بأمها والتي كانت كحياتهما: فاترةً وخافتةً ومظلمةً، لا هدف لها سوى داليا.. لم تُشك يوماً في عدم خيانتها لها؛ ليس ثقةً في ولائه بقدر ما كان الأمر ثقةً في تواضع قدراته وضعف شهوته التي لم تتجاوز كثيراً شهوتها المختونة.. كان خضوعه الأعظم أمام شهوة الثراء؛ الأمر الذي جعله ينتهك قَسَمه الطبي، مكوِّناً عصابته الصغيرة المتخصصة في نبش القبور.

- هو إحنا ما بقيناش نزور جدو ليه؟

قاطعت داليا خواطره، فنظر إليها مبتسماً وأشار بيده إلى أعلى قائلاً بلهجةٍ حاول ألا يشوبها حزنٌ "أن جدها عند ربنا" .. سألتها ببراءةٍ كيف صعد إلى السماء.. ردَّ أنس موضحاً أن جسده لا يزال على الأرض، ولكن روحه صعدت إلى الله؛ بسَّط عليها الأمر حين شرح لها أن الروح التي تجعلها تحيا وتتحرك وتتنفس أيضاً.. سألتها:

- يعني جدو موجود لسه في بيته بس لو روحنا كلمناه مش هايرد؟

أخبرها بصوتٍ خفيضٍ أن جدها مدفونٌ في الأرض كما أمرنا ربنا أن نفعل مع الموتى.. أطلقت داليا صرخةً قصيرةً فاحتضنها أنس بحنانٍ طالباً منها ألا تخاف عليه؛ فهو في مكانٍ أفضل الآن، قال لها بحزنٍ إن الأحياء من يستحقون

الشفقة لا الأموات. قبل أن تسأل أسئلةً أخرى رنَّ هاتفه المحمول معلناً عن اتصال واردة من أخيه كريم، تناول أنس قطعةً من المكسرات وردَّ على الهاتف قائلاً بضمِّ نصف ممتلئ:

- أيوه يا كريم.. داليا بتسلم عليك، تاخذ تكلِّمها؟

أخبره كريم بأنفاسٍ متلاحقةٍ أن لا وقت لمثل هذا الحديث المُجامل، طلب منه أن يحضر سريعاً.. أنزل أنس داليا من على حِجره واعتدل سائلاً كريم بقلقيٍّ عمَّا حدث.. ردَّ كريم بقلقيٍّ:

- مش خير.. الواد صبري ركب مع عصام السواق وراحوا مدافن طحا؛ عشان يطلع جثة الراجل اللي مات في عيادة دكتور أمجد...

قال أنس بعجلةٍ:

- وبعدين؟

- رجع العربية بعد خمس دقائق من دخوله التُّرب بيترعش وبيخرف، بالعافية عصام عرف يربطه في الكرسي وجابه المصنع.. أول ما جه فضل يتلوى على الأرض زي ما يكون اتلبس، وبقاله ساعة ما بينطقش!

وضعت السيدة أمل جارة إيفلين صينية القهوة أمام أقارب أمجد بابتسامةٍ سَمجةٍ، لم تكن تعرف عن إيفلين قبل رحيل أمجد سوى أنها "الخواجية" زوجة الطبيب القاطن في الشقة المقابلة لشقتها ويعمل بالعيادة التي تعلوها بطابقين في نفس العقار.. شعرت بمسئوليةٍ تجاه هذه الغريبة فطلّت بجوارها هي وبناتها المراهقات للتخفيف عنها ومساعدتها في استقبال قريبات أمجد وزميلاته السابقات في الدراسة وإعداد الطعام لها؛ كعادة المصريين في مثل هذه المواقف.. كما أعارتها جهاز التسجيل وشرائط القرآن لتشغيلها أثناء زيارة المُعزيات، كانت إيفلين تطفئه فور رحيلهن.

قامت إيفلين وصافحت أمل شاكراً بلسانٍ لم يتقن نطق العربية برغم فهمها للغة بشكلٍ تام.. أدركت أمل بفطنتها أن هذا الكهل والد أمجد وأن هاتين السيدتين المكلومتين أمه وأخته، كما لاحظت أن مصافحة إيفلين لها ما هي إلا طريقة لإبداء الامتنان وإخبارها بوجوب رحيلها.

اعتدل أبو أمجد في جلسته واضعاً قدمه فوق الأخرى، علمت إيفلين أن هذه الوضعية في الجلوس تعني لدى المصريين التعالي على الطرف المقابل، ولكنها لم تبالٍ بمحاولات حماها في استفزازها، وفعلت مثله بحكم تعودها على الجلوس بنفس الطريقة فتراجعت تنورتها قليلاً، نظرت والدة

أمجد لزوجها لتتأكد أنه يغضُّ بصره، قالت لإيفلين بضجرٍ
بعد أن استعادت بالله:

- إنتي عارفة إن أمجد الله يرحمه اتجوزك من ورانا!

قالت إيفلين بلهجةٍ حاولت أن تجعلها سليمةً تمامًا
دون وقوفٍ في وسط الكلام مع ضبط مخارج الحروف أنها
تزوجته أيضًا دون إعلام إهلها؛ فرقٌ كبيرٌ بين الزواج في السر
وبين اعتبار هذا القرار لا يخص سواهما. قال والد أمجد
بلهجةٍ أكثر عملية:

- على الورق إنتي وأمجد مش متجوزين؛ لأن طريقة
جوازكوا في إنجلترا مش معترف بيها في مصر.. يعني
إنتي في نظر الحكومة المصرية سائحة ألمانية مش
متجوزة.

ردّت إيفلين مستفهمةً عن كيفية بياتهما معًا في نفس
الغرفة بالفندق الذي نزلوا به في بداية إقامتها بمصر؛ برغم
أنها تعلم أن نظام الفنادق في مصر يمنع غير المتزوجين من
الإقامة بنفس الغرفة. نظرت لها أخت أمجد من أعلى إلى
أسفل؛ لم تكن خلقتها مليحةً كأخيها، وتذكرت إيفلين حين
رأت صورة عائلة أمجد في حافظة نقوده، فقالت له مازحةً
إنه أخذ حظه وحظها من جمال والديهما.. قالت لإيفلين
بلهجةٍ مُتهكمةٍ:

- عشان أخويا كان معاه جنسية أجنبية.. يعني كانوا بيتعاملوا معاكوا على إنكوا متصاحبين.

بدا عدم الفهم على أم أمجد فهمست لها ابنتها ببضع كلمات علّقت عليها الأم مُستعيذةً بالله، قالت لإيفلين بحدّةٍ وهي تضبط من وضع حجابها أن تستعد لإجراء تحليل DNA في حالة اكتشاف حدوث حمل؛ حتى تتأكد أن الولد الآتي سيكون حفيدها من صلب ولدها.. حاولت إيفلين كبح جماح غضبها، ولكنها قالت بصوتٍ عالٍ إنها اتفقت مع أمجد على تأجيل الإنجاب، ومن الجيد أنها فعلت، أشارت إلى خاتم الزواج المستقر حول بنصرها الأيسر وقالت ببطء إنها ليست عاهرة!.. كادت أخت أمجد أن تدخل معها في جدالٍ حول معتقداتها المفتحة تجاه الجنس قبل الزواج، وعدم إيمانها بنفس دين زوجها، ولكن قاطع أفكارها قَوْلُ أبيها:

- ما حدّش قال كده يا بنتي.. بس إنتي هنا لوحدهك...

قاطعته ابنته قائلةً إنها مجرد أجنبية في مصر، ليست حاضنةً لطفلٍ حتى تحمل الجنسية المصرية؛ أي أن إقامتها ستنتهي قريبًا.. لم تدرِ إيفلين ماذا تقول؛ كان التيار قويًا ضدها، سمعت صوت جرس الباب فتوجّهت مسرعةً لتفتح للطارق الذي كان جُبران، لأول مرة في حياتها تبتسم في وجهه؛ رأت فيه طوق النجاة الذي قد ينقذها من أقارب زوجها

الراحل وسهام كلامهم. جلس جبران وحاول وضع قدمًا فوق الأخرى مواجهًا لأبي أمجد، ولكن بدانته منعته، فتدارك نفسه قبل أن يُصبح مظهره مُضحكًا، وقال:

- أنا ما حضرتش القعدة من أولها يا أستاذ عمّار.. بس خمّنت الي قولتوه للدكتورة..

حاولت أم أمجد استمالاته، سألته برفقٍ إن كان يُرضيه أن تأتي "خواجاية" تسرق تعب صديق عمره وشقاه في الغربة، ذكّرتَه بفضله عليه بعد أن كان عاطلاً لا يفعل شيئاً سوى الجلوس على المقاهي.

ثار جبران لدى سماعه الجملة الأخيرة وقال بصوتٍ لم يخلُ من حدّة:

- أنا ماليش كلام مع حضرتك وهارد على راجل بيتك..

ثم أردف مُوجهًا حديثه لعمّار:

- بص يا حاج.. صاحب عُمري لو كان موجود وسطنا مكانش هايرضى مراته تتعامل المعاملة دي، دكتورة إيفلين ليها فضل كبير في الفلوس الي ابنكوا عملها سواء برّه أو في مصر، ولحدّ آخر أيامه كان بياخذ رأيها في حالات عنده قدّامي.. حرام يكون ده جزاءها.

استهجنت أخت أمجد حديث جبران متسائلةً بحدّة أين الحرام في تطبيق شرع الله في المواريث.. ردّ جبران بهدوءٍ أنه

يحترم شرع الله، ولكن هذه الشقة من ممتلكات الدكتور
"إيف"، أردف قائلاً قبل أن يعترض أحدهم:

- أمجد الله يرحمه أول ما رجع من آخر سفريه إليه
قال لي أروح أسجّل الشقة باسم إيفلين بيع وشرا
بالتوكيل الي معايا.

ثم أخرج من جيبه ورقتين ومرّهما على الجميع قائلاً
إن الورقة الأولى صورة من التوكيل الذي كتبه أمجد له،
وأن الورقة الثانية صورة من عقد التمليك المكتوب باسم
إيف.. والوثيقتان مسجلتان في الشهر العقاري. أبدت إيفلين
دهشتها وقالت أم أمجد بعتاب:

- بتستغل التوكيل الي كان عاملوهلك عشان تدور
أملاكه وتوزع فلوسه على مزاجك يا قليل الأصل؟!
ردّ جبران بهدوء:

- أنا لو كده كنت كتبت باسمها كل حاجة.. أنا ماليش
مصلحة، وماعملتش حرف زيادة عن الي أمجد الله
يرحمه طلبه مني..

ثم نظر إلى عمّار، واستكمل حديثه قائلاً:

- بدليل إن العيادة لسه باسمه، وحضراتكم الي
هاتورثوها مع باقي الأملاك بشرع ربنا؛ الأم ليها التلت
والباقي للأب.

نهض الأب متعصبًا، أشار لأسرته بالقيام وقال ساخرًا:

- اشبعي بالشقة.. دي ما تجيش حاجة في الي كان مع
أمجد الله يرحمه.

عادت الأم للبكاء وتبعتهما الأخت بعد تماسكٍ ظاهري
أمام إيفلين، قال جبران وهو يصفح عمًا رغمًا عنه:

- اشبعوا إنتوا بالباقي من فلوسه، عشان هي مش
هاتشبع بالشقة بس.. أمجد الله يرحمه زي ما يكون كان
قلبه حاسس؛ خلّاني أكتب بوليصة تأمين على حياته لصالح
زوجته، أنا كنت معترض في الأول عشان قيمة الأقساط غالية
بس ماكنتش أقدر أرفض له طلب.

وقبل أن يُجادل عمًا قال جبران بهدوءٍ:

- ولحسن الحظ إن شركة التأمين أجنبية وفاتحة فرع
جديد في مصر.. يعني معترفة بجوازهم.

بدت على إيفلين الصدمة الممتزجة بالاطمئنان الناتج
عن شعورها بالنجاة، فأردف جبران مُلقياً قبلته الأخيرة
وحاسمًا الحرب لصالح زوجة صديقه ورب عمله أنه تلقى
تحويلًا بنكيًا منذ أسبوع من أمجد.. وقام بدوره بتحويل
الأموال لحساب شركة التأمين بقيمة أول قسط من البوليصة؛
البوليصة التي تبلغ قيمتها عشرة ملايين جنيه.

أمر عطوة خفره بإغلاقِ مُكبر الصوت الذي يتردد من خلاله القرآن ليرحلَ بواقِي المُعزِين والطحاوية من حديقة منزله حيث أقيم ثاني أيام العزاء، وأشار لفرحات بالبقاء قائلاً له إنه يُريد حضوره الكلام الذي سيقوله لزوجته يحيى؛ فهي لا تثقُ فيه ولا في ناجي.. فيجب حضور طرفٍ محايدٍ لتهدئة الأجواء.. سأل فرحات بصوتٍ هامسٍ:

- إنتوا قولتوا لها خبر إن أرض يحيى هاتخش كردون مباني؟

نهره عطوة قائلاً:

- إنت عايذني أقول لها إن الأرض كمان شهر هايبقى سعرها أضعاف دلوقتي عشان تمسك فيها؟!

لم يعلق فرحات كعادته حين يحتد عليه ابن عمه عطوة، لحق به مُتجهًا إلى بيت العائلة القديم المجاور لدوّار عطوة.. جلست مي ملاصقةً لأمها وجلس أمامها ناجي وبجواره فرحات، وظل عطوة واقفًا، قال بصوتٍ مرتفعٍ وبلهجةٍ حزينة:

- الطحاوية بيخلصوا.. وعيالي واحد مات عازب والتاني مدمن مراته رافعة عليه قضية حضانة والتالت ابن أمه يعني جدر مخوِّخ مش هايطلع زرعة نافعة،

مافيش حل غير إن ناجي يتجوز ويجيب حفيد طحاوي
متربي صح.

لم تعلق مي ولا أمها.. أمَّن فرحات على كلام عطوة
بإمءاءٍ من رأسه في حين طأطأ ناجي رأسه في الأرض.. ليُكمل
عطوة حديثه قائلاً:

- حسب شرع ربنا.. تركة يحيى هاتتقسم الربع لأبلة
مي والباقي لناجي أخو المرحوم.. وطبعًا ما يرضيش
ربنا إن أرض الطحاوية تروح للأغراب.
قالت مي بهدوءٍ:

- الأرض هاتفضل متأجرة للفلاحين يزرعوها زي ما يكون
يحيى الله يرحمه عايش، ويوم ما هابيع وعد مني
مش هابيع غير لناجي أو لحضرتك.

قال عطوة إن وعدها ليس عقدًا، ومن حقهم أن يضمنوا
حق حفيد الطحاوية الذي سيرث منصبه.. لا مفر من أن
تتزوج مي من ابن أخيه بعد انتهاء أشهر العدة.. صاحت
مي مُعترضةً على هذه الزيجة، قالت إنها تُفضل التسوُّل
على الزواج قسرًا. لكزتها أمها في ذراعها اعتراضًا على تصريحها
بإمكانية تنازلها عن الميراث، سألت فرحات إن كان يُرضيه
تحكُّم عطوة في مصير ابنتها.. علَّق فرحات بصوتٍ خافتٍ:
- الجواز لازم يتم باتفاق الطرفين من غير ضغط بفلوس
أو بغيره..

ثم عَقِب حين شعر بنظرات عطوة تحرقُ وجهه أن ناجي لا يعيبه شيء، وفيه الكثير من يحيى الله يرحمه.. علاوة على أن ناجي أكثر مألًا وأصغر سنًا من يحيى. استمر اعتراضُ مي بعباراتٍ تخللتها بعضُ الألفاظ الجارحة في حق ناجي الذي يصغرها بحوالي خمس سنوات، تظاهر رجالُ الطحاوية بأنهم لم يسمعوها، حتى أسكتتها الأم بصعوبةٍ بعد أن وضعت يدها داخل فمها تقريبًا.. وقالت لعطوة بدبلوماسيةٍ أن يُعطي ابنتها مهلةً للتفكير؛ فدم يحيى لم يبرد بعد! ردَّ عطوة بحزمٍ أن أمامها أسبوعًا للتفكير، طلب منها أن توَعِّي ابنتها لمصلحتها، أردف بلهجةٍ تهديد:

- لولا إننا بنزاعي شرع ربنا كُنا خليناها تطلع من غير فلوس ولا جواز، ولو ما تعرفيش اللي حصل لنرجس بنت أختي...

أطلقت فجأةً أم مي صرخةً مُدويةً، وسقطت ابنتها مغشىً عليها.. اتسعت عينا ناجي وسقط قلبه في يده، في حين كاد قلب فرحات أن يتوقف!.. شعر عطوة بيدٍ غليظةٍ تُحکم قبضتها على كتفه، وصوتٍ مبحوحٍ يقول:

- وزَّعت فلوسي وجوَّزت مراتي لأخويا.. كَمَل كَمَل!

كاد فرحات يتحدث، ولكن يحيى أخرسه قائلاً:

- ده إنتوا كتر خيركوا إنكوا ما بيعتوش جتتي!

فزع الجميعُ من منظر يحيى؛ فقد كان حافي القدمين
مُرتدياً جلباباً شديدَ القذارة.. تغيّرت هيئته كثيراً عما
عرفوه؛ ابيضّ جزءٌ من شعر رأسه، كما بُحَّ صوته وفقد
وزناً واكتسب هالةً مُفزعةً جعلتهم يخشونه كالموت.. ألقى
نظرةً حانقةً على ناجي دون أن يتكلم، وأكمل حديثه قائلاً
بصوتٍ عالٍ:

- اطلعوا بره كلكوا.. يحيى الطحاوي ما ماتش!

لم يقوَ أحدُهم على معارضته، حتى والدة مي تركت
ابنتها الغائبة عن الوعي وراحت تركزُ قدر استطاعتها
خلف عطوة وفرحات، تمهّل ناجي وكاد أن يقول شيئاً لولا
إشارة حازمة من يد يحيى جعلته يلحق بالباقيين ويُغلق
الباب خلفه. لم يندهش يحيى من طاعتهم العمياء، كان
يعرفُ أن الموقف صعب التصديق وأن هيئته البشعة
ومنظره أكسباه هيبةً لم يتميز بها طيلة حياته.. نظر إلي
ميّ وعرج نحوها بخطواتٍ قليلةٍ يجرُّ قدمه اليسرى، وقبل
أن يوقظها انهار مغشياً عليه ليحدث سقوطه صوتاً عالياً
تردد صداه على المدى البعيد، غاب في غفوةٍ طويلةٍ، لم يدرِ
أنه سلب أهل طحا النوم؛ بعد أن وجدوا في قصة عودته
مجالاً للحكايات التي ستملاً فراغ الحديث بمجالسهم لسنين
قادمة.

نَصْرٌ بِلَا غَنَائِمٍ

الأحد 26 فبراير 2006

غزت أشعة المصباح الكهربائي البيضاء قرنية عيني حين فتحت لها أبواب جفوني بعد نومٍ هادئٍ بلا أحلامٍ؛ كعادي بعد الحادثة التي مضى عليها أسبوعان. نظرتُ إلى العمود الحديدي الصدئ الذي ظلَّت تُعَلِّقُ عليه المحاليل المتصلة بجسدي لمدة أسبوع، كانت ضروريةً لإعادة الدورة الدموية إلى قدمي التي تخثَّرَ الدم فيها؛ لم أعرف إن كان التجلُّط قد حدث بفضل تركيبة إيفلين أم بسبب التجربة المُفزعَة التي مررتُ بها.. تبيَّنت من خلال نافذة الغرفة أننا في حُقبة غروب الشمس؛ كان يومي دهرًا طوال أسبوعين لم أغادر فيهما فراشي إلا متوكِّئًا نحو دورة المياه، لاحظت بجوار النافذة شرخًا شديد الاتساع.. حين أستعيد قواي سأرمم المنزل مهما كلفني من مال.

لم ترحل رائحةُ أبي معه عن هذه الغرفة؛ طالما تخيلته طفلاً نائماً فوق هذا السرير، تأتيه أمه لتوقظه كي يذهب إلى المدرسة، أراه صبيّاً يُخفي ثيابه المتسخة من لعب الكرة خلف خزانة الملابس حتى لا توبخه فرحة، يتجسد لي غلاماً يُذاكر دروسه على ضوء مصباح الجاز ذي الرائحة النفاذة والصوت المزعج بلا تشجيعٍ من أسرةٍ قرويةٍ لم تُدرك أهمية التعليم، أتذكر ما حكته لي فرحة حين كان شاباً يُعد حقيبة ملابسه مُتوجّهاً إلى حي الحسين حيث سيُقيم ليُكمل دراسته الجامعية.. أخبرتني أنه بكى بين أحضانها كما لم يفعل من قبل؛ أدركته ضعيفاً خارج وطنه الأصلي الكائن بين ذراعيها. قصّت عليّ يوم إعلان نتيجة الثانوية العامة وقراره بأن يُصبح مهندساً، وقتها صعد أخوه عطوة إلى سطح المنزل وظلّ يبكي حاله يومين مُتصلين؛ فهو لم يتم دراسته بعد الإعدادية، لم يهدأ حتى حصل على وعدٍ من أبيه بأن يعهد له بالعمودية من بعده، استعدتُ حديث فرحة عن ندمها حين عارضت طلب أبي بالزواج من أمي "المصراوية".. كانت فكرتها عن بنات القاهرة مستوحاةً من الأفلام العربية وقتئذٍ؛ فتصوّرتهم جميعاً في هيئةٍ جامحةٍ تبحث بدأب عن أي رجلٍ يمتلك المال لترمي نفسها بين أحضانه.. ليتها كرّرت ذلك الرفض حين صارحتها برغبتني في الزواج من مي.

أتمنى أن أجتمع بالراحلين ولو خمس دقائق ثم أموت بعدها؛ سأكافئ عيني برؤياهم وقلبي بعناقهم وأشبع وروحي من نقاء أرواحهم، سأسألهم...

- إنت بتعيط ولا إيه؟!

اعتدلتُ في جلستي حين دخلت مي الغرفة مُقتمحة معها خواطري، كانت تحملُ بحرصٍ صينيةً كبيرةً استقرت عليها ثلاثة أطباق من الطعام، لم أسترد شهيتي تجاه الأكل بعد، ولكنه بالنسبة لي كان ضروريًا كالدواء لأستردَّ عافيتي ووزني الذي فقدته بشكلٍ مريبٍ وقت الحادثة.. نظرتُ إلى مي نافيًا بكائي، بررتُ دموعي بألمٍ أصاب عيني، قلتُ بلهجةٍ أمرّةٍ مُغيرًا الموضوع:

- وبعد كده لما تشوفيني نايم ابقني إطفي النور!

أبدت تعجبها من أوامري، ذكّرتني بمشاجراتي معها قبل حادثة الدفن؛ حين كانت تُطفئ أنوار الغرفة.. أجبتُها بتلقائيةٍ أنني كنتُ أخشى النوم في الظلام، لكنني عرفت أن ثمة ظلماتٍ أشد.. سألتني بفرعٍ:

- قصدك ضلمة القبر؟!

- الضلمة اللي جوايا أكبر.

- كنت فاكرة إني عارفك كويس يا يحيى.

أشحتُ بوجهي دون أن أعتزّ.. مرّت دقيقة من الصمت
الحرج.. نظرت إلى صورة أبي وأمي المعلقة في الغرفة، وقالت:

- كان نفسك تودّعهم بشكل أحسن من كده؟!!

قلتُ مُغيراً الموضوع:

- سبانخ تاني يا مي؟

سألتنى عن صحتي.. أجبتهما بصدقٍ أن وجع قدمي قلّ
كثيراً عما سبق، وشعور باقتراب الشفاء يُراودني، أردفتُ
مقترحاً النزول لتناول الطعام معاً في البهو.. بدا عليها الفزعُ
وأخبرتني بضرورة راحتي.. تناولتُ طعامي في صمتٍ، طلبتُ
منها أن تَأْكَلَ معي ولكنها أبّت، لم أخبرها أن آخر لقاء لي
مع أبي لم يكن داخل السيارة التي انقلبت مثل أمي؛ فقد
لامستُ عظامه داخل كفنه المهترئ حين نجحت عملية
إنعاشي وارتجفتُ بشدةٍ داخل قبوري، أثبتت التركيبة الثانية
نجاحها؛ استعدتُ شعوري بأطرافي وبدأتُ أدخلُ في نوبة
هلعٍ تأخرت كثيراً؛ انتابت جسدي انتفاضةٌ هائلةٌ أقوى من
المعتاد؛ كأنها تُطهرني من الداخل مودعةً جسدي، اخشوشن
بعدها شعري وسمعت صوت طقطقته المنخفض، شعرت
بقسماتٍ وجهي وأساريه تزداد صلابة، بدأتُ أشعر بألمٍ في
كافة جسدي خاصةً فقرات ظهري، قلّ إحساسي بقدمي
اليسرى.. نزعْتُ الكفن لتزداد نفاذية الرائحة البشعة داخل
أنفي حاولتُ الزحف نحو باب القبر مُتذكراً اتجاه دخولي..

اصطكت يدي بكومةٍ من عظام الأولين الملتفة بأقمشة
أكفنة قديمةٍ باليةٍ، والتي علمتُ أن عظام أبي وسطها حين
سمعت سلامة يُخبر رزق أن من حسن حظي- كشيخٍ
ميت- أن تربة أبي لم تُفتح منذ شهور وأني سأدفن بجواره.
شعرتُ باشمزازٍ قوي ولكن رغبة البقاء كانت أقوى..
يئسْتُ من الحركة التي أدركت أنها لن تزيدني إلا فزعًا،
شعرتُ بوجود منفذٍ صغير الحجم عند فتحة اللحد حين
تسرَّب منه الهواء البارد، لم أتبين موقعه تحديدًا فاستنتجت
أن الليل قد أغشى، وأدركت أن الحكمة تقتضي ألا أهدر
طاقتي في صراخٍ لن يسمعه النائمون.. وحتى إن سمعوه لن
يفتحوا المقابر ليلاً وسيظنون أنني شيطان يُريد الخروج
ليعيث في حيواتهم فسادًا، قرَّرت انتظار النهار ولكن الليل
أبي أن ينجلي قبل أن يفاجئني..

سمعت صوت خطواتٍ مُتسللةٍ في الخارج، فكَّرت أن
أهتف بعلو صوتي، ولكنني خفتُ أن أفزع السائر؛ فيصير
لحدي منطقةً محظورةً ولا أستطيع الخروج صباحًا. سمعتُ
دقاتٍ خفيفةً على باب القبر وصوت خدش لطبقة الأسمنت
الرقيقة المغلفة لحواف الباب الصغير، اقتحمتني فجأةً لفحةٌ
من الهواء البارد؛ تبعها دخولُ نبَّاش القبور الذي لم يُضع
وقته مُستعيدًا بالله بصوتٍ خفيضٍ وبدأ يعبث في كفني..
تحركتُ مُفاجئًا له وأخبرته بسرعةٍ أنني ما زلتُ حيًّا؛ لا
أسعى لإيذائه ولا أريدُ إلا الخروج.. انتفض مُترجعًا وراح

يستعيد بالله، ركض سريعًا لأسمع صوت دوران مُحرك سيارة.. زحفتُ حتى خرجتُ من القبر بهدوءٍ، حاولت أن أستر جسدي بثوب الكفن ولكنه كان يسقط رغماً عني؛ لم يكن لديّ من الأعصاب ما يُساعدني على الإمساك به، صممتُ على التحرك على الرغم من غياب شعوري بشقي الأيسر كله، سائرًا عورتي بيمنائي وامتسترتُ بظلام الليل. كان قفل الحوش مفتوحًا دون آثار كسر؛ يبدو أن هذا النَّبَّاش يعرف ما يفعله جيدًا ولا يُريد لأحد اكتشاف جريمته. خرجتُ إلى العراء، أردتُ الوصول إلى المسجد حيث ينام رفعت.. أثناء مسيري لمحت رزق المعتوه يسير فناديته بصوتٍ خفيضٍ كي لا يفزع، أقبل مُسرعًا وأبدي سعادته لعودتي، لم يخف ولم يندهش ولم يُطل السؤال، أخرج جلابًا قذرًا من الكيس الأسود البلاستيكي الذي يحمله دومًا، ألبسني الجلاب- الذي لم أملك الرفاهية للاشمئزاز من رائحته المفعمة بنسائم العرق والرَّوث- دون كلمةٍ إضافيةٍ.. طلب مني أن أتكى عليه، اصطحبنني مُتجهين إلى البيت حتى لا أموت بردًا.

علمتُ فيما بعد أن ناجي وعطوة وفرحات سمعوا صوت سقوطي أثناء هروبهم من الحالة المشوهة التي كنتُ عليها، عادوا إليّ مُصطحبين طبيبًا عمل على إسعافي ومداوتي؛ علّق المحاليل وكتب لي على أكثر من دواء، قال إنني سأحتاج وقتًا كي أسيرَ على قدمي اليسرى بشكلٍ طبيعي.. لم يسأل كثيرًا؛ ولم يملك أي من الحاضرين الإجابة.

أنهيتُ طعامي دون أن أتذوقه، بيد أنني تخيلتُ طعمه الرديء كما اعتدته من مي.. كنت أمازحها في بداية الزواج مُعلِّقًا أنني لن أُسمِّي الله قبل تناول طعامها؛ حتى يموت الشيطان مسمومًا. نهضت سريعًا مفاجئًا مي بخفة حركتي، توجهت للاغتسال بمفردي، لم أغتسل بالماء الدافئ على الرغم من برودة الجو، نظرتُ إلى مرآة الحمام لأطالع المسخ الذي صرتُ عليه؛ فقدت الكثير من وزني وبزغ السواد والتجاعيد حول عيني التي جحظت مقلتها فأصبحت أكثر بروزًا، كما اكتسبتُ سمرةً شاحبةً وبخَّ صوتي، وشاب شعري من عند الفودين واخشوشن قليلًا، كما طالت لحظاتُ سرحاني وزاغ بصري قليلًا.

أقامت مي في الغرفة السفلية التي كانت تُقيم بها نرجس قبل أن يسجنها عطوة، كانت تزورها أمها وزوجة عمي بشكلٍ شبه يومي لمساعدتها في الاعتناء بي.. طرقتُ باب الغرفة لأجدها جالسةً بكامل ملابسها على أحد المقاعد اقتربت منها وانحيتُ برأسي مُستهدفًا تقبيلها على وجنتها؛ فأبعدت رأسها عني في فزعٍ.. كررتُ مُحاولتي فكررتُ رفضها الناعم لمُلاطفتها، قلتُ بهدوءٍ إن ما كنتُ أخشاه قد حدث.. نظرتُ مُستفهمةً.. قلتُ لها بحسرةٍ:

- إنني اتغيرتي يا مي؛ بطلتي تقعدي معايًا، بطلتي تترتاحي على كتفي، بطلتي حتى تكلميني.

ردت مي باستنكارٍ أنها ترد عليّ حين أحادثها.. قلتُ لها:

- ردك عليّ مش اهتمام.. إنتي طول عمرك بتيجي تنكشيني وبترغي معايا في سيرة الخلق.. حتى لو كنت راجع من برّه تعبان ومش شايف قدامي.

اعتدلت مي قائلّةً بلهجةٍ جادةٍ إنها لا تُصدق عودتي، وأن عقلها تمت برمجته على أنها صارت أرملة، أردفتُ مُمسكّةً رأسها في حيرةٍ أن جميع الناس- باستثناءها- صدّقوا نبأ عودتي؛ فعلى مدار أسبوعين كانوا يدورون القرية مُرددين حكايتي، أو شكّت على البكاء حين قالت إنها لا تُصدق وجودي؛ فزوجها الذي دخل القبر ليس نفس الشخص الذي خرج منه!.. قلتُ وأنا أهزُّ كتفيّ:

- إحساسك ده طبيعي، والتجربة اللي مريت بيها مش سهلة عشان ما تغيرنيش.

- مش دي المشكلة.. أنا حاسّاك غريب، ومش هاقلع الأسود عليك، ولو حدّ ما يعرفنيش قال لي يا مدام هاقول له إني أرملة!

سألتهَا مُتهكّمًا إن كانت تظنني غريبًا، وأن جلوسنا تحت نفس السقف وحدنا حرام.. نفت ادعائيّ بهدوءٍ، قالت دون

أن تنظر في عيني إنها ليست ناشزاً؛ فلن ترفض معاشرتي إن
أصررتُ عليها.. صحتُ فيها بغضبٍ صادقٍ:

- مش هاترفضييني؟!.. بأمارة ما إنتي قاعدة مع جوزك
بالحجاب!

نظرت لي نظرةً طويلةً صامتةً، فجذبتُ حقيبة ملابسها
وفتحتها، صحتُ بلهجةٍ مقتضبةٍ:

- لمي هدومك وحُطي حجابك في شنطتك، أنا هاتصل
بناجي يبجي يوصلك لأمك.. والصبح هاخليه يمشي في
ورق طلاقك.

أردفتُ بصوتٍ عالٍ:

- كابوسك خلص يا مي.. أنا ما رضاش ليكي تعاشري
راجل غريب!

انتظرتُ حتى انتصف الليل، توجَّهتُ إلى المطبخ ورحتُ
أعد طعاماً كما اعتدتُ أن أفعل منذ يومين دون أن أخبر
مي؛ سخَّنتُ رغيفين من الخبز واضعاً بأولهما قطعتين من
اللحم المسلوقة.. وفردتُ فوق الثاني بعضاً من الجبن، وجدتُ
في الثلاجة طاجن "أم علي" فأخرجته لأضعه مع الرغيفين
داخل كيسٍ شفافٍ. ارتديتُ جلاب أبيضاً مغلماً جميع أزراره،

سرتُ أنتشق هواء طحا الذي اكتشفت روعته مؤخرًا، لم يطل بحثي عن رزق المعتوه كعادتي حين أحواجه فأجده سريعًا.. جلس هذه المرة مستندًا إلى عمودٍ كهربائي لا يُضيء إلا نهارًا لحكمةٍ لا يعلمها أحد.. لم نتبادل الحديث كعادتنا، أعطيته الكيس ففتحه مُلتهمًا محتوياته بنهمٍ جمٍّ، فرغ من طعامه نظر لي وقال بلهجته البسيطة المتقطعة اللدغاء في أكثر من حرفٍ:

- بس مش غريب اللي بتعمله معايا ده يا أستاذ يحيى؟

- إيه اللي غريب يا رزق؟

- طول عمرك مش شايفني؛ زيك زي أهل البلد.. وحتى لو سلمت عليك كنت تدور وشك الناحية الثانية.. دلوقتي بقالك كام يوم بتنزل تقعد معايا وعامل لي أكل مخصوص، وساعات بتاكل معايا كمان!

- عشان إنت الوحيد فيهم اللي متقبلني يا رزق.. أنت الوحيد اللي شافني خارج من تربتي عريان ومخافش!

أشاح بنظره بعيدًا، وقال لي دون أن ينظر في عيني:

- أنا عارف أصلك كويس، وعارف إن يحيى اللي طلع من القبر أحسن بكتير من اللي دخله.

قلتُ في حيرةٍ:

- طب أخلي الناس تشوفني زيك كده إزاي؟.. دول بقوا
بيخافوا يعدُّوا من جنب البيت، حتى مراتي وأهلي
خايفين مني.. وأخويا بيتعامل معايا من بعيد مع إنه
أكثر واحد عارف الي حصل!

قال رزق بهدوء:

- ربنا إداني بصيرة مش عندهم؛ صحيح هو خد مني
فلوس وصحة وهيبة وحاجات كتير.. بس إداني الي
أهم منهم كلهم.

أردف مؤكداً أنني يجب أن أقوي بصيرتهم كي أستطيع
الحياة وسطهم.. أخبرته أنهم لن يروا إلا ما يريدون
رؤيته.. ردَّ بنفس لهجته التائهة أن الكذب هو الحل؛ يجب
أن أستعمي بصرهم. لم أصدق أن رزق من يحدثني بهذه
الطريقة، فكَّرت في كلامه قليلاً، لم أستوعب معظمه ولكنني لم
أعلق.. سمعت صوت أذان الفجر من المسجد القريب من
المقابر فقررت أن أذهب لأصلي مع رفعت.. طلب مني رزق
حين رأني أنهض من مجلسي أن أبلغ سلامه للشيخ صالح
الكفيف، وأبلغه أن صوته مليح في القرآن عكس الأذان؛
فليترك أذان الراديو.. قلتُ مقترحاً برفق:

- طب ما تيجي تصلي معايا وتقول له بنفسك!

أجاب رزق بضحكةٍ خفيفةٍ دون أن ينظر إلى عينيَّ
مباشرةً كعادته:

- أنا مسيحي يا أستاذ يحيى.

قلتُ مندهشاً:

- بس إنت عُمرِك ما قولت لحدِّ كده.

أجاب بتلقائيةٍ:

وإنت عُمرِك ما سألتني، ولا عُمرِك صليت الفجر حاضر..

تركني وسار في الاتجاه المعاكس لاتجاه المسجد؛ ناظرًا
للسماء يُحدثها، ضاحكًا مع نفسه بصوتٍ عالٍ وبكلامٍ كثيرٍ
غير مفهوم، هائمًا في ملكوته الخاص.

كعادة المسجد الصغير كان الحضورُ مقتصرًا على رفعت
والشيخ صالح وأحيانًا ما كان يأتي طالبٌ أو اثنان في أوقات
الامتحانات.. مال عليّ رفعت بعد أن ختمنا الصلاة بالسلام،
قال "تقبل الله".. أجبتة "منا ومنك بإذن الله"، دعوتُ بأن
نصلي الفجر جمعًا في الحرم.. ابتسم هامسًا بمرارةٍ أن أوانها
قد فات عليه، تعجَّب كيف فاتته فريضة الحج حين كان
بكامل صحته.. قلت له إن أوانها لم يفت بعد.. ردَّ بهدوءٍ:

- صدَّقني فات.. تيجي معايا التُّرب ولا لسه بتخاف؟

- هانجرب.. بس إيه هايودينا هناك الساعة دي؟!

- فيه شاب مات إمبارح العصر، هانروح نغرس له صَبَّار.

سرت بجوار رفعت الذي كان يعرجُ مُتَكِنًا على قدمه اليمنى، اقتربنا من المدافن؛ تعجبتُ من كوني لا أخشى منظر شواهد القبور كما كنتُ أشعر من قبل.. يبدو أن علاج أمجد قد نجح لدرجة شعوري بالتبُّد التام تجاه كل ما يتعلق بالموت، أمرني رفعت وهو ينظر أمامه أن أخبر عطوة بوجود إرسال المال للشيخ صالح بصورة شهرية؛ فالرجل يقتاتُ متعففًا على معونات الناس الأشبه بالصدقة.. والحكومة لا تصرفُ له راتبًا لأن المسجد غير مُقيد بوزارة الأوقاف.

سألته قائلاً:

- أmaal هو كان عايش إزاي قبل كده؟

- فرحة كانت بتبعت له فلوس عشان تكمِّل جميل أبوك عليه.. وعلى فكرة إنت كمان هاتفضل عايش في خير أبوك؛ يا تكمِّل خيره على الناس، يا تتمرمخ في تركة المحبة اللي سابها لك.

- أنا أعرف عن الشيخ صالح إنه كان أزهرى لحد ما مراته ماتت؛ فاعتزل الحياة واشتغل فقيه عشان يعرف

ياكل، لحدّ ما أبويا بنى الجامع وخلاه إمام فيه.. بس
معرفش اتعمى إزاي؟

ضحك رفعت وسألني إن كنتُ أعرف "وجيه الرشيدي"..
هزرتُ كتفِي كناية عن الجهل، فأردف قائلاً:

- ده كان وزير أيام عبد الناصر.. عيلة أمه كانت من
طحا، ويوم ما خاله مات الشيخ صالح فِرِح، لبس
الجلابية النضيفة وإستنى لما الجنازة انفُضت والوزير
راح مع الحرس بتوعه يقرأ الفاتحة على خاله..
عَقَّبْتُ قائلاً:

- كان حاطط عينه على وَهبة قراية محترمة؛ دي باضت
له في القفص...
ردّ رفعت ضاحكاً:

- هي باضت له، بس مش في القفص، الوزير جاله خبر
إقالته في التعديل الوزاري وهو في الطريق للمدافن..
الشيخ شاف الموكب بتاعه والفخامة اتربك ونسي
السورة اللي كان محضّرها، ماجاش في باله ساعتها غير
سورة آل عمران، اتحنح وبدأ التلاوة من أول السورة..
وأول ما وصل للآية اللي بتقول: "قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ
تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ" واحد
من الحرس خد باله ونبّه الوزير إنه ممكن يكون

قاصد يلقح عليه بالكلام.. عمك صالح يسكت؟ أبدأ
راح مكمل الآية وقايل: "وَتُعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ
تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" .. الوزير
برَّق وافتكر الشيخ صالح من إخواننا إياهم وشماتان
فيه عشان كان مرَّبِيّ دقنه، وعينك ما تشوف إلا النور..
الراجل حليف له بكل أيمانات المسلمين إنه مالوش في
السياسة وإن السورة دي هي اللي جت في باله، بس لا
حياة لمن تنادي..

ثم أردف ضاحكًا:

- للأمانة الوزير صدّقه بعدها.. بس على ما صدّقه كان
الحرس قاموا بالواجب.. كان فيهم واحد إيده قدك
كده، وتحسّسه كان واخذ أجازة مخصوص لقفنا الشيخ
صالح، فضل يضرب لحدّ الراجل ما أغمى عليه، صحي
لقى نور عنيه اتقطع.

ضحك يحيى كثيرًا، وقال لرفعت:

- بس الناس بتموت كثير ليه اليومين دول، ده المغسل
والترابي زمانهم بقوا أغنى من عطوة.

قال رفعت بجديّة:

- ما سألتش يعني مين اللي مات!

أجبتُ بصدقٍ:

- يعني أبويا وأمي ماتوا، وفرحة راحت لربها، وأنا نفسي اتدفنت وطلعت.. فكرك هايفرق معايا حدّ؟!

هزّ رفعت رأسه نافيًا بحسرة، قال إنني أبدو كالأحياء؛ ولكن الحقيقة أنني ما زلت موءودًا داخل قبرٍ بداخلي.. قبرٍ صنعته بنفسى.. ولن يخرجني منه أحدٌ سواي. وصلنا إلى القبر المنشود، ثبتنا الصبار الذي أحضرناه معنا في علبة سمن من الصفيح الصديء، روينا الصبار بقدرٍ مناسبٍ من المياها.. سألت رفعت بفضولٍ عن هوية المتوفي.. ردّ وهو يتأكد من تثبيت الصبار بحرصٍ:

- عارف أيمن القهوجي؟

هزرتُ رأسي قائلاً بزفرةٍ صغيرة:

- أيوه اللي كان واخذ صندوق نذور الجامع دايمًا لحسابه؛ مرة يقول بنجّهز بنت من بنات البلد، ومرة يقول هانبني جامع جديد.. وفي الآخر طلع بيصرفه على نفسه.. يلا الله يرحمه.

قال رفعت موضحًا:

- مش هو اللي مات.. أيمن خلّف عيّل لما كنت إنت لسّه داخل جامعة.. فاكراه؟

قلت مُسرعًا:

- آه يحيى.. ما له؟

ذكَرني رفعت بهدوء أنه أسماه على اسمي.. أومأت برأسي مُتذكراً حين وُلِدَ الصبي ابن السبعة أشهر وسعى أبوه لوضعه في حضانة أطفال بأي مستشفى حكومي، جئته من القاهرة حين عرفتُ وذهبتُ معه إلى أكثر من مستشفى قريبة، وحين لم يوتِ سعيًا ثماره المرجوة طلبتُ من فرحة أن تسمح لي ببيع قطعة صغيرة من الأرض التي ورثتها كي يدخل حضانة في مستشفى استثماري.. لم أعرف حتى اليوم الدافع الذي جعلني أقوم بكل هذه التصرفات. قال رفعت بحزن:

- فإكر إنك جيت لي يومها وأنت فرحان، وقلت لي إن فرحة إديتك الفلوس وهاتخصمهم من مصروفك على كذا شهر؛ عشان الثواب يبقى بتاعك.. والراجل سمى ابنه على اسمك. اللي ما تعرفوش بعدها إن فرحة قالت لعطوة يتوسط ليحيى الصغير عشان يدخل الكلية الحربية..

توجَّهنا إلى المسجد عائدين، أردف جدي قائلاً بحزن:

- زمايله اللي جم بجثته إنهاردة قالوا لأبوه إنه كان بيتدرب على القفز بالمظلات، فتح باب الطائرة ونط، جه يفتح البراشوت...

- ما فتحش.

- شوفت بسيطة إزاي يا يحيى؟.. غلطة بتحصل مرة كل كام سنة ومعمول لها احتياطات كتير.. بس قدر ربنا.

شعرتُ أن رفعت قصد اصطحابي خصيصةً ليوقظ ذلك الجزء الآدمي بداخلي، وليذكرني بما كنتُ عليه قديمًا برغم معاناتي.. سألني بجديّةٍ عمّا أنتوي فعله في المستقبل.. سألته باستنكارٍ عن أي مستقبلٍ يتحدث؛ الناس تخاف الاقتراب مني كأنني الموت، لا أستطيع التعامل مع أحد سوى رزق المعتوه، حتى الشيخ صالح شعرتُ بارتعاش يده اليوم حين صافحته بعد الصلاة. قال رفعت بهدوءٍ:

- يا تنوّر عقولهم بالحقيقة يا تكذب عليهم.. الحل الثاني غلط بس سهل ومضمون.. شوف هُما عايزين يشوفوك إزاي واعمله.

علّقت قائلاً بحزنٍ:

- أنا خرجت لاقيت نفسي في تربة أكبر من الي كنت فيها، ربنا إداني فرصة أعيش من جديد.. بس الناس رافضة تديها لي!

سألته متوسلاً أن يعودَ ليعيشَ برفقتي في البيت؛ بدلاً من حياة كل منا وحيداً.. أجب بهدوءٍ أن هذا القرار أيضاً أوانه فات. لم أتمالك نفسي، صحت فيه ثائراً أنه من اختار

هذه الحياة بلا سببٍ واضحٍ؛ فشخصٍ مثله لا يزال يفقد لصحبة الناس ويتألم لِموتهم.. يشتهي الطعام ويتفقد أفراد عائلته من بعيد، سألته عمًا أوصله لهذه المرحلة.. كرر قائلاً بنفس هدوئه إن أوان العودة قد فات.. أمسكته من ياقة جلبابه لأول مرة في حياتي، صحتُ فيه بصوتٍ تردد صده في الفراغ حولنا قائلاً:

- يا جدع حرام عليك بقى أنا محتاجك جنبى.. أنا ساعات باحس إنك ميت زي الجثث الي إنت دافن نفسك بالحيا في وسطهم!

أمسك يدي بشدةٍ وأنزلها؛ لم أعتقد أنه لا يزال محتفظًا بهذه القوة حتى هذه السن، قال مُبتسمًا:

- أنا عمري ما هاسيبك.. ولو فيه سبب مخليني لسه عايش فهو أنت!

قبّلت رأسه مُعتذرًا، عدّلت من وضع جلبابه وقبل أن أطلب السماح منه رنَّ هاتفي؛ كان الرقم غير مُسجل لديّ اندهشت من اتصاله في هذا الموعد المتأخر، أجبتُ مستفهمًا ليأتيني الرد من الجهة الأخرى صادرًا من صوتٍ أنثوي وبلهجةٍ شبه عربيةٍ قائلاً:

- أستاذ يحيى، أنا دكتور إيفلين مرات أمجد..

أجبتها بهدوءٍ معتذراً عن عدم حضوري العزاء.. أبدت
تفهماً لموقفي ولوضعي الحالي، أخبرتني أنها أتت برقمي
من جبران، أبلغتني بخوفٍ شديدٍ أنها آسفةٌ على ما حدث..
سألتها بقلقٍ عما تعتذرُ.. أجابت بلهجةٍ مُقتضبةٍ:

- النسناس مات.

الإثنين 27 فبراير 2006

على غير المألوف؛ اجتمع خفر عطوة جالسين حول رزق الذي ارتشف رشفةً كبيرةً من كوب الشاي "الخمسينة"، تمهّل في الشرب منتشياً بنكهة الشاي الثقيل الممتزجة برائحة الفحم الذي سُخِّن فوقه البرّاد، مُستمتعاً بهالةٍ من الأهمية التي اكتسبها مؤخراً بعد أن أصبح الشاهد الوحيد على عودة يحيى.. تلك الهالة التي ترجمتها نظرات الشغف والفضول في أعين الجالسين حوله، على الرغم من كونه يحكي نفس الكلام بنفس الأسلوب ولنفس الأشخاص للمرة العاشرة تقريباً.. اعتدل في جلسته على "الدكة" الخاصة بالخفر التي طالما جلس أسفلها كي يرص فحم النجيلية التي يشربها الخفر، أكمل حديثه بلهجته الغريبة:

- أنا لمحت أستاذ يحيى خارج من التربة زحف، خُفت
أقرب منه في الأول، بس حسيته تايه، كان شكله أطول
من الحقيقة، وعنيه كان فيها لمعان غريب، وأنا بلبسه
الجلابية اللي كانت معايا حسيت جسمه سُخن مع إن
الجو كان تلج.

سأله أحد الخفر بلهفة هل تبادل يحيى الحديث معه..
نظر له رزق بهدوءٍ وسحب رشفةً طويلةً حتى مسَّ التفل
شفتيه وقال:

- سألته لو محتاج حاجة.. بص لي باستغراب زي ما يكون
مش عارفني، ناديته باسمه عينيه اضيقت وحسيته
ابتدا يفتكرني، وفجأة مسك دماغه جامد وكان هايقع
من طوله فسنده، اتعكز عليًا ومشينا، كنت مرعوب
وبترعش بس حسيت إنه مش هيقدر يئذيني ولا حتى
يئذي نفسه.. وفجأة مسك رقبتني وكان هايخنقني وقال
كلام غريب مافهمتوش!

شهق الجميع في خوفٍ، على الرغم من أنهم سمعوا
نفس القصة، وعلى الرغم من أن رزق يغير في تفاصيلها كل
مرة عن غير قصدٍ منه؛ فيضيف حدثًا ويقتطع آخر، أردف
قائلًا:

- أول ما بدأ يتكلم سألني عن الست فرحة الله يرحمها،
ما رديتش عليه، بعد كده سألني عن أموات الطحاوية

واحد واحد، قولت له إن الحاج عطوة وأستاذ ناجي
مستنينيه في الدوّار القديم، وصّلته لحد هناك وسييته
يدخل لهم، بعد كده كل اللي في البيت طلّعوا يجروا
ويصرخوا!

قال أحدهم، والذي كان موجودًا مع عطوة يوم إعلان
الوفاة، طارحًا سؤاله على الجميع:

- بس إزاي طلّع عايش ويوم الغسل كان قاطع النَّفس!
والدكتور صاحبه ده كشف عليه وأكّد لنا إنه ميت؟
أضاف زميله الذي كان يتوق لمشاهدة المباراة معلقًا:

- والهانوتي ما لاحظش إنه فيه الروح لسه، ولا حتى عم
سلامة التربي!

بدأ وعيهم كلهم يتفق بطريقةٍ غير مباشرةٍ.. حتى خرج
شيخُ الخفر الذي كان جالسًا وسطهم بالاستنتاج الذي كان
دفعهم إليه كلام رزق دفعًا:

- أستاذ يحيى يا إما ملبوس يا إما ولي من أولياء الله
الصالحين!

قال أحدهم مصححًا:

- اسمه الشيخ يحيى..

ثم أردف مُفسرًا:

- أنا شوفته إمبراح في زاوية الشيخ صالح، هو فيه
ملبوس بيصلي الفجر؟!!

خرجت إيفلين من بوابة العقار مُسرعة، تلفتت حولها
حتى لَمَحْتَنِي أَلُوْح لها من نافذة سيارتي المتهالكة، فتحت
الباب وجلست دون تحية، كررت اعتذارها حتى مللته،
شرحت لي تفاصيل التجربة باستفاضة، والنجاح المؤقت
للتركيبتين الذي ظهر على النسناس حين تم إنعاشه بنجاح
صباح يوم تنفيذ التجربة؛ الأمر الذي شجّع أمجد لتطبيق
التجربة علي.. على الرغم من عدم موافقتها وتخوفها من
حدوث أعراض جانبية فيما بعد. وقد حدث ما كانت
تخشاه؛ فبعد فترة بدأت وظائف النسناس الجسدية في
الاختلال، وتدهورت صحته سريعاً، تراجعت كفاءته الحركية
وزاد معدل النبض لديه وفقد الكثير من وزنه في مدة قصيرة،
حتى انهار نظامه كلياً مُعلنًا انسحابه من عالم الأحياء.

حاولتُ أن أخفي الفزع الذي اخترقني كجيشٍ قوي
يُهاجم قلعةً غير حصينة.. لم يكن شعوري بالهلع من
الموت كالذي كان يُراودني قبل التجربة؛ ولكنه كان خوفًا
من انتهاء الأجل وأنا على غير استعدادٍ دون أن أنجز شيئاً
في حياتي، خاصة حين أعادت لي التجربة الأمل.. حاولتُ
تغيير الموضوع فعزّيتها في أمجد مُعتذراً عن التأخير فتقبّلت

عذري لعلمها بظروف حادثتي، سألتني عن نتائج التجربة فأخبرتها باقتضاب أنها كانت جيدة دون أن أخوض في أي تفاصيل مؤلمة.. تفهّمت الأمر ولم تلح في الاستفسار، قدتُ هائمًا في الشوارع التي نام معظم أهلها، أخبرتها بضحكةٍ مفتعلةٍ عن رغبتني في دعوتها لتناول أي مشروب يُهدئ من توتر الموقف.. وافقت بعد تفكيرٍ تعجّبت من النشاط والحركة في حي الحسين حتى هذه الساعة المتأخرة؛ كانت تعلم أن القاهرة لا تنام، ولكنها لم تتصور أن الوضع في الحسين بهذه الحيوية.. أزحتُ كرسي من كراسي مقهى "الفيشاوي" لأجلسها فوقه بحركةٍ لبقةٍ.. استنكرتها عكس ما توقعت.. طلبتُ برّاد شاي خَرَز بالنعناع وطلبت هي عصير ليمون مثلج. اقترب أحد الشباب الذين يتاجرون في التحف "الخرتية" فألقى عليّ تحيته بالعربية وقال لإيفلين بلباقةٍ مصطنعةٍ وبابتسامةٍ جملته الافتتاحية الشهيرة بلهجةٍ رديئةٍ:

Egyptian handmade souvenir?.. It's the best! -

ردّت عليه إيفلين بعاميةٍ جيدةٍ:

- لو عارف أسامي التماثيل اللي بتبيعها هانفَعك!

تجاوز الشاب دهشته، وراح يشرح لها اسم وقصة كل تمثال؛ انتقل من زوسر إلى خوفو ومن خوفو إلى أحْمَس ومن أحْمَس إلى حورس وأمه إيزيس.. بدا على إيفلين معرفتها بكل ما قال وثقافتها التاريخية التي أعتقد أنها تتجاوز

ثقافتني، ابتاعت منه تمثالين بعد فِصالٍ طويلٍ في السعر، رحل وهو يلعن تلك "الخواجية الأدارجية" وتركني وسط فاصلٍ من الضحك جعلني أتناسى ما مررتُ به.. سألتها وأنا أدفئ يديَّ بكوب الشاي متى تعلّمت كل هذا.. ردّت مُبتسمة وهي تناولني إناء السُّكر أن أمجد لم يصطحبها لمثل هذه الأماكن من قبل؛ فجميع جولاتهما كانت مقتصرةً على الأماكن الباهظة والمراكز التجارية، ولكنها كانت تقرأ وتُشاهد الكثير عن مصر، وموقف "الخرقي" هذا رآته مُمثلاً في مشهدٍ تلفزيوني من قبل.. أخذت منها السُّكر دون أن أستعمله، أخبرتني أنني لا أضع سُكر على المشروبات الساخنة؛ فقد ورثت هذه العادة من جدي رفعت.

تحدثنا كثيراً، كنتُ متلهفًا لصحبة آدميةٍ لا تخشاني ولا تُحدثني عن تجربتي الأليمة، اشتقت لعقل يُخاطب عقلي فلا يتوجس مني كالأقربين ولا يُعاملني بعقليات القرويين التي تهابني.. كانت آية في الجمال الشكلي والعقلي، لم أشعر بدفءٍ كهذا منذ أيام الجامعة؛ حين كنتُ أهيم بهريم كالمغفل.

سألته عن معنى كلمة "الصهبجية" التي كان يُدندنها عازف العود الجالس في بقعةٍ بارزةٍ من المقهى، فأخبرتها أنني أحب هذه الأغنية واهتممت في شبابي بمعرفة تاريخها؛ شرحتُ لها مُستفيضًا معاني كلماتها التي أبدعها صلاح جاهين

ولحَّنها سيد مكاوي، وطلبت من العازف أن يغني "الليلة الكبيرة" لأبرهنَ لها على عبقرية الثنائي جاهين ومكاوي، لم أشعر بنفسي وأنا أدندن معه بصوتٍ مزعجٍ لتضحك إيفلين ساخرةً مني.

مرَّ الوقتُ سريعًا؛ تحدَّثتُ معي عن طفولتها وعن قصتي الحب اللتين مرَّت بهما.. حكيتُ لها عن مريم التي تزوجت ابن خالتها فور التخرج وتعمل الآن موظفةً بإحدى المصالح الحكومية؛ رأيتها مصادفةً بعد أن تغيرت كثيرًا عن صورتها الملائكية لتتحولَ إلى أم كأي أم مصرية لا هم لها إلا بيتها. بدأت الشمسُ في البزوغ فطلبتُ الحساب، اندهشتُ حين أخرجت ورقة مالية من حقيبة يدها، رفضتُ مقاسمة الحساب في حزمٍ. لم نتبادل الحديث طوال طريق العودة؛ كأننا اكتفينَا من حاجتنا إلى الصحبة الآدمية، كانت ظروفنا الحالية متشابهة: فهي غريبة في بلدٍ غريبٍ عنها وأنا غريبٌ في موطني، وفي ذاتي أيضًا!

حَاوَلتُ بث الطمأنينة في قلبي؛ فأخبرتني أنها ستقومُ بتشريح النسناس وتُحاول الوقوف على سبب فشل التجربة معه حتى نحاول تفاديها.. لم أرغب في تصديق الأمل الذي زرعتَه بداخلي، شكرتها وطلبتُ منها الإسراع في ذلك.. سألتني إن كنت سأعودُ إلى طحا فأخبرتني أنني سأزور شكري ابن عمي أولًا.

ابتعتُ لشكري أصنافاً من الفاكهة، وتوجَّهت إلى غرفته في المصححة التي ما زلت أتذكر رقمها.. لم أجده على فراشه فسألتُ عنه إحدى الممرضات التي ميَّزت ملامحها من الزيارة الأولى.. قالت بقلبي إن الدكتور نجيب كان يُحاول الاتصال بي منذ أول أمس، ولكن يبدو أن موظف المستشفى الذي أخذ بياناتي قد دوَّن رقمي بالخطأ.. سألتها عن السبب الذي جعلهم يُحاولون الوصول إليَّ.. ردَّت بنبرةٍ خائفةٍ:

- إحنا عارفين إنك مش قايل لحدّ من أهله على موضوع الإدمان ده؛ فحفاظاً على سرية الحالة استنينا إنك تيجي تزوره بنفسك...

قاطعته قائلاً بصوتٍ عالٍ ذبح الهدوء المسيطر على المستشفى:

- شكري ماله؟!!

قالت بصوتٍ خفيضٍ:

- قطع شرايينه بالموس أول إمبراج.

نظر فرحات إلى الأرض دون أن تكفّ قدماه عن الاهتزاز، في حين ظلت نرجس صامتةً لا تُبدي أي ردة فعلٍ مُكفّيةً بوقفه غير مستقيمةٍ ونظرةٍ خاويةٍ، كان تأثير الحبس بادياً

عليها؛ بدايةً من شعرها المنكوش ووجهها المنطفئ وعينيها
الذابلتين، مروراً برائحتها المزرية وحالة ملابسها الرثة التي
تمزق منها ما تمزق واتسخ منها ما اتسخ، وانتهاءً بصوتٍ
خفيضٍ ردت به على دعوة عطوة لها بالجلوس مقابلةً
لفرحات في صالون بيته بعد أن اتصل بناجي ليُخبره باكمال
الحضور.

أتى ناجي مُتَعَجِّلاً، أخرج مجموعةً من الأوراق ومررها
على ثلاثتهم، وقال بلهجة هادئة وبألفاظٍ منتقاةٍ كأنه كان
يتدربُ على هذا الخطاب لفترةٍ طويلةٍ:

- طبعاً ما حدّش فينا فاهم الي حصل ليحيى، وكلنا
ملاحظين تصرفاته الغريبة وكلام أهل البلد عنه؛ الي
يقول عليه وِلي، واللي يقول بيقعد بالليل مع رزق
المجذوب يتكلموا للصبح، واللي يقول إنه بينزل التُّرْبُ
في عزّ الليل، ده غير طبعاً مراته الي طلبت منه
الطلاق وقالت إنه معادش جوزها.. وواضح إن كلامها
صح، يحيى مات واتدفن خلاص..

سأله فرحات بنبرةٍ مترددةٍ كيف يقول هذا على أخيه،
وقد شهد بنفسه عودته.. رد عطوة بهدوءٍ:

- الي عايش معانا ده شبه يحيى، بس مش تصرفات
يحيى، يعني مثلاً من إمتى وهو بيحب يقعد في
طحا؟.. ومن إمتى وهو بيحب الواد رزق؟.. ومن إمتى

وهو بيحب قعدة التُّرْب وبيصلي هناك؟.. أسئلة كثير
مالهاش غير التفسير اللي كلنا خايفين نقوله بصوت
عالي.

قال فرحات بنفس التردد:

- طب والحل؟

وكان ناجي كان ينتظر هذا السؤال فردَّ بسرعة كتلميذٍ
نجيبٍ:

- ما إحنا متجمعين إنهاردة عشان الحل ده؛ دلوقتي
إحنا أقرب أربعة ليحيى سواء من حيث صلة الدم أو
من حيث المعيشة بحكم وجوده دلوقتي في طحا، أنا
كان ممكن أعمل كل حاجة لوحدي بس عايزكوا كلكوا
تستفيدوا..

بدا الاهتمام لأول مرة على وجه نرجس واستفسرت
عن نوع الفائدة التي قد تنالها داخل حبسها الإجباري..
ردَّ عليها عطوة مطمئنًا أنه سيُنهي حبسها، وستحصل أيضًا
على مبلغ كبيرٍ تبدأ به حياةً جديدةً، ولها مُطلق الحرية في
مغادرة طحا، وإن أرادت الحياة في شقة الحسين فلا بأس..
قالت معترضةً:

- هاقعد مع أستاذ ناجي إزاي في بيت لوحدنا؟

ردَّ عطوة ضاحكًا:

- بسيطة؛ نشيل لقب أستاذ من قبل اسمه.. ونخليهولك
"سي ناجي".

أوما ناجي موافقًا وقال لـنرجس بحنان:

- العُمر بييجري يا نرجس، وقطر الجواز قرَّب يفوتنا..
وإحنا أولى ببعض من الأعراب.

لم تَبِدِ نرجس موافقَةً كما لم تُبِدِ اعتراضًا واضحًا فعقَّب
عطوة قائلاً إن السكوت علامة الرضا.. ثم نظر إلى فرحات
مُردفًا:

- وإنت مش عايز تعالج حمزة برّه مصر؟

ردَّ فرحات لا مُبالياً:

- نفس الكلام قولته ليا بعد البشـمهندس أحمد ما مات،
وحبيت تاخذ أرض زيادة عن نصيبك.. ووعدك كان
أمريكاني مالوش قيمة، دلوقتي حمزة كبر ومشكلته
كبرت معاه، وعلاجه بقى أصعب.

تجاوز ناجي ذكرى أبيه، وأكَّـد لفرحات أن علاج ابنه
حمزة سيكون على ضمانته هذه المرة.. طلب منه عطوة
أن يسأل عن مستشفيات خارج مصر لكي يذهب معه إلى
البنك ويدفع له مقدم العلاج فيها. قال فرحات مُستفهِمًا:

- وإيه بقى الحل السحري اللي ظهر فجأة لكل مشاكل
الطحاوية؟!!

رد عطوة بخبث: "يحيى" .. شرح ناجي مُفسراً:

- حادثة يحيى اتوثقت عند الحكومة ممَّا رُحِت أبطل شهادة وفاته وأروح السجل المدني أثبت إنه لسه عايش، ممكن نعمل تقرير طبي نكتب فيه كل الإصابات اللي يحيى سببها لئرجس بتاريخ يكون بعد حادثة الدفن، ده غير طلب مراته للطلاق..

أكمل عطوة وهو يشير بيده نحو الحاضرين:

- ومع شهادة أقرب الناس ليحيى تبقى كملت.

سألت نرجس:

- هي إيه دي اللي كملت؟

ردَّ ناجي بحسم:

- قضية الحجّر.

ساعدٌ تم تكييله داخل أصفادٍ لامعةٍ مُحكمةٍ الغلق عند رأس فراشٍ ضيقٍ.. جسد أصبح نحيلاً كورقةٍ ذابلةٍ.. وظلي المنعكس على حائط الغرفة خافتة الإضاءة يراقب خطوط رسم القلب الخاصة بشكري؛ كانت تتحرك بإيقاعٍ منخفضٍ مستفزٍ ولكنه منتظم.. جهاز تنفس صناعي يضخ الأكسجين لشكري، وقد تكاثفت الأبخرة على سطح القناع

الشفاف المتصل بوجه ابن عمي.. الكثير من الضمادات
المُحيطة بساعده الأيسر غيرالمُصفد.. كيس دم كبير الحجم
يتصل خرطومه الرفيع بذراعه.

جاءني الدكتور نجيب السعدي ليُطمئنني على استقرار
حالة شكري واقتراب نهاية غيبوته بفضل رحمة الله ثم
استعدادهم الطبي لأي حالةٍ مماثلةٍ قد تحدث داخل أروقة
المصحّة، توَسَّل إليَّ ألا أخبر أحدًا بمحاولة شكري المتهورة
حفاظًا على سمعة المكان، كما طلب مني ألا أتردد في طلب
أي شيء قد أحججه أثناء بياقي معه.. صافحته وعاودت
الجلوس بجوار الفراش خائضًا في شطرٍ من ذكرياتي مع
شكري الطحاوي قبل أن يتحول إلى هذا المسخ المستكين
أمامي..

سرحتُ في أول مرةٍ يرى فيها القاهرة بعين المقيم لا
الزائر؛ تلفت حوله مراقبًا جميع الأماكن والوجوه بانبهارٍ
واضح، حاول حفظ الطرق والحارات والأزقة والاختصارات
المختلفة، أبدى امتنانه لموافقتي على إقامته معي أنا وناجي
في شقة الحسين، انبهر من منظر الدراويش الهائمين يحملون
البخور ويطلبون المدد من ابن بنت النبي، أخبرني بحماسٍ
أنه سيُصلي كل فروضه في مسجد سيدنا الحسين لتحل عليه
البركة فضحكت في سري قائلاً: "كان غيرك أشر". كان يحمل
حقيبة ملابس ثقيلة مكتظة بملابسه وجواب تعيين في إحدى

المدارس الحكومية بشهادته الأزهرية من معهدٍ قريبٍ من طحا، استقرتْ فوق ذراعيه "مشنة" فلاحى لم أعرض عليه حملها؛ كانت مكتظةً بطعامٍ أشرفت فرحة بنفسها على إعداده؛ كانت فترة امتحانات ناجي في الثانوية العامة ولم نكن قد زرنا طحا مُنذ زمنٍ. بدأت أتلو عليه القواعد التي تعلّمتها في وقتٍ طويلٍ؛ لتكون دستوراً له يُساعده على التأقلم سريعاً مع الحياة في العاصمة:

١. حاول التخلي عن لهجتك القروية، وملابسك كذلك، في أسرع وقتٍ ممكنٍ.. ولا تتلفت حولك كثيراً.
٢. تجنّب الذهاب إلى بعض الأماكن؛ كمحطات القطار يوم الخميس، ومجمع التحرير يوم الأحد، ومباريات الأهلي والزمالك، وأماكن تحرُّك المواكب الرئاسية.
٣. لا تتركب سيارات الأجرة؛ فالحافلة ستنقلك إلى أي مكان دون التهام نصف راتبك في المشوار الواحد.
٤. إذا سألت عن عنوان مكانٍ معينٍ ثلاث مرات وتلقيت ثلاث إجابات مختلفة.. فجميعهم على خطأ.
٥. يجب أن تعتاد الزحام، وأن تذوب فيه تماماً.
٦. لا تتعجب من سرعة خطوات "المصراوية" في السير؛ فهذه طبيعتهم التي ستشعرك كأنهم يهربون من شيء ما لا يعرفه أحد.

٧. لا تقع في حب أول فتاة تقابلك؛ فمعظمهن يتلهفن للزواج من المغفلين أمثالك.

كان شكري ذكيًا بما يكفي لينفذ كل التعليمات المذكورة، وكان قرويًا بما يكفي ليغفل القاعدة الأخيرة؛ جاءني بعد أسبوعين من امتحانه لتدريس اللغة العربية مصارعًا بمشاعره تجاه إحدى طالباته من ذوات العودِ النحيل "الفرنساوي" الذي لم يجد له مثيلًا في طحا، كان أكبر مني في السن ولكنه كان يُعاملني كمرشده في "البندر" بحكم خبرتي ودخولي الجامعة..

أدهشني إصراره على الزواج من هذه الطالبة دون غيرها، اقترحت عليه الانتظار والتكتم على رغبته إلى أن تنتهي محبوبته من الدراسة الثانوية؛ حتى لا يؤثر على تقدُّمها في التعليم، وحتى لا تسوء سمعته داخل المدرسة. ساعده حماس أهل العروس طمعًا في ثروته ورغبته المستعرة في الزواج على إنهاء شقته الجديدة بسرعة.. سَأَنْدَتَهُ أمام العائلة في طحا؛ لم يكن وقوفي مع شكري حبًّا له قدر ما كان رغبةً في رحيله من شقة الحسين، ونكايةً في عطوة الذي خاب ظنه في خلفته باستثناء حسن الذي بدأ يدير تجارته آنذاك.. وقد كان.

تذكرتُ بداية معرفته بصاحب عمارته الجديدة واعتياده على جلسات "الحظ" التي كانت تُقام كل أسبوع فوق

سطح العقار، بدأ يفقد بريق عينيه وإحمرار وجنتيه، كما فقد بعضاً من وزنه وظهر عليه الإرهاق الدائم، لم أره كثيراً بعدها كما انقطع عن أهله في طحا، لم أعرف متى بدأ تحديداً إدمانه لذلك المسحوق الأبيض اللعين الذي دمر حياته كلياً..

استفاق شكري من غيبوبته وبدأ يغمغم بكلماتٍ غير مفهومةٍ، حاولتُ تهدئته وضغطتُ على جرس الاستدعاء المثبت أعلى الفراش لتأتي إحدى الممرضات ناظرةً نحو الأرقام الموجودة الجهاز وطمأننتني على سلامة شكري. قرابة الفجر كان قد استرد وعيه تماماً وبدأ ينوح بصوتٍ متهدجٍ قائلاً:

- محمد مات بسببي يا يحيى.. ده أنا كنت بعتره عيل من عيالي!

واسيته بهدوءٍ محاولاً ألا أشعره بفاجعة ما اقترفه، قلت له إن تلك الحادثة كان مقدراً وقوعها قبل أن يُولد الولد من الأساس، وأن عمره قد انتهى.. ثم استدركتُ متسائلاً:

- إنت عرفت إزاي إنه مات؟!

ردَّ ببصرٍ زائغٍ:

- أمه جت قالت لي اللي حصل، وجابت لي الموس معاها. عشان أخلص نفسي وأخلصها.

أوماتُ برأسي متأسفًا؛ استنتجت أنها أضمرت كرهها
له أمام العاملين في المصححة حين أتته، ولم يفتشها أحدهم
ظنًا منهم أنها زارته لتطمئن عليه وتقف بجواره في محنته.
أطلقتُ لساني عليها بالسباب.. قاطعني شكري قائلاً:

- حقها.. الست ممكن تستحمل أي خسارة إلا الضنا، ولو
جت تاني هاخذ منها الموس وهاكرر اللي عملته برضه!

حاولتُ تهدئته دون أن أخبره بوفاة أخيه حسن وجدته
وبحادثتي، ودعته دون أن أتمنى له الشفاء؛ فلم أعلم إن كان
يتألم بسبب تعافيه من الإدمان أم بسبب عقدة الذنب، أم
بسبب جراح يده!

قُدت سيارتي هائمًا أقاوم رغبةً شديدةً في النوم، الناس
يسعون على رزقهم وأنا أسعى نحو سريري الذي اشتقتُ
إليه، نجوتُ بأعجوبةٍ من الاصطدام بسيارة نقل كبيرة.. لا
أعرف كيف يسمحون لهم بالسير وسط المدينة دون الالتزام
بالطرق الخارجية المرسومة لهم، سمعت مؤخرًا أن إحدى
هذه السيارات قامت بدعس النصف السفلي لطفلٍ صغيرٍ
مما اضطر أهله لإجراء عملية بترٍ لقدميه...

لا أعلم من أين ظهر هذا الكلب الأسود الذي تفاديته
بصعوبة وسط سباب السائقين من حولي!

نظرتُ إلى هاتفي لأجد مكالمتين فائتتين من لطفي أبو الخير؛ صاحب دار النشر الذي كنتُ أريد العمل لديه.. مع رسالةٍ منه تُطالبني بمعاودة الاتصال به لأمرٍ ضروري، لن أتصل به ليُسمعي كلامه المحفوظ عن ركافة أسلوبي الأدبي وضرورة وجود بصمةٍ أدبيةٍ تجعل مَنْ يقرأ كلماتي يعرف هوية كاتبها دون أن يرى اسمي. عُدتُ إلى المنزل خطري أن أستحم قبل النوم ولكن طاقتي لم تسعفني؛ لأنام بملابسي الداخلية قبل أن أكمل ارتداء ملابس البيت.

نمت كأهل الكهف دون أن أقلق من سباتي العميق لحظة؛ حتى برودة الجو لم تعد تمنع عن عيني النوم، استيقظت ليلاً على صوت هتافٍ مُزعجٍ، وضوء ناتجة عن الطَّرْقِ العالي المستمر على باب البيت، هبطت السلم مُسرَّعاً دون أن أعي ما يحدث أو أحاول فهمه، ركضتُ نحو الباب ناسياً أنني لا أرتدي سوى ملابس البيت الداخلية، أردت فقط أن أعرف طبيعة الكارثة التي حلَّت أثناء نومي.. فتحت الباب لأجد الكثيرين من أهل البلد ومن أبناء عائلتي، ينظرون لي باحترامٍ وهيبةٍ بالغين على الرغم من منظري الهزلي ووجهي المنتفخ، احتل رزق بؤرة التجمُّع، أشار للناس كي يحملوني على أكتافهم، ثم رفع يديه عاليًا وقال بصوتٍ عالٍ دون أن يفقد لهجته المختلفة: "مدد يا شيخ يحيى مدد!" ليردد الباقون في صوتٍ واحدٍ:

- "مدد!!!اد"

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ سَرَابًا

الجمعة 3 مارس 2006

بعد أيامٍ من الاعتكاف داخل مسكني، لا أفعل شيئاً سوى الدعاء بأن ينتهي هذا الكابوس المُقيم.. كان لا بد من الخروج لصلاة الجمعة. فكَّرت أن أمكث في البيت ولكن طرقات أهل طحا على باي كانت كفيفةً بإلغاء هذه الفكرة؛ كانوا ينشدون المسير معي إلى الجامع، وكما توقعْتُ لم أرَ رزق معهم؛ يبدو أن أحداً سواي لم يعرف ديانته الحقيقية.. أو بمعنى أدق لم يهتم بالسؤال أصلاً، لا أظن أن هذه الأمور تحتلُّ حيزاً في وجدانه؛ فهو هائمٌ في ملكوته بعيداً عن تفاصيل النسك والعبادات..

طلبتُ منهم بهدوء ألا يحملوني كما فعلوا يوم تنصبيي.. كما حاولتُ أن أبعدَ يدي اليمنى عن شفاهم.. فأطاعوا. كانت الخطبة عن الطاعة، أو بمعنى أصح طاعة أولي الأمر

من الحُكَّام؛ فحاولتُ الاستفادة من النصوص المذكورة بعيداً عن تأويلها الذي لم يلاقِ قناعة لديّ ولا حتى لدى الخطيب الذي طفق يُردد ما كُتِبَ أمامه في ورقةٍ لا يعلم مَنْ كتبها إلا الله.. وعلى العكس كان معظم المُصلين؛ الذين كانوا يأخذون كلام الخطيب والتفسيرات القائمة على اجتهادٍ شخصي كأنها نصٌّ ديني. شتَّ عقلي بعيداً عن الخُطبة وعن نظرات الناس الهائبة المُصوبة تجاهي، تمنيتُ حينها أن تنشق الأرض من تحتي أو تحملني الرياحُ بعيداً.. زاغ بصري وتحوّلت الخُطبة في أذني إلى مجرد غمغماتٍ غير مفهومةٍ؛ سرحتُ قليلاً في إيفلين وتقسيمات جسدها البديعة... استعدت بالله سريعاً لخوضي في مثل هذه الخواطر داخل بيته، استعدت حديثي مع رزق منذ يومين حين استدعيتَه ليأتيني منفرداً كي أسأله عن تبريرٍ مناسبٍ لفعلة التي كانت بمثابة منحةٍ ممن لا يملك لمن لا يستحق أمام من لا يفقهون، عكست تصرفاته عقلاً واعياً ليس معتوهاً بشكلٍ تام كما يظن الجميع، نبّهته أن مشكلته الأساسية في النطق لا الإدراك.. لم يُعلق على النقطة الأخيرة وأخبرني بلهجته الغريبة أنه لم يفكر كثيراً فيما اقترف ولا يعرف الدافع الحقيقي وراء تصرفاته؛ خاصةً أنه -بالفطرة- لا يؤمن بالأولياء، كنتُ أعلم أن ما فعل هو السبيل الوحيد لكي يتقبلني أهل البلد وسطهم مرةً أخرى؛ حتى يتناسوا حادثتي بالتدريج ويُعاملوني بشكلٍ أقرب للطبيعي.. شكرته على نُبل غايته في حمايتي منهم ولكن

الوسيلة ستجعلني أحتل بؤرة اهتمامٍ لا أتحملها، وسأكونُ مُطالِبًا بالكذب على الناس طوال الوقت وادعاء ما ليس بيدي.. نصحني أن أكتفي بالصمت وأن أستغل مكانتي التي زرعتها بداخلهم فيما ينفج.

أعددتُ له قدرًا من الطعام، اقترح عليَّ إقامة ضريحٍ خاص بي وصومعةٍ أعتكفُ بداخلها فضحكتُ ورفضتُ رفضًا قاطعًا؛ لأن في هذا التصرفِ مبالغةً قد تضعني في خانة الخارجين عن القانون.. عزمْتُ على الاكتفاء بالصمت دون السعي لاكتساب مكانةٍ أعلى، ودون محاولة إنكار ادعائهم.

حاولتُ أن أدعو الله في السجدة الأخيرة كعادي، لم أعرف ماذا أطلب منه.. كيف أطلب وأنا لا أعلم عِلتي من الأساس. كان سجاد الجامع فخماً مُعبقًا برائحة مميزة للفرش الجديد.. تذكرت السجاد البالي في زاوية الشيخ صالح، والذي طالما التصقت رماله بجبهتي أثناء السجود.

قُضِيَت الصلاة، التفتُّ إلى الخلف بعد السلام مُتعبجًا في قرارة نفسي من ذلك العدد المهول الذي يُطالعني مُنتظرًا مني ما ليس بيدي، كيف لكل هؤلاء أن يسيروا وراء كلامٍ قاله شخصٌ معتوه؟!.. كيف يصنعون مني إلهًا دون أن ينالهم مني ما يفيد أو يُؤذي؟.. ككُفار الجاهلية يعبدون تمثالًا نحتوه بأيديهم، وإن كان من العجوة أكلوه بعد أن يصنعوا ما هو أكبر منه مُعتقدين أن بيده الحل والخلص،

يتكون ما هو حقيقي ونافع سعيًا وراء خرافةٍ وسرابٍ لا
يملك من أمرهم ولا من أمره شيئًا!

سرتُ ببطءٍ وسط نظراتهم، مال عليّ أحدهم فجأةً وقال
بحزمٍ:

- عم منصور بتاع الرُّخام عايزك ضروري يا مولانا..

نظرتُ له مستفهمًا، فقال بنفس اللهجة الجادة:

- ليك عنده أمانة لازم تاخدها بنفسك.. تعالَى لوحدك.

نجحت إيفلين في الحفاظ على هدوئها أثناء جلوسها
مقابلةً لمكتب وكيل النيابة الذي كان حريصًا على التعامل
معها بشكلٍ قانوني صرفٍ بحُكم جنسيتها، استجوبها بشكلٍ
مباشرٍ قائلاً:

- بعد حادثة العربية الي جوزك اتوفي فيها يا دكتورة
سألنا حضرتك إذا كنتي حاسة إن في الموضوع شبهةً
جنائيةً..

ردَّت إيفلين بهدوءٍ أنها لا تزال عند رأيها: فلم تسمع من
أمجد يومًا عن وجود عداوةٍ أو خصومةٍ بينه وبين أي أحدٍ..
قاطعها وكيلُ النيابة قائلاً إنه حين سأل أهل أمجد كان
لهم رأي آخر؛ لم يستبعدوا أن تكون الحادثة مُدبرة طمعًا

في الاستيلاء على ثروته التي كَوَّنَها خارج مصر، علاوة على طبيعة مهنته التي تفرض عليه التعامل مع أشخاص غير أسوياء نفسياً.. نظرتُ إيفلين أمامها دون أن ترد فأكمل الوكيلُ حديثه:

- بصراحةٍ أنا كنت مؤيد لرأي حضرتك في إن الحادثة قضاء وقدر.. لحدّ ما جالنا اتصالاً من مجهولٍ خاف يبجي يُدلي بأقواله في تحقيقٍ رسمي.. قال إنه جاركوا وشاف من بلكونته عربية واقفة مستنية أمجد، أول ما اتحرك العربية دي اتحركت وراه.

وضع أمامها الورقة التي تم فيها تفريغُ المكالمة، والتي وصف فيها المُتصل نوع السيارة ولونها بمنتهى الدقة، أخبرته أنها لا تقرأ العربية جيداً. حاولت الحفاظ على هدوئها واستفسرت عن السبب الذي دفعه لاتهامها دون غيرها.. أجاب بلهجةٍ جادةٍ أن بوليصة التأمين هي السبب؛ كونها المستفيدة الأساسية من وفاة أمجد.. ردّت إيفلين بلهجةٍ جادةٍ أنها لن ترد إلا على اتهامٍ رسمي، وفي حضور المحامي الذي وُكِّلته.. قاطعها وكيلُ النيابة قائلاً بلهجةٍ خبيثةٍ:

- قصدك المحامي اللي جبران جابهولك.. مش جبران ده برضه كان التمرجي بتاع أمجد؟
ردّت إيفلين بغضبٍ:

- تلميحك مرفوض.

- أقول لك أنا التلميح المقبول: الاتصال المجهول ده لوحده مش دليل كافي، ومش دليل أصلاً.. بس بعد الواقعة أهل جوزك اشتبهوا في إن الحادثة بفعل فاعل؛ بناءً على شكوكهم تجاهك وبناءً على المكالمة المجهولة.. أخرج ورقةً أخرى من وسط الملف الموضوع أمامه، وأكمل قائلاً:

- وعشان نتأكد طلبنا التقرير الفني من إدارة المرور؛ الخبر اكتشف إن سلك الفرامل بتاع العريية كان مقطوع قبل ما تتحرك، وطبعاً اللي قطعه حدّ مستفيد من الوفاة؛ استفادة تمناها عشرة مليون جنيه!

ردّت إيفلين بنفس الهدوء مؤكدةً أنها لم تكن تعرفُ موضوع البوليصه قبل وفاة زوجها، طلبت منه أن يستجوب جبران لأنه كان الموكل بهذا الأمر من أمجد، قالت بتهمك أنها ليست مجنونةً كي تقتل زوجها الذي ستفلس بعد رحيله؛ لأنها لم تجد في مصر العمل المناسب تخصصها.. قال وكيل النيابة:

- بس على الورق إنتوا مش متجوزين.

شَرَحَتْ له إيفلين أن إجراءات الزواج في المجتمعات الغربية أسهل كثيراً مما يتم في مصر؛ فأمجد تقدّم لها بشكلٍ

مفاجئ في حفلٍ صغيرٍ وسط مجموعةٍ من الأصدقاء، وافقت وتم الاحتفالُ واستكمالُ المراسم البسيطة، وبعد أيامٍ وقَّع كلاهما على مجموعةٍ من الأوراق لضمان حق كل طرف دون توثيق الزواج نفسه في أيٍّ من السفارتين المصرية أو الألمانية.. عقَّب وكيَّل النيابة أن هذا سبب أدعى لكي تقتله من أجل أمواله؛ فعلاقتهما غريبةٌ ليست زواجًا تقليديًا.. ردَّت إيفلين متعجبةً من طريقة تفكيره، قالت إن من فقدته كان زوجها وليس خليلها، وأن بقاءها معه أهم من أي مالٍ، أنهت حديثها محاولةً الحفاظ على رباطة جأشها:

- أمجد كان حب حياتي.

نظر وكيَّل النيابة في الورق أمامه، قال بلهجةٍ خبيثةٍ:

- أصل تحريات الشرطة مكتوب فيها إنك كنتي سهرانة في الحُسين لحدَّ الفجر مع يحيى الصديق الأقرب لأمجد؛ "حُب حياتك"!

انتظرتُ حتى انفضَّ الجمعُ وسألتُ أحدَ فلوله عن مكان "منصور" هذا؛ فوصفَ لي المكان وعرض عليَّ القدوم بصحبتني، ولكن نظرةً رادعةً مني جعلته ينسحبُ. اتبعْتُ وصفَه لأجدَ مسكنًا صغير الحجم على طرف البلد، كان البابُ مفتوحًا وعتبته منخفضةً عن الأرض حوالي مترين..

ولكنني حين دخلتُ شعرتُ بانتقالي إلى عالم آخر؛ كان الهواء مُفعمًا برائحةِ البخور، باردًا كأنه يصدرُ من مُكيف هواء خَفِي، تسرَّب إلى أذني صوت "نجاة الصغيرة" المُنبعث من مُسجلٍ قديمٍ، كما رأيت مخطوطاتٍ كثيرةً تُزيّن جدران المكان أعتقد أن كاتبها منصور نفسه الذي لم يرفع رأسه نحوي وظلُّ مُنهمكًا في نحت قطعةٍ من الرخام الصلب.. كان عجوزًا نحيلًا أصلح الرأس يرتدي نظارةً سميكةً، ذكَّرتني هيئته إلى حدِّ كبيرٍ بالراحل نجيب محفوظ.. قال بصوتٍ هادئٍ دون أن ينظرَ نحوي وهو يُشير إلى ركنٍ في صومعته رُصَّت فيه قطعُ الرخام المُستطيلة فوق بعضها:

- أمانتك هتلاقيها وسط الشغل ده.. طلَّعها وخدها.

لم أفهم قصده حتى اقتربت وبدأتُ أدقق النظر في القطع التي كانت ملفوفةً في ورق جرائد، حتى وجدت رخامةً تحمل اسمي.. عَقَّب مُبتسمًا:

- امسكها باليمين بس يا يحيى، ربنا يجعلك من أهله..
ما تقلقش أنا عاملهاك من رُخامٍ خفيفٍ.

فزعتُ حين تخيلت أن هذه الرُخامة ستثبت يومًا ما فوق قبوري.. أشار لي بالجلوس على مقعدٍ خشبيٍ بالٍ وقال:

- عرفت إنك طلعت عايش واتدفنت بالغلط وأنا في نصِّ الشغل، فكملت الاسم والديباجة وسيبت تاريخ الوفاة

لتقدير ربنا. تعرف إني ما بحبش الأعمال الناقصة؟..
رُخامتكَ دي تاني عمل ناقص أعمله في حياتي.
سألته بفضولٍ عن العمل الأول الذي لم يُكمله.. ردَّ
بتلقائيةٍ:

- رُخامتي يا ابني.. أنت فاكِر إني هاسيب نَحَّاتٍ غيري
يشتغل على قبري!

أخرج لفافةً جلديةً بصعوبةٍ من درج مكتبه وفك اللفة
ليكشفَ عن قطعة رخامٍ مُبهرة المنظر، طرَق عليها قائلاً
بفخرٍ:

- دي حتة "كريم مارفيل" مش موجودة في بلدك كلها..
مش سايب مكان لتاريخ الوفاة، يبقوا ينحتوه بقى
على أي رخامة صغيرة ولا عنهم ما نحتوه.

نهض بصعوبةٍ وأحضر "سبرتاية" وبدأ في إعداد القهوة
بمنتهى التأنى.. لم يسألني عن كمية السكر التي أفضلها
ووضع لكلينا نفس المقدار.. شعرتُ أنه يشتاقُ إلى حديث
البشر، قبل أن يُكمل كلامه قاطعه اقتحاماً مفاجئاً للبيت
بواسطة شخصٍ لم أعرفه، بدا لي أن كليهما يعرف الآخر،
سبَّه منصور سبَّه لا تتلاءم مع سنه ولا هيبته، ولكن الرجل
قابل السببة بضحكةٍ سمجةٍ، عدلَّ من بدلته الرخيصة التي

اختلف لونها عن لون البنطلون، قال بعدما صافح منصور
باحترام وصافحني بهيبةٍ مصطنعةٍ:

- عايزك في طلب مستعجل يا عم منصور.. محتاجين
يافطة مستطيلة من أعلى نوع رخام عندك، لازم
تخلصها قبل افتتاح المصنع.

سأله منصور مُتهكمًا:

- وطبعًا عايز نكتب عليها اسم المحافظ عشان هايفتح
المصنع؟!

لم يلحظ الرجلُ السخرية وأمنَّ على حديثه قائلاً:

- هاتكتب الديباجة المعتادة، وإن الافتتاح تم في عهد
السيد الرئيس والسيد المحافظ والسيد رئيس المجلس
المحلي.. بس أهم حاجة تنحت اسم الرئيس كويس
وبخط كبير، عايزينه يفضل موجود على طول، ما
يبوظش من خربشة العيال الصغيرة على الرخام.

ردَّ منصور ضاحكًا:

- يا ابني هو الرئيس نفسه ضامن يكمل في مكانه عشان
أضمن لك يافطته تفضل مخلدة؟!

لم يردُّ الرجل وترك مبلغًا من المال ملفوفًا في ورقةٍ
فوق مكتب منصور، خرج يضربُ كفًا بكفٍ مُتحرِّسًا على
عقل منصور "المغيب" .. لم يعترض الأخير، وضع المال في

جيبه وغمغم قائلاً لنفسه: "ما حدّش هايسلم من خربشة العيال". غرق في نوبة ضحك لم أر داعياً لها، والتفت إليّ متسائلاً بنفس اللهجة الرصينة عن شعوري تجاه "الهوة" الحاصلة في البلد بسببي.. أجبتّه بصدقٍ أنني لا أريد سوى أن أعيش في حالي؛ فلا أنا مُختل عقلياً ولا ملبوس بالجن ولا ولي من الصالحين، ولكن الناس مُصرون على وضعي في أي قالب يُلائم معتقداتهم.. هزّ رأسه متفهماً دون تعليقٍ وقال مُغيراً الموضوع:

- أنا كنت نَحّات مشهور في القاهرة زمان، وكان عندي معرض خاص بأعمالي.. أيام ما كانت القاهرة قاهرة بجدّ، وكان الناس عندها ذوق حقيقي؛ كانت كل شِلة فيها النَحّات والعازف والشاعر..

سألته مبتسماً:

- والمثقف؟

أجاب:

- كلنا كُنا مثقفين.. الطالب الجامعي وقتها كان له قيمة حقيقية.

أبدت حسرتي مُترحمًا على أيام الملكية.. سألني بلهجة صعبة:

- هي الملكية خلصت!؟

ظننتُ أنه فقد الشعور بالزمن كدأب الشيوخ، كدثُ أعيد عليه التاريخ بداية من عام ١٩٥٢.. أشار لي بيده كي أتوقّف؛ فهو يذكر كل ما حدث كأنه البارحة، أردف وهو يصب القهوة في فنجاني أولاً:

- أنا قصدي إن كل اللي حصل للملكية إنها اتنقلت من باشا لباشا جديد.. كمّسمى خلصت، بس الإقطاعية لسّه عايشة لحدّ دلوقتي؛ مش الإقطاعية دي يعني احتكار الرزق لمجموعة قليلة؟!

أجبتّه بإمءاءةٍ من رأسي، فأكمل حديثه قائلاً:

- آهه ده بقى سلو بلدنا؛ أي حدّ عايز يحكم بيحجب صحابه ويعاملوا الشعب كأنهم فلاحين في عزبة أبوهم.. بس زمان السرقة كانت بشياكة أكثر، زي ما تقول كده الحرامي كان مستحمي وبيسرق بالشوكة والسكينة.

ضحكت من تشبيهه، وسألته- بشكلٍ عابرٍ- عن رأيه في طريقة حُكم الجماعات الجهادية؛ ردّاً ساخطاً:

- ألعن وأضل سبيلا؛ دول كانوا السبب اللي جابني هنا.

تذوقت قهوته التي أيقظت جميع حواس تذوق الجمال بداخلي.. ارتشف بدوره رشفةً طويلةً، أشار إلى لوحةٍ ورقيةٍ مُعلقةٍ على الحائطٍ أمامنا خطّاً عليها بيده اقتباساً عن ابن

سينا: "بُلينا بقومٍ يظنون أن الله لم يهدِ سواهم" .. وأكمل حديثه قائلاً:

- من حوالي ثلاثين سنة.. خمسة منهم دخلوا عليّ المعرض بتاعي كسروه فوق دماغي، قال إيه أنا كافر وبعمل أصنام، حسّسوني إني تاجر آلهة والمشركين بييجوا يحجّوا في المعرض عندي!.. خسرت كل فلوسي وصاحبة العمارة اللي كنت مآجر فيها خافت منهم وطردتني؛ فرجعت طحا إيد ورا وإيد قدام.

اندهشت أنه من أبناء طحا.. أوما برأسه مؤكّداً، وأردف:

- كانت غلطتي من الأول إني بعت أرضي عشان أعرف أعيش في مصر.. بس الناس هنا استحملوني وساعدوني أبني البيت ده، واحد فيهم اقترح عليّ شغلانة رخام المدافن ده.. اتفقت مع مَحْجَر رخام أنزل له كل كام شهر أجيب الكمية اللي هحتاجها، ولمّا كبرت وحركتي قلّت شباب البلد بقوا بيحبيوا الرخام بدالي.. وأهي بتُزق.

لم أكن أرغب في الإدلاء بأي حديثٍ، كنت أستمتعُ بمشاهدته والاستماع إليه.. سألته عن إمكانية عودته إلى القاهرة بنفس المهنة الحالية بعد أن صار مُحترِّفاً فيها.. قال وهو ينظرُ إلى أعلى:

- هو العُمر باقي فيه كام يوم أجرب فيهم؟.. أنا
ماعنديش رفاهية المحاولة والفشل يا يحيى. بعدين
الناس في القاهرة مش مهتمين بالدفن زي الأرياف..
هناك بيهتموا أكثر بفشخرة العزا، وحتى اللي مهتم
بيطلب يتدفن في القرية اللي اتولد فيها.. إنما الناس
هنا بيقدسوا الموت، حتى لو بيعصوا رب الموت.

لم أفهم جُمَلته الأخيرة؛ فشرح لي بعض العادات الخاطئة
البعيدة عن الدين والتي يُمارسها أهل الميت بعد رحيله..
بدا الإنهاك واضحًا في عينيه فاستأذنتُ منه كي أرحل.. أصرَّ
ألا أغادر قبل أن يُريني دفترًا كبيرًا فتحه قائلاً:

- أول ما جيت اشتريت الدفتر ده وكنت باخد فيه بيانات
كل ميت بالتواريخ، في الأول أهل البلد عشان يشجّعوني
خلُوني أعمل رُخام لأهاليهم اللي ماتوا بتواريخ قديمة،
هاتلاقيني عامل جزء خاص لعيلتك عشان هُما أصل
البلد..

كانت الأسامي مكتوبة في صورة قائمة طويلة، ومسرود
أمامها مكان الدفن بالتحديد وتاريخه.. طالعت أسامي
الطحاوية سريعًا، وكما توقعت؛ فلم أكن أعرف معظمهم..
شعرت بغصّةٍ في حلقي حين لمحتُ اسم فرحة مُستقرًا بين
اسم حسن واسمي... ولكن مهلاً!

عدتُ بنظري إلى منتصف القائمة حين استوقفني آخر
اسم توقعتُ وجوده.. صحتُ مُستهجناً في منصور وأنا أنظر
إلى الدفتر:

- المرحوم رفعت صادق الطحاوي!؟

دَعْنِي أَخْذَعُكَ..

الجمعة 3 مارس 2006

لم أعرفُ ماذا أفعل بعد أن خرجتُ من بيت منصور مطعونًا بصدمتي، حملتُ قطعة الرخام المنحوت عليها اسمي بعد أن رفض بقاءها لديه؛ وكأنه يرغبُ في تذكيري أنني ما أزال موءودًا حتى وإن لامس النورُ وجهي ثانيةً. ذهبتُ إلى مسجد الشيخ صالح فوجدته نائمًا بمفرده على بساط الزاوية، خشيتُ أن أخرجه من قيلولته للحصول على إجابةٍ قد تُجهِّز على ما تبقى من حياتي. لم أجد ملاذًا سوى بيت العائلة؛ سأمكتُ داخل صندوق الصور الخاص بفرحة الذي أخفيتُ أمره عن أخي.. سأحيا بين ثنايا ذكرياتي يوم أن كان لي أحبباء حقيقيون، بعيدًا عن طمع عتوة ومكر ناجي ومشاكل إيفلين وعقلي الذي استهلك بين رَحَى الحياة..

”الكوارث كعربات القطار يجرُّ بعضها بعضًا“.. كانت هذه أول جملة تخطرُ على ذهني حين دخلت المنزل لأجد ناجي وعطوة جالسين في حجرة استقبال الضيوف ومعهما ضابط برتبةٍ صغيرةٍ يبدو عليه الحرج.. أخبرني عطوة أن الضابط ذهب إليه حين أتى إلى البيت ولم يجديني، استنتجتُ أن ناجي أدخلهما البيت بمفتاحه.. كنتُ قد نسيْتُ أن فرحة كتبتُ له نصيبًا مماثلًا لنصيبي في البيت.

تجاوزتُ دهشتي وقلتُ موجِّهاً حديثي إلى ناجي ضاحكًا:

- شفت منصور ابن المجنونة؟.. يقول إن رفعت ميّت بقاله أكثر من عشرين سنة!

نظر ناجي إلى الأرض دون ردِّ، وقال عطوة بلهجةٍ هادئةٍ:

- اسمه جدك رفعت.. الله يرحمه ويحسن إليه.

لم أعرف ماذا أفعل، خرج فزعي من هول الفكرة في صورة اعتراضٍ صارخٍ؛ أمسكت بملابس عطوة، صحتُ فيه كما لم أفعل من قبل.. اعتذر ناجي للضابط عن تصرفي.. أصرَّ عطوة على رأيه حين أخبرني أن منصور ليس مُخطئًا وأن قبر جدي موجودٌ منذ زمنٍ بعيدٍ، وأنه جعل منصور يكتب اسم رفعت على الرخام المثبت على شاهد القبر بعد وفاته بفترةٍ طويلةٍ تشجيعًا له، ولهذا السبب لم يُذكر اسمه ضمن ورثتي رغم أن الشرع يُتيح له نصيبًا في تركتي!

طلب مني ناجي تأجيل النقاش في هذا الموضوع فوافقْتُ من باب المجارة؛ لمعرفة سبب اقتحام ثلاثتهم لمسكني دون إذنٍ، وبعد رحيل الضابط سأعرفُ لماذا زعموا وفاته. صافحتهم ببرودٍ، وحين استفهمتُ عن سببِ الزيارة غير المرغوبِ فيها.. أجابني الضابطُ قائلاً:

- المفروض فيه أمر ضبط وإحضار لحضرتك، بس احتراماً للحاج عطوة جيت لوحدي.. ده غير إننا عارفين حساسية موقفك في طحا دلوقتي، وإن بقى ليك أنصار كثير ممكن يعملوا قلق مالوش لزوم.. فحببت أرافكك للنيابة بشكل ودي.

سألته دون أن أفقد هدوئي عن التهمة الموجهة لي.. ردَّ بلهجةٍ حذرةٍ أن الأمر مجرد استجوابٍ بسيطٍ بخصوص مقتل الدكتور أمجد عمّار.

لم يرد أحدنا؛ لجمت الدهشة أفواهنا، أطلقتُ سُبّة بذيئةً علامةً على اعتراضٍ على فكرة "قتل" أمجد من الأساس.. فأشار لي ناجي مُحذراً واعتذر للضابط الذي تعمّد تجاهلي وطلب من ناجي أن يُحضر موكله الآن للمثول أمام وكيل النيابة المكلف بالتحقيق. لم ألمه على مناداتي بضمير الغائب بعد ما تلفظتُ به، قلتُ لناجي قاصداً الضابط بحديثي أنني سأصعدُ لتغيير ملابسِي، فتحتُ خزانة ملابسِي فوجدتُ عبئاً واضحاً ومحتوياتها؛ توجّهت عيناى سريعاً نحو

أثمن ما فيها ليتحقق أسوأ كوابيسي: فقد اختفى صندوقُ
جدي فرحة!

بعد قرابة الساعة من الأسئلة المعتادة التي لم تتطلب
تدخل ناجي، اعتدل وكيلاً النيابة في مجلسه وقال بلهجةٍ
جادة:

- حضرتك كنت متغيب فين وقت حادثة أمجد؟

ابتسم ناجي.. وضحكتُ بصوتٍ عالٍ دون أن أبالي
بنظراته المحذرة، قلت وسط ضحكاتي إن لديّ أغرب حجة
غياب في التاريخ: كنتُ ميتًا!.. ردّ الوكيلُ بخبثٍ قائلاً:

- أو كنت عامل نفسك ميت.

تدخلُ ناجي مشيراً إليّ بالصمت:

- موكلي اتضرر نفسياً وجسدياً من حادثة الدفن الخطأ
اللي مثبتة في الورق الي قدمته لحضرتك.. مُستحيل
حدّ يدّعي الموت كحجة غياب، خصوصاً إن كل الي
حواليه كانوا متأكدين إنه ميت فعلاً، أنا نفسي عملت
إعلان وفاة وبدأت في إجراءات تسليم التركة.

ألقي وكيلاً النيابة بعضَ الأسئلة الروتينية، قبل أن يُعاود
هجومه مُستفهماً بمكرٍ عن علاقتي بإيفلين.. أخبرته بصدقٍ

عن الصداقة الحديثة التي نشأت بيننا بحُكم الظروف الصعبة التي مرَّ بها كلانا؛ فقد هجرني جميعُ من حولي- حتى زوجتي التي طلبت مني الطلاق- وهي منبوذة من أهل زوجها في بلدٍ غريبة عنها.. تحدّث وكيلاً النيابة مُحاولاً تقليد طريقتي في الإجابة عليه كأنه يُكمل ما أريد قوله:

- ووحيدة.. وهاتصرف قريب بوليصة تأمين بقيمة عشرة مليون جنيه.

ردّاً ناجي أن أملاك عائلة الطحاوي من الأملاك تتجاوز هذا الرقم بكثير.. قلتُ بتلقائيةٍ أنني لا أهتم بالأموال؛ خاصةً بعد حادثة الدفن الخطأ التي جعلتني لا أريد من البشر سوى أن يتركوني لحالي.. سألني:

- تفتكر موضوع البوليصة ده لعبة من إيفلين وجبران عشان يستفيدوا من قتل أمجد؟

- أمجد كان قايل لي قبل ما يسافر إنه خايف على إيفلين لأنها ما تعرفش حدّ في مصر.. فمش بعيد يكون عمل كده عشان يحميها.

تجاهل الوكيل صوت طرقاتٍ عاليةٍ على الباب واستمرّ في استجوابه لئلا يفقد لحظة المواجهة، قال بصوتٍ عالٍ:

- طب ما يمكن إنتوا التلاثة متفقين على...

قاطعه اقتحام شخصين للمكتب عرفتهما بسهولة دون أن أعرفَ السبب الذي جمعهما: أولهما كان لطفي أبو الخير صاحب دار النشر التي رفضت التعامل معي فيما سبق، والثاني كنتُ أعرفه من شاشات التلفزيون؛ كان معاذ عصفور المحامي المعروف بلسانه السليط، ذاع صيته بعد أن خاض أكثر من حربٍ مع شخصياتٍ شهيرةٍ، وبعد أن تصدَّى للكثير من قضايا الرأي العام كقضايا الفنانين والإعلاميين ورجال المال. قال معاذ بلهجةٍ معتذرةٍ:

- آسفين على طريقة الدخول يا محمود بيك.. بس أكيد حضرتك مش هاتقبل بالمهزلة اللي بتحصل دي. نظرتُ إلى لطفي مُستفهِمًا فأومأ لي مُهدئًا وأخبرني همسًا أنه كان يُحاول الاتصال بي ليُخبرني.. أردف معاذ قائلاً:

- حضور أستاذ ناجي مع أخوه باطل.

بدا على وكيل النيابة الاهتمام فنظرتُ له نافيًا هذا الادعاء، وتدخلَّ ناجي صائحًا بغضبٍ أنني موكله منذ سنوات، وأنه المسئول عن النظر في كل ما يخصه. قال لطفي بصوتٍ هادئٍ:

- ويا ترى هاتقف معاه برضه في القضية اللي جاية؟!
ثم وجَّه حديثه لي لينقذني أخيرًا من براثن الحيرة:
- أخوك المَبْجَل رافع عليك قضية حَجْرٍ يا يحيى.

نظرتُ إلى ناجي مُستفهِمًا عن جدية هذا الحديث فأجابني بصمتٍ ألحقه بطأطأة رأسٍ.. استغل معاذ الموقف وقال لوكيلِ النيابة بلهجةٍ عمليةٍ:

- واضح إن كده التوكيل أصبح باطل، أستأذن حضرتك لو حابب تحقق مع أستاذ يحيى دلوقتي هاحضر معاه التحقيق بشكل ودي، لو لازم ورق يبقى نأجل التحقيق. لم أرد أن أضع نفسي في موقف المتهم، فقاطعته قائلاً إن التحقيق أوشك على الانتهاء، وأن تغيير المحامي لن يُغير حرقًا من أقوالي.. سأل وكيل النيابة معاذ مُبتسمًا:

- بس إيه سر اهتمامك المفاجئ بيحيى الطحاوي؟.. حسب معلوماتي هو شخص بسيط، مش من نوعية الزباين اللي حضرتك بتفضلها.

هزّ لظفي رأسه نافيًا وقال:

- بسيط؟! أستاذ يحيى أهم كاتب في دار النشر بتاعتني، وكمان هايكون الواجهة القادمة لقناة "الروح" المملوكة لرجل الأعمال سامح أبو خاطر.

لم أمتلك رفاهية رفض العرض المُقدم من معاذ، لم تكن قوة العرض في مقابله المادي ولا المعنوي فقط.. ولكن في

توقيت طرحه؛ فقد انتظر حتى انهارت أساساتُ ثقتي في جميع مَنْ حولي.. اجتمعنا بعد انتهاء تحقيق النيابة معي، والذي صممتُ أن أحضره منفردًا. جلستُ مع معاذ ولطفي بأحد المقاهي الباهظة، أو كما يقولون "كافيه"، في المعادي، تبادلنا العزف على نغمة "إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها"؛ فحدّثني أحدهما عن ضرورة استغلالي للحادثة قبل أن ينساها الناس، وأكّد آخر على أهمية ظهوري بالشكل الأنسب الذي ينتظره الجماهير التي ألّهتني، تكلمنا عن أهمية الثروة بالنسبة لشخصٍ وحيدٍ مثلي، وكيف ستمكّني من ملء حاجتي للوّنس، قضى معاذ على آخر خط دفاع لشعور الرفض بداخلي حين ذكر نماذج خدعت الناس بكامل إرادتهم الحرة؛ فهم يبحثون عمّن يبيعُ لهم الوهم، أخبرني أن أسهل طريقة لحل مشاكل الناس أن أكون السبب فيها.. فإن لم أخدعهم احتقروني لصالح غيري وألقوا بعقولهم تحت قدميه كي يزيدهم جهلاً.

استشفّ معاذ الموافقة من صمتي، فسلمّني مبلغًا من المال وقال إنه مُقدم بسيط مقابل عملي كخبير "روحاني" في قناة الروح التلفزيونية، وأعطاني مهلة بضعة أشهر كي أعد نفسي لتلك التجربة، طلب مني أن أقرأ في مجال الروحانيات والخوارق وأن أدرس نفسية الناس، ووعدني أن المحطات التلفزيونية ستذكرني وأن الجرائد ستكتب عن حادثتي وتنشر شائعاتٍ جمّةً بخصوص حقيقتي. تركني مع

لطفني متعللاً بانشغاله، ظننت أن لطفني يريد الاستفادة من اسمي وشعبيتي البسيطة وينشر روايتي التي رفضها فيما سبق، ولكن اتضح لي أنه يطمع فيما هو أخطر؛ طلب مني إعداد مسودة كتابٍ عن حادثتي، وسيقوم بدوره بتكليف أحد العاملين في الدار بصياغته أدبيًا، طلب مني أن أخبر الناس أن عودتي لم تكن محض صدفة.. أعطاني رقم أشهر بائع كتب في سور الأزبكية وطلب مني أن أذهب إليه بتوصيةٍ منه، وأن أستزيد من الكتب التي ستتنفعني وتجعلني أقدم محتوى مكتوبًا ومرئيًا مبهراً للناس. أبدى دهشته من سرعة موافقتي على كلا العرضين كالمُخَدَّر، لم أخبره أن دهشتي كانت أعظم!

أوشكتُ شمسُ هذا اليوم الطويل على الغروب، ولكن حماسًا غير مبررٍ ملأني بعد لقائي بدينك الشيطانين، حاولت الاتصال بخالد على رقمه الذي طلبته منه يوم أودعنا شكري المصححة فلم يرد، هاتفت صاحب العقار الذي كان يُجالسهما وطلبت منه عنوان خالد فأملأه عليّ، ونصحتني أن أوجل زيارتي له للصباح.

انطلقتُ بسيارتي نحو سور الأزبكية ناشدًا بائع الكتب الذي أوصاني به لطفني وأثناء قيادتي اتصلت بإيفلين وسألتها عن كتب أمجد في مجال الطب النفسي.. ردَّت أنها تحتفظ

بجميع الكتب والمراجع الخاصة به، طَلَبْتُ أن تكون زيارتي لها صباحًا حتى تتجنب كلام الناس.. ضحكْتُ ساخرًا من الطبع المصري الذي اكتسبته سريعًا بعد وفاة أمجد.. لم تُبادلني الضحك وأخبرتني بتجهيمٍ أن أهل أمجد اتصلوا بها صباحًا لإخطارها بضرورة إخلاء العيادة من متعلقات أمجد الشخصية.. عرضْتُ عليها مساعدتي فَقَبَلْتُ العرض، وأخبرتني أنها وجدتُ شيئًا في العيادة قد يُثير اهتمامي! وضربتُ لي موعدًا في اليوم التالي لأنقلَ معها محتويات العيادة إلى شقتها؛ وأخذ منها ما أرغب من الكتب.. أدهشني ترحيبها المُطلق بفكرة عملي في الكذب على الناس؛ كانت تراه عقابًا مُستحقًا لهم بسبب جهلهم ووضعهم لي في مكانةٍ أكرهها. طلبتُ منها أن تبحث على الإنترنت عن اسم "سامح أبو خاطر" وتزوّدني بكافة المعلومات عنه وعن نشاطاته التجارية.

كان سور الأzbekية عالمًا خاصًا، تشعر أنه دولة داخل الدولة؛ فما بين بائعي كتبٍ نادرةٍ وقديمةٍ وبين شبابٍ مُتحمسين يجذبونك نحو مكباتهم الجديدة الواسعة محاولين إغراءك بأسماء كتبٍ جديدةٍ ومشهورةٍ، وبين أصحاب مطابعٍ يُجاهرون علنًا بتزوير الكتب الجديدة لبيعها بسعرٍ أرخص، وبين شيوخٍ عُجُز يعرفون محتوى كل المطبوعات التي يُتاجرون فيها.. وقفتُ أبحثُ عن رجلي المنشود دون جدوى. سألتُ أحد الشباب عنه فأجابني أنه

محبوسٌ منذ شهرين، سألتُ آخر فردٍ بأنه قد قبض عليه منذ شهر.. علمت أنهم يُحاولون تضليلي وأنني يجب أن أصل إليه بنفسي.

”اتفضل اقعد يا أستاذ يحيى.. ده لطفي باشا أبو الخير بنفسه موصي عليك!“.. هكذا بدأ الرجلُ تحيته بعد أن أعياني السبيل إلى متجره، استغرقني البحثُ عنه الكثير من الوقت والجهد والمال والأكثر من عبارات ”وربنا أنا مش بوليس!“.

كانت مكتبته- عكس توقعي- صغيرة مُتربة أقرب إلى الكشك الكبير، وبرغم هذا ظهرت هيئته واضحة على وجوه جميع من حوله، جذب مقعدًا خشبيًا مفككة أقدامه ومسحه بيده مرتين وأشار إليَّ كي أجلس عليه، ابتسم محيياً ليكشفَ عن أسنان صفراء تتوسطها سنٌّ ذهبيةٌ كبيرةٌ، طلب من صبي المقهى المجاور لمكتبته كوبين من الشاي الثقيل دون أن يمنحني فرصةً للاختيار أو الرفض، عرفت أن اسمه المستعار ”أبو دنيا“، وأنني كان يجب أن أسأل عنه مُستخدماً هذا الاسم إذا أردت وصولاً سريعاً لمكتبته.. قلتُ له بلهجةٍ عمليةٍ:

- أستاذ لطفني فهّمك المطلوب منك ولا أشرح تاني؟

- مش حضرتك عايز كتب عن الجان والسحر والعياذ بالله؟

وصل صبي المقهى بكوبي الشاي سريعاً، كان منظرهما شديد القذارة مما جعلني أقرر عدم الشرب معه.. فاجأني أبو دنيا بالتقاطه كوبي الشاي، وقد بدأ يرتشفُ منهما بمفرده واحداً تلو الآخر دون أن يدعوني إلى تناول أحدهما، تجاوزتُ فظاظته وقلتُ مُحذراً:

- كُتِبَ أصلية يا أبو دنيا، بلاش كُتِبَ مضروبة.

وضع كوب الشاي الأول الذي أنهاه سريعاً، واقترب مني مثيراً اشمئزازي برائحة فمه البشعة، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

- إنت مش قدّ الأصلي يا يحيى أفندي.

فتحت عينيَّ على آخرهما، وتناسيتُ أنني في منطقتَه ووسط رجاله، وضعتُ سبابتي أمام عينيه قائلاً بلهجةٍ صارمةٍ:

- إنت ما عيشتش ربع اللي أنا عيشته ولا سُفّت حاجة من اللي أنا شوفتها تحت، لمَّا تبقى تتدفن في التراب يومين وترجع قادر تقف على رجلك.. ساعتها ابقى اتكلم عن اللي أنا قده واللي أنا مش قده!

حاول إخفاء فزعه من حديثي ولكن قشعريرة بدنه وحنحته قبل الردّ أفشلا محاولته، استغللتُ تفوقي النسبي عليه وأردفتُ قائلاً بلهجةٍ أمرّةٍ:

- وعائز كتب عن حوادث غريبة شبه حادثتي، وكتب عن فن الخداع السحري، ولو عندك حاجة عن راسبوتين يبقى حلو أوي.

لم أنتظر موافقته، انتزعت كوب الشاي الثاني من يده قبل أن يلمس حافته بشفتيه، أنهيته كله على مرة واحدة محاولاً إخفاء الألم الذي أحدثته سخونته داخل جوفي.. أخرج ورقةً وقلماً وكتب فيها قائمةً طويلةً من الكتب وأعطائها إلى أحد صيانه أمراً إياه بإحضار هذه الكتب من داخل المكتبة، وإن وجد عجزاً يعوضه من أي مكتبة مجاورة، كما أمره بتجميع الكتب داخل صندوق كبيرٍ ووضعه في حقيبة سيارتي.. شكرته دون أن أفقد لهجتي الجادة، وأخبرته أن حسابه مع لطفي وليس معي، فوافق على مضم.

لاحظتُ أن سيارتي صارت باليةً حين أدركتُ أن لدي الكثير من مال العربون الذي يُمكن دفعه كمقدّم لأقساط سيارة أحدث؛ سيارة تستطيع تحمّل وزن صندوق الكتب الثقيل دون أي ضرر يلحق بمكونات "العفشة".. سيارة تُثير إعجاب إيفلين وفريق العمل الذي سيكون تحت إمرتي، سيارة تليق بالشخص الذي سأكونه أمام محبيني ومريديني. اتصلت بإيفلين لتُجيبني بقلقٍ أن المعلومات عن هذا "السامح" ليست كثيرة: فهو شاب في منتصف العقد الرابع من عمره، يمتلك مصنعاً هائلاً للأسمت الذي ينوي

احتكار صناعته واستيراده قريبًا، يمتلك أكثر من قناة رياضية واجتماعية من بينها قناة "الروح" التي تنتج برامج عن تفسير الأحلام وعلوم الفلك وخلافه من المصنفات الرخيصة رديئة الصناعة، وهناك شائعة عن امتلاكه لدار "بصيص" التي يديرها لطفي وجريدة أخرى تحمل نفس الاسم من الباطن.. قلقْتُ كثيرًا حين أخبرتني أنها لم تجد له أي صورةٍ معاصرةٍ؛ فأحدث صورة مُلتقطة له كانت أثناء بداية عمله التجاري في بداية التسعينيات!

طال انتظاري أمام باب خالد، طرقتُ بابَه مرارًا وتكرارًا، ولكن صوت الأغاني كان أعلى من صوت استنذاني، بعد دقائق من الانتظار الغاضب هدأت الموسيقى فأعدتُ طرقاتي على باب خالد الذي ظهر بوجهٍ عابسٍ؛ لم يكن مرتديًا سوى ملابسهِ الداخلية التي كشفت عن زيادةٍ واضحةٍ في وزنه، حاول احتضاني ولكنني أبعدتُ ذراعيه عني باشمئزازٍ مُستنكرًا رائحة الخمر التي تفوح منه؛ توقفت عن شربها بعد ما حدث لشكري، وثبتت عنها نهائيًا بعد الحادثة. وجدتُ على مائدته الكثير من الطعام وكأسيْن بهما بقايا خمر، كما لمحتُ ملابسٍ أنثوية ملقاءً بإهمالٍ على الأرض في الطريق المؤدي إلى حجرة النوم.. قلتُ له ساخرًا:

- خمرة وحريم وطبق فاكهة كبير؟.. مش ناقصك غير
جوز عبيد يهووا عليك وتبقى كافر رسمي!

ضحك في خجلٍ مصطنعٍ، استفسر باهتمامٍ عن حالة
شكري الصحية.. اختصرتُ على نفسي الكثير من الحكي
وأشفقتُ عليه من سماع تفاصيل مؤلمةٍ قد تفسد حالته
المزاجية؛ فأخبرته أنه في خير حال وسيخرج من المصححة
قريبًا.. علم أنني أكذب فتركني أستمر في خداعه؛ كأننا
عقدنا اتفاقًا صامتًا على هذا، سألته عن سبب زيادة الوزن
وتوقفه عن الذهاب إلى جلسات "الحظ" لخدمة السكارى
فأخبرني أنه عرف طريقًا جديدًا للمال.. نهضتُ دون إذنٍ
أطالع مكتبته الكبيرة التي تحتل جزءًا كبيرًا من بهو
شقته الصغيرة؛ أدركتُ أنه على درجةٍ عاليةٍ من الثقافة
والاطلاع.. كانت المكتبةُ منظمةً برغم التراب المتكوم عليها؛
خصص فيها قسمًا للفلسفة، وآخر لعلم الاجتماع، وقسمًا
أصغر للعلوم الطبيعية والميتافيزيقا.. لم ألمح كثيرًا من كتب
الأدب العربي؛ فقط رواية واحدة تحمل اسم الكاتب "فؤاد
الغرباوي".

أخبرني أنه سيتوجه إلى المطبخ لتحضير القهوة.. رافقته
متسائلًا في قرارة نفسي عن المصدر الحقيقي للنعمة التي
ظهرت آثارها عليه.. بدأ يحكي- كأنه قرأ أفكارى- ناظرًا إلى
سطح القهوة أثناء غليانها:

- أنا اكتشفت إن أي حاجة في مصر ممكن تخسر إلا السمسة..

علقت ساخرًا:

- ودي اكتشفتها وأنت بتتسطل في أنهى قعدة؟

ضحك وأردف بجديّة:

- إنت بتقول فيها؟.. وغلاوتك يا أبو يحيى ده اللي

حصل؛ كنت قاعد مع رجل أعمال لسه راجع من برّه

وبادئ استثمار في مصر، الراجل بعد ما اتسلطن حكى

لنا عن مشكلة عنده مع الجمارك اللي جايبه منه

عيال؛ خصوصًا إنه لسه جديد على الشغل في مصر،

افتكرت إن ابن عمي في الجمارك كلمته طلح مالوش في

الشغل الشّمال.. بسّ إداني معلومة مهمة بعتهال للراجل..

صبّ القهوة في فنجانين، وأكمل حديثه أثناء خروجنا

من المطبخ:

- قلت للراجل يعمل جمعية خيرية باسم حدّ بيثق

فيه، ولتكن المدام بتاعته مثلًا، وييتدي يجيب بضاعته

من برّه تحت اسم الجمعية وسجلاتها، وبشوية فلوس

صغيرين اللعبة بتمشي مع الموظفين، وكله برعاية

مؤسسات الدولة.

قلت بجديّةٍ إن بعد فترة قصيرة ستنتهي هذه النفحة
التي أخذها من رجل الأعمال، وسيعود تابعًا لمزاجه.. ردًّا
بلا مبالاة:

- ما تخلص.. الفلوس معمولة عشان تتصرف.

ثم أردف ضاحكًا:

- بس تعرف يا طحاوي إن أول واحد اخترع فكرة الفلوس
ده كانت دماغه عالية وسارحة منه لبعد البراميل؛ راح
طبع ورق وفهّم الناس إنه قادر يشتري الأكل والشرب
والبشر.. لأ والمغفلين صدّقوا إن سعادتهم في شوية الورق
دول وبقوا يحاربوا بعض عليهم!

- طب واللي يجيب لك مصلحة فيها "شوية ورق"
كويسين؟

- أنا عايز أفضل في الضّل، صحيح الفلوس رجّعتني أدوق
متعة الحياة.. بس مش عايز أدوق عذابها ولا أتمرغ في
تراب التفكير!

وعدته بأن يظل مخفيًا عن الأنظار، حكيت له بإيجازٍ
عمّا مررتُ به خلال الأيام المنصرمة، شرحت له بإيجازٍ
الخطة التي رُسمت لي لتحقيق أنسب استغلال لحادثتي..
وبعد تفكيرٍ لم يدم طويلًا سألتني عن المطلوب منه.. كانت
مهمته سهلة: عليه أن يجلب فريق عمل صغير السن على

قدرٍ ملائمٍ من التعليم والتفكير الإبداعي؛ يقوم بمطالعة الكتب التي ابتعتها مع اقتراح كتب أخرى ومتابعة بعض الأفلام الوثائقية ومقاطع الفيديو والبرامج الأجنبية المشابهة لما سنقدمه من محتوى يهدف للتلاعب بعقول الناس، تحمّس حين ذكرتُ له الراتب الذي سيتقاضاه كرئيسٍ للفريق، ووعدني بجلب الأشخاص المطلوبين بأبخس الأثمان.

تركته مع وعدٍ بقاءٍ قريبٍ، عزفتُ عن التفكير في أي شيء أثناء رحلة عودتي إلى طحا، وَعَدْتُ نفسي- كالعادة- بحمّامٍ دافئٍ يزيحُ عن كاهلي إرهاق اليوم الطويل، كنت أعرفُ جيدًا أنني لن أستحمَّ إلا حين الاستيقاظ كعادتي، لم أرغب في التفكير أو تذكُّر أيِّ من أحداث اليوم.. ولكن هاجسًا في عقلي ألحَّ عليّ بالذهاب إلى المقابر بحثًا عن قبر جدي، وجدته أقصى حوش "آل الطحاوي" كما وُصف في دفتر منصور النحّات، على نور القمر برز اسم جدي فوق الرخامة.. اسودَّ العالمُ أمامي وطغى ظلام قلبي على الموجودات من حولي، ركعتُ على ركبتيّ أمام اسم جدي المنحوت مُستندًا بجبهتي على الرخامة الباردة التي لم تشعر بالنار المُستعرة داخلي، ارتجفَ جسدي حزينًا خائفًا دون أن تخرج لي دمعةً.. صرتُ ببساطةٍ عاريًا في هذه الحياة، إن جاز التعبير عنها بهذا اللفظ الظالم لما أراه فيها، ليت الطفولة ترجعُ يومًا؛ كنتُ أرتمي في حضن الكبار محتميًا

من مخاوفي.. لم أتوقع أنني سأصيرُ يوماً بلا كبارٍ، وسأصبح
أنا أكبر مخاوفي!

خَفَت نورُ القمر حين حجبهُ ظلُّ طويلٌ تكوّن أمامي،
حجبت ملامحه- التي أعرفها تمامًا- المكتوب على الرخامة،
نظرتُ لصاحب الظل غير مُصدِّق، شعرتُ أن عقلي يعبثُ
بي ككُرةٍ من المطاط، ابتسم رفعت في هدوءٍ وقال بلهجتهِ
الساخرةِ المعهودة:

- إوعى تغمي قلبك وتصدّقهم يا ابن أحمد الطحاوي!

دَعْنِي أَنْخَدِعْ!

الجمعة 3 نوفمبر 2006

أتميزني وسط زحام البشر الملتفين حولي؟.. ليس من الطبيعي هذه المرة ألا تعرفني؛ فأنا الآن "الشيخ" يحيى الطحاوي مُقدم برنامج "الموود"؛ البرنامج الأشهر على الساحة. قد يكون شكلي تغيَّر بعض الشيء؛ بعد أن نبتت لحيتي الشائبة قليلاً لتُضفي عليّ المزيد من وقار العلماء بناءً على اقتراح سامح أبو خاطر. لم أسلك أيّاً من تصرفات "المشايع"؛ فلم أحمل السُّبحة ولم أردد الأذكار بين اللحظة والأخرى.. كنتُ أرى في الأمر حرمانيةً زائدةً عن احتمالي. مرّت ثمانية شهور على تحالفي مع ذلك الشيطان، ودخول عالم الرأسمالية من الباب الكبير. بدأ عرضُ برنامجي منتصف شهر مايو المُنصرم؛ في البداية تباينت ردودُ أفعال الناس على المحتوى الذي لم يكن واضحاً، ولكن المشاهدين

حَسَّنوا منه حين رسموا لنا الطريق لخداعهم؛ في البداية كانت تأتيني الأسئلة والمدخلات الهاتفية بخصوص تجربتي مع الواد، فخصصت ثلاث حلقات لهذه التجربة غافلاً جزء مرضي النفسي وتجربة أمجد؛ ذكرت أنني تعرضتُ للجنة من أحد الجان الذي جعلني أبدو ميتاً في عيون الناس وما أنا من الراحلين، وأني وجدتُ طاقةً نورانيةً تحت الأرض أخبرتني أن اللعنة لن تمسني بضرٍ لأن أجلي لم يأتِ بعد، وأن القبر قد فُتِح وحده دون أن ألمسه؛ فثمة طاقةٌ شعرتُ بوجودها جعلت مني شخصاً آخر، أو بمعنى أدق كيأنا آخر.. كذبة تبدو سخيفةً، ولكن الأسخف أن هناك من صدَّقها!

استهلكتني تلك الحلقات الكثير من الجهد والحركات التمثيلية التي درَّبني عليها أخصائي تمثيل أمريكي أحضره لي سامح خصيصاً، أخبرني فيما بعد أن قصتي حققت أعلى نسبة مشاهدة في تاريخ البرامج التلفزيونية. لم تتأثر نسبة مشاهدات البرنامج- عكس باقي البرامج- بحلول شهر رمضان ومسلسلاته التي تخطف المتابعين. مع الوقت أدركت قيمة شهور الإعداد التي قضيتها معتكفاً مع فريق العمل الذي أعدّه خالد، الذي اكتشفت فيما بعد أنه مُصاب بالخرج الاجتماعي، كنا نسهر طويلاً عاكفين على القراءة والبحث في كافة الأمور التي قد مُتَحَن فيها أثناء بث البرنامج على الهواء.. تطلَّبت الكتب التي أتيت بها من الأزبكية الكثير من الوقت والجهد لقراءتها وتفسيرها، كما جاء أعضاء

الفريق ببعض الكتب "السحرية" الأخرى التي اعتقدوا أنها مهمة؛ فطالعنا كتبًا مثل: "اسم الله الأعظم" و"شموس الأنوار" و"سحر الكهان" و"الفتوح الربانية"، ونسخة لم نعلم مدى صحتها من "شمس المعارف الكبرى". ساعدتنا تلك الكتب والمخطوطات وغيرها في مباحث مختلفة على إدراك المدخل السليم لعقول الناس، وكيف نجعلهم يتلعون الخرافة ويعتقدون في الخدع.

ارتفعت قيمتي المادية والمجتمعية؛ بدأ الناس يطلبون حضوري في المناسبات والعزائم المختلفة بمقابل مادي لتحلّ عليهم بركتي المزعومة، أصبحت شخصيةً عامّةً مطلوب رأيها في كافة الأمور الدينية والدنيوية، يجب أن أبتسم دائماً وأظهر ودوداً، طالنتي حملات هجوم مكثفة ولكن أصواتها كانت خفيضةً، جاءتني مكاملةٌ وحيدةٌ من طليقتي مي لم أردّ عليها لانشغالي في العمل، نجحت علاقات سامح أبو خاطر في وأد كل الأصوات المعارضة لما أفعل.. فيما عدا صحيفة كهلة تُدعى "تهاني درويش" تُرسل خلفي الكثير من الصحافيين الشباب لالتقاط أي غلطة ارتكبتها، ومن ثم تكبيرها وتحويلها إلى زلة.

مع الوقت اعتدنا استلهاً محتوى الحلقة مما يشغل بال العامة؛ فذاك رجلٌ يؤمن بالأبراج يُوحى إلينا بتخصيص حلقة عن الفلك، وتلك ربة بيت شاهدت حلمًا سخيلاً

تسعى لتفسيره، وفتاة تسأل عن الجاثوم الذي تشعر
بلهيب أنفاسه ليلاً، وطالب يسأل عن كيفية تقوية الذاكرة
من أجل امتحانات الثانوية.. إلى آخره من طلبات العوام
الذين يبحثون عن العَرَض مُتناسين المَرَض. أدركت أنني
حين وافقت على عرض سامح قد انطبقت عليّ جملةُ
العبقري عبد المنعم مدبولي حين قال: "كنتُ مغفلاً".
انتهيتُ من تصوير الحلقة قبل الأخيرة من الموسم؛ والتي
كانت عن القرين.

حين انتهيت من التصوير قوبلت - كالعادة - بتصفيقي
عاصفٍ من جميع العاملين في الأستوديو الواسع المزين
بالعديد من التحف القديمة مُفزعَة المنظر؛ لم أعرف يوماً إن
كان تصفيقهم لنجاح ما نُقدمه مع الناس، أم مجرد خوفٍ
مني وتجنُّبٍ لردود أفعالي التي تفرعهم حين لا يسير العمل
كما ينبغي. لكن خالد وقف متجهماً في زاويةٍ من "البلاتوه"
دون أن يُصفق أو يقترب لالتقاط الصور التذكارية معي
كالباقين. من سياسات البرنامج التي وضعتها مع خالد في
البداية ألا نقوم بعمل أي خدع صريحة على الهواء أو ادعاء
أية قدرات خارقة لتجنب قضايا الدجل؛ اكتفيتُ بعمل
مثل هذه الخدع في صومعتي التي اتخذتها في قرية "طحا"
تاركين الدعايا لأفواه الناس والشائعات المُتناقلة التي تُحيل
أي موقف عادي إلى حدثٍ خارقٍ للطبيعة! توجَّهت سريعاً
نحو غرفتي لتغيير الملابس، كانت - على رغم صغر حجمها -

أفخم غرفة في الأستوديو، لم أضع فيها إكسسوارات وتحفًا مماثلة لتلك القابعة في خلفية برنامجي؛ لم أشأ أن أصدق أكاذيبي التي أبيعها للناس، دخل الفراش بعد استئذانٍ ونحنحةٍ واضعًا كوب الينسون أمامي بيدٍ مُرتعشةٍ، حيّاني بلقبي الجديد "مولانا"، مال على أذني هامسًا لأومئ له برأسي، تردّد في الخروج من الغرفة حتى أعطيته ورقةً من فئة المائة جنيه شقّت البسمة على وجهه ونثرت الدعاء على لسانه. ما أعظم أن يؤمن بك الأتباع؛ وقتها تكون أموالك مجرد نفحة رضا يُمكن الاستغناء عنها...

اقتحم خالد غرفتي دون استئذانٍ، صب جام غضبه عليّ مُعلنًا استقالته من البرنامج، حاولتُ تهدئته ففشلت، كان سخطه على محتوى برنامج "الموءود" يتزايد يومًا بعد يومٍ؛ بدأ بسلسلةٍ من الاعتراضات على الحلقة التالية لحلقات حادثة وفاقي، وتزايد مع حديثي عن تفسير الأحلام وأمور الفلك، وتعاضم بعد حلقة اليوم.. لم أستطع فهم اعتراضه على ما أعددناه واتفقنا عليه معًا.. نظرتُ إليه مليًا؛ حاولت تفرّس سبب اعتراضه، طلبت منه بلهجةٍ خانعةٍ أن يجلس لأحاول إرضاءه.. جلس نصف جلسةٍ على المقعد المقابل لمقعدي المستقر أمام مرآة التسيريحة، منتظرًا مني أن أبدأ الحديث.. تعمّدت استفزازه قائلاً:

- مالك اليومين دول يا خالد.. تحب أقوم أرقيك؟

- إنت هاتبيع لي بضاعتي يا يحيى، ده إحنا دافنيه سوا!

حاولت تهدئته وامتصاص غضبه؛ فضحكتُ متسائلاً عمًّا إذا كان يعرفُ القصة التي زُعم أن هذا المثل الشعبي قد جاء منها.. لم يرُد فأكملت حديثي ساردًا أصل المثل كما حُكي لي:

- بيقول لك زمان كان فيه إثنين صحاب بيسافروا بالحمار بتاعهم من بلد للتانية، كانوا بيحبوه ويعتمدوا عليه في كل حاجة وسموه "أبو الصبر".. مرة وهما مسافرين الحُمار وقع مات منهم؛ فدفنوه زي ما يكون صاحبهم بالضبط وقعدوا جنب قبره يعيِّطوا، وكل ما حدّ يسألهم يقولوا له: "أبو الصبر مات.. الي كان بيهوّن علينا السفر ويشيل حمولنا مات!" الناس افتكروهم بيتكلموا على ولى عنده كرامات وبدأوا يعيِّطوا معاهم ويطلبوا البركة من "الشيخ" أبو الصبر. بنوا خيمة حوالين القبر، شوية والخيمة بقت أوضة والأوضة بقت مقام.. وفي مرّة اختلفوا وهمًا بيقسّموا فلوس صندوق النذور الي في المقام؛ فواحد منهم قال لصاحبه هاشتكيك للشيخ أبو الصبر...

قاطعني خالد قائلاً بفهم:

- فطبعًا الثاني قال له: "أبو الصبر مين؟.. ده إحنا دافينيه
سوا!.." بس ماخدتش بالك يا طحاوي إن في حكايتك
الناس طلعت في الآخر ماشيه ورا حُمار!

ضحكتُ ضحكةً مفتعلةً وابتلعتُ الإهانة مطمئنًا إياه
أننا لن نصدق كذبنا، ولن نأكل في نفس المكان الذي
نُخرج فيه فضلاتنا، طلبت منه الاستمرار معي حتى الحلقة
القادمة التي ستكون آخر حلقة في الموسم سنين؛ هدم
أساسات الوعي لدى الناس، وضربهم في آه.. أخبرني أن ما
نفعله بمثابة مَوْضِعِ اللَّيْبَةِ الذي يتمم للنظام الحاكم هيكل
الأمية والجهل الذي يشيده منذ زمنٍ، واختتم حديثه بلهجةٍ
عمليةٍ قلما أسمعها منه قائلًا إنه خرج عن اعتزاله الدنيا
وعن باقي مبادئه بسبب المال ليس إلّا.. كان تلميحه واضحًا
فأجبتُه أنني لن أستطيع أن أزيده من المال؛ فهو يقبضُ
أضعاف طاقم العمل كله ويكاد راتبه يقترب من راتبي،
ولكن إسرافه في الإنفاق على ملذاته التي أدمنها يخل بتلُّ
الأموال التي يتقاضاها.. صرخ فيَّ أنه ليس مدمنًا؛ فلا هو
يحك أنفه ولا يتهرَّش أمامي!

نهض غاضبًا معلنًا انتهاء الحوار، اتصلت على الفور
بجبران الذي صار سائقي الخاص وأحد أهم مساعديني،
طلبت منه مراقبة خالد وإرسال سائق سيارتي الأخرى كي
يُقَلني من الأستوديو. نظرت إلى صورتي مع خالد وطاقم

العمل الأساسي أيام الإعداد لهذا البرنامج؛ كم تغير شكله وازداد وزنًا على وزنه، كما زاد لمعانُ بشرته السمراء التي كانت خافتةً باهتةً فيما مضى. كدتُ أغادر الاستوديو قبل أن أصطدم بمعاذ عصفور الذي حمد الله أنه لحق بي قبل أن أغادر، عاتبني سريعًا على تجاهل اتصالاته، أخبرني أن قضية الحَجْر المرفوعة ضدي سيتم النظر فيها بعد غدٍ ويجب أن أجلس معه غدًا للاتفاق على صياغة المرافعة المثلى للرد على حجج أهلي الكثيرة، أخبرته بحزمٍ أنني في غنى عن مرافعته.. وليَقْضِ اللهُ أمرًا كان مفعولًا؛ فأنا لن أحضر الجلسة من الأساس!

فور وصول خالد إلى مقر جريدة "شمس مصر" استقبلته تهاني درويش رئيسة التحرير بنفسها، أدخلته مكتبها وسط زحامٍ من الصحفيين الشباب الذين يُدركون-بحكم عملهم- أهمية خالد كونه ذراعَ يحيى الطحاوي الأيمن وأهمية انضمامه إلى معسكرهم في تحقيق مسعى رئيستهم في تقصي حقيقة الموءود.. اندهش خالد من الشهرة التي ذاق طعمها لأول مرةٍ في هذا المكان؛ فدائمًا ما ينصرف الناس عنه لصالح نجم العرض الأول: يحيى.

طلبت تهاني من سكرتيرها الشخصي إحضار أي مشروبٍ يطلبه خالد، وأن يجلب لها جهاز التسجيل الخاص بإجراء

الحوارات الصحفية.. التقط خالد قلمًا وورقةً من فوق مكتب رئيسة التحرير، كتب رقمًا مناوئًا الورقة إلى تهاني التي اندهشت حين عرفت ثمن رأس يحيى الطحاوي، وبعد تفكيرٍ قصيرٍ أبدت موافقتها ليعدها خالد بتسليم رأس حليفه السابق على طبقٍ مائي.

وكان تهاني كانت تنتظرُ هذه اللحظة بفارغ الصبر؛ فأخرجتُ ورقةً ملخصةً فيها أهم الحوادث التي وقعت عقب ظهور يحيى على الساحة: بداية من خبرٍ صغيرٍ عن حادثة دفنه بصورةٍ خاطئةٍ، مروراً بإعلاناتٍ ترويجيةٍ لكتابه وبرنامجهِ التلفزيوني الذي يعرف فيه معلومات عن المتصلين دون أن يتحدثوا مع فريق الإعداد، وانتهاءً بالكلام المنثور عن قدراته غير العادية التي يظهرها داخل صومعته في طحا، وكيف جعلت الناس يظنون أنه ولي صالح.. وعدها بإخبارها الحقيقة وراء أغرب الشائعات التي طاردت يحيى، شغلت المُسجِّل ونظرت في الورقة التي أمامها وقالت:

- علاج شاب من مَسِّ الجن، عمل أحجبة محبة، فرقة الكورة اللي كسبت النهائي بعد زيارته للنادي، استعادة صندوق النذور المسروق من مسجد قريته، إعطاء دور بطولة للفنانة نانا الحفناوي برغم إن المخرج كان رافضها وشايفها أكبر من الدور بعشر سنين.. إزاي عمل كل ده؟!!

اعتدل خالد في جلسته وبدأ يسترسلُ في حديثه قائلاً:

- بالنسبة للبرنامج.. فالإنتاج كان موفر لنا موظفين يشتغلوا في شركات المحمول بياخدوا الأرقام ويجيبوا لنا بيانات أصحابها قبل ما يحيى يكلمهم، والخط اللي مش متسجل على الكنترول ما بيدخلوش على الهوا من أساسه.. تفسير الأحلام والأبراج بيكون اجتهاد وذكاء شخصي من يحيى؛ كده كده فيه حقايق ثابتة في حياة كل واحد وصفات مشتركة لكل الناس.. يلعب عليها لحد المتصل ما يفضح أي جزء من شخصيته، ما تنسيش إن في الشهور اللي فاتت يحيى بقى عنده مخزون ثقافي كبير في مجالات زي الفراسة وعلم النفس وتفسير الأحلام، ده غير ذكائه الشخصي وتأثير التجربة اللي مرّ بيها عليه.

أشارت إليه أن يستمرّ في الحديث، فأردف قائلاً:

- موضوع المسّ ده كان مجرد شاب فقير مصابٍ بالصّرع، حدّ من فريق الإعداد عرض عليه تحمل إنتاج البرنامج لتكلفة العلاج كاملة مقابل إن أول ما تيجي له النوبة يكلم الطحاوي ويتقابلوا في الصومعة ولمّا النوبة تخلص يخرج هو وأهله يدعووا ليحيى ويحكوا لكل الناس عن اللي حصل، الناس هناك مؤمنة بيحيى فوق ما تتخيلي، فإيمانهم بيخليهم يصدقوا كل حاجة.

وما حدّث طلب من يحيى أحجبة محبة غير شاب
اسمه جورج، بس أقنعه إن البنت اللي عينه عليها مش
هاتسعده في حياته.

- مسيحي راح لدجّال مسلم؟!!

- الجهل مالوش دين.

- واقتنع؟

- ما بتشوفيش الطحاوي في صومعته بيكون عامل إزاي؛
غول بعيد عنك، أنا نفسي ساعات بأصدقّه.. بس
موضوع الفنانة ده بقى اتحلّ من فوق؛ يحيى كلم
سامح أبو خاطر وقال له إن الموضوع ده هايفرق معاه
وهايشهره في وَسَط مهم، وفجأة المخرج اتغير ونانا
بقت البطلة!.. وفيه حاجات بقى لسّه ما فهمتش
عملها إزاي.

لم تخبره أنها ستحذف الجزء الذي تحدّث فيه عن
سامح أبي خاطر.. وسألته باهتمام:

- زي موضوع فريق الكورة؟

هزّ رأسه نافيًا وقال بحيرة صادقة:

- ده ممكن يكون حظ.. بس أنا قصدي على الحادثة
اللي شهرته من الأساس؛ لما الدكتور وكل الناس قالوا
إنه ميّت ودفنوه.. إزاي رجع تاني؟!!

دخلتُ جريدة "شمس مصر" وسط دهشةٍ ورهبةٍ من جميع العاملين بها، لم يجرؤ أحدٌ على اعتراض طريقي، فكَرَّ السكرتير في النهوض كي يسبقني إلى مكتب تهاني محذرًا، ولكن إشارةً واحدةً من إصبعي منعتَه وجعلته يُؤثر السلامة.. اقتحمتُ غرفة المكتب والتقطت أذناي جملة خالد "كل الناس قالوا إنه ميت ودفنوه.. إزاي رجع تاني؟!".. لم يكن خائفًا من "الشيخ الطحاوي" بقدر فزعه من رؤيته في هذا الموقف من قِبَل "صديقه" يحيى.. نهض مناديًا باسمي فأشرتُ إليه بأن يصمتَ ويجلسَ، كذلك أشرتُ لتهاني أن تفعل، جذبت أقرب مقعدٍ وجلست معهما قائلاً:

- عايزة تعرفي رجعت إزاي يا مدام تهاني؟!

قالت تهاني مُعترضة:

- آنسة من فضلك.

نظرتُ إليها من أعلى إلى أسفل وضحكتُ قائلاً:

- حلو ده.. نسيب السر الي محيّر سبعين مليون نَسمة

ونشوف الهانم ما اتجوزتش ليه!

سألني خالد عن سرِّ عودتي بتحدُّ واضحٍ مُتناسياً موقفه

الضعيف المُتخاذل.. جذبتُ جهاز التسجيل من يد تهاني

عَنوَةً، اعترضتُ على فعلتي ولكنها تجنَّبت لمسي.. وضعتُ

المسجل في جيبى بمنتهى الهدوء، قلتُ بعد أن اتسعت
عيناى ونظرتُ إلى خالد:

- جاي أنقذك من نفس مصيري الي حوّلني للشيء الي
قدّامك..

بدت الحيرةُ على كليهما، أكملتُ حديثي بعد أن أدركتُ
أنني قد ظفرت بكامل الاهتمام:

- جن كافر مطرود من عشيرته؛ أقنع قريني إنه يخليني
أبان ميت للناس وأنا واعي لى بيحصل ومش قادر
أغيره.. لعننى بأقذر لعنةٍ ممكن حدّ يتلعنها، ولولا
رحمة ربنا مكانش زمانى وسطكوا.

ضحك خالد قائلاً إنني قلتُ نفس الحديث الكاذب في
البرنامج، قال لى: "إلعب غيرها يا شيخ" .. رددتُ بجديّة دون
أن أرمش:

- أنا مش جاي ألعب، وكنت بحاول أفهمك قبل ما
تسيبنى وتمشي...

نهضتُ من مكاني، لمحتُ تهاني تتراجع في مجلسها
خائفةً، أمسكتُ بكتفي خالد قائلاً بجديّة:

- أنا عايز ألحقك؛ نفس الجن بيحاول يقنع قرينك إنه
يكرر نفس اللعنة عليك، وتقريباً قرينك وافق!

ضحك خالد وردد كلامًا من نوعية أنه لن يشتري الوهم،
وأن بضاعتي صارت خاسرة.. لم أرد. استغلّت تهاني صمتي
وعلا صوتها مُنادية العاملين بجريدتها الواقفين خارج غرفة
المكتب مُترددين بالدخول.. لم أبدأ أي ردة فعل.. هددتني إن
لم أرد لها جهازها وأرحل فستطلب لي الشرطة فابتسمت لها
بهدوءٍ.. نظرتُ إلى خالد الذي لم ينبس حرفًا منذ دقائق،
تصبّب عرقًا مُمسكًا موضع قلبه يُحاول الاستنجاد من
شدة الألم فخرجت صرخاته فحيحًا، ظل هكذا حتى انقطع
نفسه.. وسقط على الأرض في الحال.

كُلُّ حُلَفَائِكَ..

الأحد 5 نوفمبر 2006

نظرتُ لساعة يدي الباهظة منتظرًا إيفلين في المطعم الذي اعتدنا اللقاء فيه من آنٍ إلى آخر، كم تطورت علاقتنا سريعًا بعد العمل معًا، ساعدتني معنويًا وعلميًّا في تكوين شخصيتي الجديدة التي أخفيها الآن خلف نظارةٍ سوداءٍ أطالع من خلفها الجالسين داخل المكان؛ كان عددهم غير كثيرٍ بحكم التوقيت الذي جاوز الظهر قليلًا، كما لعب غلو المكان عاملًا مُساعدًا في خلوه. في بداية شهرتي كان اللقاء يتم في أماكن عادية؛ فلا نستطيعُ إتمام جُملةٍ واحدةٍ دون مقاطعة المتطفلين الذين يطلبون مني البركة أو التقاط الصور التذكارية أو استشارة في أيِّ من مشاكلهم البغيضة.. تلك التي تُشبه رائحة أنفاسهم وعرقهم المكتوم حين تداهمني أثناء تقبيلهم لي بلا داعٍ. أثار تقبيل الرجال

وعناقهم الطويل لبعضهم البعض اندهاش إيف في بداية تعرفها على طبائع المصريين حين أقبلت أول مرة بصحبة زوجها السابق.

لمحتها خلال واجهة المطعم الزجاجية تُحاسب سائق السيارة الأجرة وتُجادله في قيمة التعريفية؛ أعتقد أنها ورثت هذه العادة من أمجد الذي كان يكره أن يطلب الناس أكثر من حقهم. طلبتُ من النادل قائمة الطعام، نظر كلُّ منا في خاصته.. بدأتُ مؤخرًا أنظر إلى الرقم المقابل للصنف قبل معرفة مكوناته؛ فإذا كان السعر كبيرًا لفت انتباهي إلى الخانة المقابلة. لم تفتح إيف القائمة الموضوعة أمامها من الأساس، طلبتُ لكلينا نفس الوجبة، سألتها عن الأكلات في بيتها الأم فجاءتني إجابتها مُقتضبةً؛ لم أعرف إن كان لجهلها بالمطبخ الألماني، أم لقلة مأكولاته وضعف جودتها. حاولتُ ثانيةً إبعاد دفة الحديث عما تنشده فلم أفلح.. عاجلتني بحديثٍ غاضبٍ قائلةً بصوتٍ حاولتُ خفضه إنها تتعجَّب من عدم مبالاتي وفتوري التام تجاه قضية الحجّر؛ التي سينطق الحُكم النهائي فيها بعد قليل، سألتني عن السبب الحقيقي وراء عدم حضورني الجلسة في المحكمة، لم تنتظرُ إجابتي؛ انهمتنى بالسلبية والتقاؤس.. لم أحاول الدفاع عن نفسي.. أخبرتني أنني أدمنتُ الشعور بدور الضحية التي لا تُريد التمرد على الظلم الواقع عليها؛ ليظل حجة تُبرر بها جميع إخفاقات الحياة.

نظرتُ مباشرةً إلى عينيها وقلتُ مُبتسماً:

- تعرفي إنك لما بتكشّري عليّ بتكوني حلوة؟

أشاحت بوجهها في الجهة الأخرى دون أن ترد، فقلتُ مُبرراً:

- مش هاروح أقف قدام عيلتي في المحاكم، وبالذات ناجي؛ مهما عمل هايفضل أخويا.. بعدين عارفة الصحافة لو شمتّ خبر زي ده ممكن يحصل إيه؟ استمرّ تجاهلها، فأردفتُ قائلاً إن الفضيحة ستصل إلى شاشات التلفزيون؛ سينتهز المتربصون بي من المنافسين الفرصة لعمل حلقاتٍ كاملةٍ عن القضية مُستضيفين أقاربي في برامجهم.. سألتني عمّا سأفعل إن خسرتُ القضية وخسرت معها كل أموالِي.. قلتُ لها بهدوءٍ:

- معاذ عصفور قال لي إنه- على سبيل الاحتياط- قدر يستغل ثغرة في حصر ممتلكاتي، وجاب لي شيك بتاريخ قديم عشان أكتبه باسم أي حدّ بأثق فيه يقدر يرجعه لي بعد القضية لو خسرت كل حاجة.

سألت إيف بقلقي عن اسم المستفيد من الشيك.. فأجبتُها مُبتسماً أنه مكتوبٌ باسمها.. حاولت إخفاء ابتسامتها الخجولة، تساءلت بلهجتها المكسرة:

- للدرجة دي وثقت فيّا؟

- للدرجة دي حبيتك.. حبيتك عشان إنتي الأنثى الوحيدة
الي ما بكونش مصطنع معاهها؛ ما بفكّرش في كلام
أضحكك بيه، ولّا بأحكي مواقف من خيالي تبين لك
رجولتي.. ما بحاولش أكون حدّ تاني.

ضحكتُ في خجلٍ قائلاً:

- أقول لك على سرّ؟.. أنا عمري ما شفطت كرشِي وأنا
معاكي!

ضحكت ضحكة طويلة بادلتها بأخرى، كانت على علمٍ
بحبي لها منذ اليوم الذي جعلتها تُرافقني إلى طحا؛ حاول
بعضُ النسوة مضايقتها بنظراتهن وكلماتهن الجارحة التي
قيّمت إيف من ملابسها الضيقة وشعرها الأحمر فاتح
اللون الذي يلمع كخيوط الشمس وقت الشفق. اصطحبتها
إلى المنزل غير عابئٍ بنظرات البعض، تجنّبت دعوات قريباتي
كي أزورهن، كما حذرتُ إيف من التعامل مع إحداهن
بشكلٍ مباشرٍ؛ فقد تعلّمت من زواجي الأول قيامهن
ببعض الأعمال والأحجبة السحرية التي يعكفون على دسّها
في الطعام أو الشراب المُقدم أو بين ثنيات الملابس والأثاث،
أدخلتها غرفة النوم التي ورثتها عن أبي، وأطلعتها على أعظم
ممتلكاتي: صندوق العطور الذي أحفظ به منذ وفاة أبي
وأمي، أحفظ داخله بزجاجاتِ العطر التي كان يستعملها
كل أحبائي الراحلين فأستنشقها حين أشتاق إليهم.

سألني إيف عن نتائج التركيبة التي وضعتها لخالد في مشروبه أثناء وجوده في الأستوديو، أخبرتها أن مفعول التركيبة بدأ في الميعاد الذي كنتُ أرغبُ فيه تمامًا.. فحملتُ خالد مُسرَّعًا بمعاونة السكرتير داخل سيارتي مُفَنِّعًا تهاني أنني سأتوجه به إلى أقرب مستشفى، تعمَّدت أن أصطحبها معنا في السيارة. أخبرتُ إيفو أن حسابها لوقت بداية عمل التركيبة الثانية كان دقيقًا إلى حدِّ كبيرٍ؛ فحين أدركتُ أن لحظة الإنعاش اقتربت.. توقفت على جانب الطريق، أمسكتُ برأس خالد الساكن تمامًا، لم أعبأ بصرخاتِ تهاني الأمرة بأن أسرع نحو المستشفى.. تلوَّتُ عليه بعض الكلمات المنمقة المختلطة ببعض آياتٍ من القرآن، أعدتُ كلماتي عليه ونوَّعت في نبرة صوتي وأدائي، ازداد الجوُّ سخونةً وتصبَّبت جبهتي عرقًا بعد أن تعمَّدت إطفاء مكيف هواء السيارة وإغلاق الشبابيك.. بدأت التركيبة الثانية تُظهِر كراماتها على خالد الذي ارتجف رجفةً أعرف أعراضها جيدًا منذ أن راودتني تحت الأرض.. استجاب خالد للتركيبة وعاد مفزوعًا لاهث الأنفاس. صرخت تهاني كاشفةً عن أسنانٍ صفراء وبَدَأَتْ تستعيدُ بالله مما رأَتْ، طلبت مني العفو على افترائها في حقي.. أشفقْتُ عليها، ولكن وجب عليَّ أن أتقن دور الشرير الذي أحببته؛ قلتُ بلهجةٍ رصينةٍ مُهدِّئًا من روعها إنه لم يمت في الحقيقة؛ فلَعَنته أعمت بصيرتنا عن حياته كي يواجه مصيرًا

مُشابهًا لما واجهته، لعنتُ اسمًا من أسامي زعماء الجان
أمامها حتى أطمعها كذبتني.

ضحكت إيف، حاولت الأكل بشهيةٍ متناسيةً القضية التي
نتظر معرفة الحكم فيها؛ وعدني معاذ أن يتصل بي فور النطق
به.. أخبرتني بقلقٍ أن بحثها عن علاج من آثار التركيبة لا
يزال جاريًا.. قلتُ لها إنني أثقُ في نجاحها تمام الثقة؛ وإلا
ما أعطيتُ التركيبة لخالد مُعرِّضًا حياته للخطر، فكرتُ قليلًا
ثم سألتها عن أحلى بلد زارتها في حياتها.. أجابتني أن الهند
كانت الأجمل، سألتني نفس السؤال.. خجلتُ من إخبارها
أنني لم أغادر مصر طوال عمري؛ فأجبتُها مراوغيًا:

- أحلى مكان زرتُه؟.. عينيكي طبعًا.

ضحكت قائلةً إنني تعلَّمتُ المُجاملات والتملُّق على
كبر.. لم أرد، فكرتُ قليلًا ثم قلتُ مُفاجئًا:

- أنا بقالي فترة بفكر أهاجر برّه مصر، وبدأتُ إجراءات
لكده فعلاً؛ عايز أبدأ حياة جديدة مع ناس ما
تعرفنيش ولا تعرف حكايتي.. تحبي تهربي معايا؟

اعتاد معاذ العمل تحت أسوأ الظروف والخروج منتصرًا
من أضييق الثغرات بأضعف حجج التي-غالبًا- لا يُصدقها
طفل، ولكن القانون لا يعترف إلا بالمستندات التي قد تدعم

أو تهدمُ منطق القضية.. كانت تلك المرة الأولى التي يرفضُ فيها الموكل الحضور أو حتى مساعدة الدفاع على تقديم البراهين اللازمة لإبطال الادعاء. وقف ناجي في فخر طفولي كالتلميذ الذي أفحم أستاذه؛ تذكّر لحظة تقدّمه للتدريب والعمل في مكتب معاذ وسط مئات غيره من الطامحين في وظيفةٍ مع واحدٍ من أشهر محاميي مصر، طالما رأى ناجي في معاذ عصفور إلهاً لما يُريد أن يكونه؛ فعصفور لُفِظَ من سلك القضاء ليعود إلى منظمة العدالة أقوى مما كان؛ مرتدياً روب المحاماة.. تمر الأيام ويتألق في زيّه الجديد، يذيع صيته فيخشاها الجميع متجنبين بذاءة لسانه الطعّان الذي يتلفظ بألحن الألفاظ، وعقله المنتبه للكثير من ثغرات القانون.

كانت غرفةُ الجلسة السرية بسيطةً قليلة الأثاث.. ووقف أمام القاضي كلُّ من ناجي وعطوة وnergس في جهة، ومعاذ عصفور مع أحد مساعديه في جهةٍ أخرى، كان مصير القضية واضحاً في عيون جميع الواقفين، لدرجة أن ساعي المحكمة أدرك وهو يضع القهوة الخاصة بالقاضي أن الكفة ستميل نحو الطحاوية حين رأى نظراتهم، وقارنها بالقلق البادي على مساعد معاذ الذي كان يقضم أظافر يده. تقدّم ناجي بالملذكرة الوارد بها كل ما يُقوِّي ادعاءه بعدم أهلية يحيى للتصرّف في ممتلكاته؛ بدايةً من شهادته بحكم كونه أخ المدّعى عليه والأجدر بالتصرف في أملاكه، مروراً بشهادة كل من عطوة الذي حضر ليؤكد شهادته شفهيّاً، وشهادة

فرحات الذي رفض المجيء مُكْتَفِيًا بالتوقيع على ما كتبه ناجي، وشهادة نرجس مُرفَقًا معها تقريرًا طيبًا للإصابات التي أحدثها يحيى بجسدها مثبتةً بتاريخ بعد حادثة الدفن، وبعض شهادات أهل القرية الذين أقرُّوا بأنهم يستمدون البركة ويلتمسون الفرج من يحيى أثناء مكوثه في صومعته، إضافة إلى بعض حلقات برنامجه التي يقرُّ فيها بنفسه بالواقعة المؤلمة التي حدثت له وكيف أثرت عليه وعلى نظرتَه للأمور الدنيوية.. طعن عصفور في كل الشهادات لأن أصحابها منتفعون من الحَجْر وخاصة ناجي، واضعًا خبر اقتراب غلو سعر الأرض أمام عين القاضي.. ولكن ناجي الطحاوي حسم القضية سريعًا واضعًا اسمه وسط محاميي الصف الأول في مصر؛ فأخرج شهادةً مكتوبةً بخط يد الضابط الذي أقرَّ فيها أنه حين أتى المنزل وجد يحيى يسأل عن جده الذي تُوفي منذ زمنٍ بعيدٍ مُتحدثًا عنه بصيغة الأحياء!

طلب ناجي الإذن لدخول الصحافية تهاني درويش التي أخبرته بأن لديها ما تُدلي به في القضية، فوجئ بدخول تهاني بصحبة فرحات وبعض من الأقارب ليحيى وأهل طحا في منظرٍ أثار غضب القاضي.. أصرَّ على طردهم لولا أن مساعد معاذ عصفور أكَّد له متوسلاً أن وجودهم سيحول مجرى القضية.. شهد جميعهم برجاحة عقل يحيى الذي لم يسأل أحدهم مالاً ولم يأخذ إن عُرض عليه، بكى فرحات

مُذَكَّرًا عطوة وناجي من جزاء شاهد الزور عند ربه، لاعتنا المرض والعَوَز الذي أحوجه إلى القდوم على مثل هذه الفعلة، ترخَّم على المهندس أحمد رفعت الطحاوي الذي كاد أن يظلم أولاده لصالح أخيه؛ وكأن الزمن يُعيد نفسه ويختبره من جديد.. فرفض هذه المرة الفشل في الاختبار، أخبر القاضي أن العُمر لم يعد فيه وقتٌ للاستغفار والتكفير عن ذنبٍ بهذا الحجم. بحركةٍ خفية وضعت تهاني ورقةً صغيرة الحجم في يد نرجس في ظل دهشة الأخيرة.. عادت الحياةُ إلى معاذ الذي استغلَّ الموقف وسأل القاضي سعة الصدر لسماع المزيد من الشهادات.. طلب ناجي من تهاني مُتَرَجِّبًا أن تسرد على القاضي ما توصلت إليه من خلال تحقيقاتها الصحفية المستمرة عن يحيى؛ فردَّت بصدق أنها وجدت في يحيى قدراتٍ تفوق البشر، وأنها تختلفُ مع طريقته في العمل ولكنها تؤمن مطلقًا بأنه شخصٌ على قدرٍ كافٍ من راحة العقل والكفاءة المطلقة لإدارة أملاكه، لم تذكر تفاصيل الموقف الأخير الذي جمعها به ولكنها لمحت إليه تلميحًا لم يستوعبه خيالُ القاضي.

جاءت الضربةُ الأخيرةُ حين احترق معسكر ناجي بخيانةٍ من نرجس؛ التي بكت معترفةً أن يحيى ضربها لسببٍ وجيهه تتمنى أن يسامحها الله عليه، وأن الضرب تم قبل حادثة دفنه عكس المذكور في التقرير الطبي. فتح ناجي أزرار بدلته وعدل قليلًا من وضع رابطة عنقه لأسفل.. جفَّ

ريقُ عطوة ولم يجد ما يقوله.. أصرَّ ناجي على ادعائه الوارد في مُذكرته الورقية مُحكمة الصياغة.

طلب القاضي من الجميع الخروج، وقد بدا عليه الضجرُ من الطريقة التي انتهت إليها الأحداث؛ فقد أخذت وستأخذ الكثير من وقته، فهناك تُلُّ من القضية التي نظر فيها قبل هذه، وتُلُّ مماثلٌ بعدها تحتلُّ أرقامه "رول" الجلسة. انتهى القاضي من النظر في مستجدات القضية سريعًا، واستدعى ناجي وعصفور على انفراد، أعلن عليهما ما آل إليه قراره وارتاح إليه ضميره في تحقيق العدالة: فقد حكمت المحكمة- بعد الاطلاع على الأوراق وسماع الشهادات وما إلى ذلك من ديباجة النطق بالحكم- ببطلان دعوى الحَجْر المُقامة من ناجي الطحاوي على أخيه يحيى الطحاوي، وتكليف الأول بأتعاب المحاماة.

أمرتُ جبران أن يستقل سيارة أجرة تُعيده إلى منزله بعد أن ابتاع لي زجاجة مياه معدنية وبعضًا من الحبوب المُسكنة لتقاومَ آلام ظهري التي حلَّت بي بعد الحادثة ولم أعتدُ عليها بعدُ، كما لم أعتدُ ضعف بصري الذي صَعَّب عليَّ القيادة ليلاً. توجَّهتُ إلى ترعة القرية حيث أقضي أمسياتي مؤخرًا؛ تجنُّبًا لصحبة الناس، وملاذًا يحميني من الهلاوس المتعلقة بظهور جدي رفعت- الذي بدأتُ أعرّفُ

برحيله - في محيط المقابر. وجدتُ ملاذي المزعوم في صفحة المياهِ الصافية؛ ألقى فيها الحصى وأشاهد اختفاءها تاركَةً خلفها موجاتٍ اهتزازيةً يقل تردددها في ثوانٍ حتى يختفي، ليعود سطح الماء أملس كما كان. شعرتُ بحركةٍ من خلفي، لم أعبأ بها كما اعتدتُ مؤخرًا ألا أهاب ولا أبالي لأي خطرٍ بشري مُحتملٍ؛ فقد تولدت عندي هالةٌ من الرهبة التي تقيني شرَّ هؤلاء.. ألقىتُ الحجر في الماء لأسمع صوت رفعت الذي افتقدته يقول:

- طول عمرك غشيم وبترميها غلط؛ ميّل إيدك على جنب وارميها بعرض التربة؛ بحيث تمشي أكبر مسافة مُمكنة في الهواء.. عشان الزلطة تدخل المية وتطلع كذا مرة.

نظرتُ إليه دون أن أردً، حاولتُ التفكير في شيءٍ آخر يصرفني عن تلك الحالة الذهانية التي تُطاردني؛ سرحتُ في أحداث اليوم حين جاءني اتصالٌ معاذ عصفور المنبهر بما حدث داخل قاعة المحكمة.. أظن أنه قريبًا سيصبح من دراويشي وسيكف عن امتصاص خُمس ثروتي أتعابًا له. قلتها له ولخالد من قبله: "أهم شيء هو إيمان من حولك بك.. فإذا آمنوا أصبحوا خاتمًا في إصبعك تحركه كيفما تشاء، وصاروا مُريديك وطوع كلمتك ورهن أقل حركة تصدر عنك".

حدّثني عصفور عن الانقلاب المفاجئ في مجريات القضية قبل النطق بالحكم بلحظات، تعجّب من عدم قدوم خالد للشهادة ضدي كما ادّعى ناجي، استفسر عن محتوى الورقة التي ناولتها تهاني لزوجس؛ والتي كانت سبباً في قلب موازين الأمور من داخل مُعسكر الطحاوية.. أخبرته أنني أرسلتُ لزوجس جملةً واحدةً بخط يدي الذي تعرفه جيداً منذ أن كنتُ أمحو أميتها: "ما فيش مصراوي بيتجوّز فلاحه"، وأن خالد طلب مني الفراق النهائي بعد أن صار يخشاني بحق. أخبرني ببهجةٍ طفوليةٍ أن هذه أغرب قضية مرّت عليه في تاريخه.. جعلته يُقسم على ألا ينشر أي تفصيلة منها للصحافة كما طلبتُ من تهاني، فاستجاب بصدقٍ دون تفكيرٍ، وصف منظر ناجي وعطوة بعد الحُكم بالمثل الشعبي: "اتلم المتعوس على خايب الرجا"...

- هاتفضل عامل نفسك مش شايفني وعامي عينك عن الحقيقة!؟

نظرتُ إلى رفعت، مُترجياً أن يختفي من أمامي؛ فلترتخُ روحُه في مسكنها عند ربّها، ويكفّ عن زيارتي قاطعاً علاقته بعقلي الباطن المتوقف عند وفاته التي أنكرتها صغيراً كما يُقر ناجي وعطوة وتؤكد جميع الدلائل كلامهما. صرخ فيّ أنه حقيقي وليس محض وهم، نظر إلى السماء في حيرةٍ، ثم سألني بعصبيةٍ بعد برهةٍ من التفكير:

- أنا عُمري ضربتك أو مديت إيدي عليك؟

هزئتُ رأسي نافيًا دون أن أنظر إليه، فقال بنفسٍ لهجته الغاضبة بعد أن صفعني صفقةً مؤلمةً سرت بها الرجفة في أعصاب وجهي كلها:

- طب أديني ضربتك!

أتى بصندوق فرحة الذي لم ألحظ من البداية أنه كان يحمله، جلس بجواري ليواجه الترفة، ثم وضع الصندوق بيننا مائلًا بجسده في الاتجاه المقابل لي، لم يبالٍ بدهشتي، لكزني في كتفي مُكملاً حديثه في غضبٍ:

- أنا رحمت البيت خدته يوم ما منصور الزفت ده قال لك إني ميت؛ كان يوم جمعة ساعة صلاة وإنك كنت سايب باب المطبخ مفتوح.. كنت حاسس إنهم هيقولوا لك قريب إني ميت وإنك هتبتّل تزورني، خوفت أنسى ملامحك أنت والغالين.

أخرج الصورة التي تجمعته بزوجه وأولاده، تدرجت دمعَةٌ من عيني رغمًا عن إرادتي حين رأيت فرحة وأبي.. أستطيع منذ صغري أن أميّز صورة الحي من الميت؛ أدرك أن تغييرًا ملحوظًا يطرأ على ملامح البشر بعد وفاتهم، لا أستطيع أن أذكره تحديدًا، فالملامح كما هي.. لكن التغيير موجود. أشار رفعت إلى أبي الملاصق لعمتي حين كانا

صغيرين، ونبّهني إلى الطفل ابن العاشرة الذي كان يحمله
على كتفه قائلاً بحزم:

- مش ملاحظ في الصورة دي إن أبوك وعمتك واقفين على
رجليهم برغم إنهم أصغر من العيل الي أنا شايله
هه؟!!

لم أستطع تجاوز شكي في وجود رفعت بجواري من
الأساس، ولكن أجبته:

- أكيد ده عطوة؛ هو طول عمره مُتعب.. أكيد كان طفل
متدلع يعني!
هزّ رأسه نافياً:

- عمك عطوة مكانش في الصورة دي؛ هو الي كان بيجرّب
الكاميرا وبيصوّرنا؛ كانت جديدة وغالية وكنت شاريتها
بتمن إيراد الأرض كله..

سألته باهتمامٍ عن هوية الطفل الذي يحمله فأجاب
وهو ينظر إلى المياه:

- ده عمك سرور الطحاوي الله يرحمه؛ ابني البكري!
كانت هذه أول مرة أرى دموع رفعت متترقةً داخل
عينيه؛ قصّ عليّ حكاية سرور مع المرض الذي وُلد به؛ كان
ضحية زواج أقارب، خرج إلى العالم بنصف سفلي مشلول..
كما كان مُعتلاً بإعاقةٍ في مخارج الحروف، ولكنه كان طيباً

مُتسامحًا يُحاول الاجتهاد في تعلُّم القراءة والكتابة برغم عجزه.. لم تكن فرحة قبل وجوده كجديتي التي أعرفها وأعشقها؛ كانت على قدرٍ من الكبرياء والشعور بقيمة الذات.. لم تكن حريصةً على مساعدة الفقراء والسعي إليهم. غير سرور في أبيه كما بدَّل حال أمه؛ فأدخل قبسًا من رحمةٍ على قلبه؛ جعل منه عمدة أفضل وحاكمًا أكثر عدلًا، أصرَّ فيما بعد على تغيير اسمه من "رضا" إلى "سرور" لأنه أدخل السرور عليهم.. نما سرور وكبرت مشاكله معه؛ فأصبحت تأتيه نوباتٌ صرع فسَّرها البعضُ على أنها مَسَّ شيطاني، لدرجة أن رفعت أخفاه عن الحياة وعزله في غرفته، لم يُخبر أيًّا من أحفاده أن لهم عمًّا بهذا الاسم.. ظل سرُّه مكتومًا عن الجميع حتى خرجت إحدى نوباته عن المألوف وكاد أن يقتل أخته الصغيرة حين تشبث في رقبتها قاطعًا النَّفس عنها دون إفلات.. لم يدرِ رفعت ماذا يفعل، ولم يشعر بنفسه إلا حين تدخل بتهورٍ ضاربًا سرور على رأسه الضعيف بعنفٍ لم يُدرك مداه إلا حين قُطِع النَّفس عن أكبر أبنائه.

أدرك رفعت أن لا مفر له من فعلته، واستغل عطوة ذلك ليُحقق طمعه في منصب العمدة الذي طالما حلم به.. فاقترح على رفعت أن يتم إعلان وفاة كليهما في حادث سيارة؛ حتى تبدو ميتة سرور طبيعيةً، ولا يتساءل أحدٌ عن سبب خروجه وحيدًا، فلا تضيع سمعة الطحاوية

حين يعرف الناس أن كبيرهم قتل ولده!.. وافق رفعت بعد تفكيرٍ وبعد وعدٍ كاذبٍ من عطوة بأن يرعى العائلة من بعده وخاصة أمه وأخته وأخيه الذي رفض إخبار أبنائه بوفاة رفعت، مكتفياً بقطع زياراتهم عن بيت العائلة حتى مات بعدها بفترة..

ومن يومها ورفعت يقطن بعيداً عن الحياة في طحا داخل مسجد الشيخ صالح، لا يخرج إلا ليلاً كي لا يراه أحدٌ، استمرَّ الوضع هكذا لفترةٍ طويلةٍ من الزمن وقلَّ خوفُه من الظهور بعد أن نسي الجميعُ شكل العُمدة رفعت في هيئته المهيبه السابقة.. فحتى وإن شوهد مُصادفة أثناء صلاة من الصلوات ظنه أهل البلد فرَّاش المسجد أو معاون الشيخ صالح الذي يرى بعينه. أخبرني أن ناجي عرف كل شيء بعد مدةٍ قصيرةٍ من حادثة وفاة أبويهِ دون أن يُبدي الكثير من الحزن أو يُضمِّره.. خَمَّن رفعت أن أخي لم يُخبرني لأنه ظن أنني أتعمد تجنُّب الحديث عن كل ما يتعلق بالوفيات.

كانت قصته غريبةً لم أستوعب معظم أحداثها، ولكن طريقة حكيه وبكائه جعلتني أرغب في التصديق، حاولت وضعه في فخِّ بسيطٍ كي أعرف إن كان مسخاً من صنعي أم أنه موجودٌ حقاً، فسألته عن رأيه فيما حدث بقضية الحَجْر فهزَّ رأسه ببساطةٍ أنه لا يعرف أن هناك قضيةً من الأساس.. طلبتُ منه طلبي المُعتاد بأن يظهر ويعود ليوقف فساد عطوة وناجي.. رفض مستخدماً نفس أسبابه

المعتادة.. أخبرته بغضبي الشديد من هذا الردّ المحفوظ،
وأنتي أحجابه ليقفَ معي ضدهم.. ابتسم حين أدرك أنني
عدتُ للاعتراف بوجوده.. ربّت على كتفي قائلاً:

- طبعًا لازم تاخذ حقك، بس أخذ الحق محتاج صنايعي..
وأنت لا مؤاخذة غشيم. التار عامل زي طاجن البامية؛
لازم يستوي براحته وبيات ويتسخن كذا مرة عشان
تحس بطعمه. وموضوع الحجر ده...

قاطعته بشرود:

- أنا فعلاً عايز آخذ حقي بس مش من موضوع
الحجر ده؛ أنا سهل أعمل فلوس قد اللي هما عايزين
ياخدوها دي ميت مرة.. وكفاية منظرهم المهزق في
المحكمة، بس أنا شاكك في حاجة أكبر..

بدت الحيرةُ عليه فأردفتُ قائلاً:

- أمجد مات بطريقة مش مفهومة، وأنا اتدفنت غلط
برغم كل الاحتياطات، وطلعت بعدها بشكل مش
فاهمه، ولولا ستر ربنا أكثر من مرة كان زماني ميت،
وتقديس الناس ليّا.. مش معقول كل اللي بيحصل
لي ده نحس أو صُدف بتجرّ بعضها!.. حاسس إن فيه
حدّ راسم وبيخطط لكل حاجة من ساعة الواد لحدّ
دلوقتي.

١٧

الحلقة الأخيرة «فأس إبراهيم»

الجمعة 10 نوفمبر 2006

”استعدوا.. عشر دقائق ونبدأ بث الحلقة“.. هكذا أعلنها مخرج البرنامج الذي كان دوره كالموظف الذي يُنْفَذ ما يُملى عليه سواء مني أو من سامح أبو خاطر. أثار حضوري في السويغات القليلة قبل التصوير جدلاً واسعاً؛ فأنا مُخْتَفٍ عن الجميع منذ أربعة أيام دون تحضيرٍ لكل تفاصيل الحلقة كالمعتاد، كما ساعد خلافي مع خالد- الذي استقال من عمله معي- على تثبيت دعائم الشائعات التي تنبأت بعدم وجود حلقة أخيرة للبرنامج.. لدرجة أن سامح أوقف الإعلانات الترويجية للحلقة ومهد للكثير من الحجج التي سيتلوها على الرعاة بعد أن يئس من ردِّي على مكالماته الهاتفية.

استرجعتُ ما حدث بعد جلستي مع رفعت التي أسرتُ إليه فيها بشكوكي؛ فهناك يدٌ كبرى تعبتُ بحياتي لتُحيلها جحيمًا، لم يُصدق مخاوفي وذكر أن هذه وساوس تُطارِد أي شخصٍ يبلغُ قمة النجاح، حتى وإن كان نجاحًا زائفًا قائمًا على "تلبيس العِعمم". شعرتُ فجأةً بوجعٍ شديدٍ يعتصرُ قلبي، تركت رفعت وسط الكثير من التساؤلات والقلق، تذكرت النسناس الذي تناول نفس تركيبتي ولاقى حتفه منذ مدةٍ، استرجعتُ في كلام إيف عن مقاومة جسدي لآثار التركيبة التي ستطول عن مقاومة النسناس لفترةٍ قد تسمح لها بالبحث عن علاجٍ مناسبٍ. يبدو أن الآثار قد بدأت مداهمة قلبي مثلما أنبأتني إيف متوجسةً من مصير من سيصبح زوجها المستقبلي.

توجَّهت إلى الحسين، ترجَّلت من سيارتي دون أن أركنها تاركًا لشرطة المرور مهمة إماطة أذاها عن الطريق. جلستُ في محيطِ جامع الحسين الواسع وسط الدراويش والمجاذيب الذين يُطلق عليهم عامةُ الناس "المبروكين"، شعرتُ بنسمة هواء خريفيةٍ وأزكمت أنفي رائحةً البخور فبعثت في نفسي طمأنينةً مؤقتةً.. افترشتُ الأرض تمامًا مثلهم لأنام دون أن أطلب المدد من الحسين؛ فبعيدًا عن الاختلاف الفقهي على حرمانية طلب المدد من غير الله وتأويله إلى الشرك.. فأنا أعلمُ أن الحسين لم يُدفن في مصر من الأساس، وأن المَقام المَقام له هنا مدفنٌ شرفي ليس أكثر.

لأول مرة في حياتي أشعرُ بالخوف من الحياة؛ حياة من ينتظر الموت، يتجسّد أمامه عدُّ تنازليٌّ لِعُمره؛ فيشعر بقيمة كل ثانية تتناقصُ من هذا العدّاد، يتمنى أن يعود به الزمنُ إلى المهد. هل ستُقبلُ توبتي أم أنها تأخرت كتوبة فرعون لحظة الغرق؟!.. لا يهم كم من الماء سأشرب؛ فحلقي سيظلُّ جافًا تُسيطر عليه العُصّة، أشعرُ أنني أتناكُلُ من الداخل، لا شك أن هذا التناكُل سيظهر عليّ سريعًا. ترحمتُ على السابقين وأطالهم مُتذكرًا كل تفاصيل معيشتهم التي لم يُدركوا زوالها، الآن فقط أستوعب عبارة "لو دامت لغيرك ما وصلت إليك" تمامًا.. استرجعتُ كل لحظات الاقتراب من الموت التي تعرضتُ لها؛ تجسّدت أمامي حادثة فقدان والديّ، ومنظر جثة حسن المنتفخة، وسكون فرحة ووجهها المُسفر المُستبشر، وتجربة الوادِ كاملة، كما تخيلت جسد أمجد الذي لم أشهده إلا حيًّا يُرزق؛ فتخيلته مسحًا اختلط دمه بعظامه بحديد سيارته.. لا يهم بأي صورة مات، فجميعهم الآن عظامٌ ممتزجةٌ بالتراب بعد أن تحلل لحمهم، كلهم أرواحٌ هائمةٌ في ملكوتٍ لا يعلم منتهاه إلا خالقه. أدركت أن كل يوم باقٍ في عمري سيأتيني على هيئة البلاء؛ فهذا يومٌ ينتقص من عمري، وتلك خطوةٌ أخطوها بعيدًا عن الدنيا مُقترَبًا من المحطة الأخيرة.

اتخذتُ قرارًا بعدم إكمال البرنامج والاعتكاف في محيط الجامع حتى يأتيني أجلي الذي اقترب أكثر من أي وقتٍ

مضى، حاولت النوم متجاهلاً وجعي النفسي وألمي المحسوس الذي ينقرُّ قلبي مُعلنًا اقتراب قطار الموت من محطته الأخيرة.

لم أدرك كم من الوقت مرَّ عليَّ في هذه الحالة الساكنة، أراقبُ جميع مَن حولي؛ يتطوِّحون ذاكرين الله.. يهيجهم البخور فيجعلهم سكارى تحت تأثير نشواهم. فقدتُ شهيتي تمامًا وازداد طولُ لِحيتي، ولكن الجانب المُشرق أن أوجاع قلبي بدأت تقل عكس ما توقعت.. كما أنني اكتشفتُ نقطة ضعفي تجاه الأطفال الذين حُرمت من إنجابهم؛ حين رأيتهم يلعبون من حولي.. اصطدم بي مرةً أحدُ الصبية الذي أتى للصلاة في الحُسَيْن مع والده؛ اعتذر لي الطفل فدعوتُ له الله، سألته عن اسمه ليُجيبني أن اسمه "جابر صلاح".. كررتُ له دعوتي بالبركة في عمره وصحته.

تصادقتُ- دون حديثٍ كثيرٍ- مع شخصٍ يُدعى "عَلِي مَبْخَرَة"; الذي يدورُ على محلات الحسين بمبخرته ذاكراً الله متوسلاً، ومتسولاً المال من عباده.. أعرفُ وجهه منذ زمنٍ وأدرك أن أصحاب المحلات يتباركون به ويتجنبون دعواته على من ينهره منهم. لاحظتُ أنني لا أكلُ ولا أتسول للحصول على طعامي فراح يُحضر لي معه قدرًا من الطعام يُساعدني على البقاء حيًّا.

لم أدرك أن شروق شمس الخميس قد حان إلا حين شعرتُ
باهتزاز هاتفي الذي كان يئنُّ من عدم شحنه.. ملحتُ الوقت
والتاريخ أعلى شاشة الهاتف، كدتُ ألا أرد كما كنتُ أفعل
خلال الثلاثة أيام الماضية ولكن المتصل كان إيف، اتصلتُ
بعد أن أرسلت عدة رسائل مُلخصها وجوب ظهوري سريعاً..
أجبتُ عليها لتُخبرني أنها كانت معتكفةً في معملها ولم تتم
منذ يومين لتجد حلاً لمشكلتي الآخذة في التفاقم، وتظن
أنها قد وجدت العلاج المنشود!

اقتحمت عقلي خاطرةً غريبةً حين أدركتُ أن خطر
الموت سيبتعد عني قليلاً، اتسعت عيناى بفهمٍ، بعد أن أثار
حديثها جزءاً من عقلي جعلني أرغب في العودة السريعة
إلى الحياة التي هربتُ منها.

انقطع الاتصال لخلو بطارية الهاتف من آخر شحناتها
الكهربية؛ كأنها جندي استراح من المعركة بعد أن أدَّى
واجبه الوطني. تحسَّست جيبى لأتذكر أنني قد نسيت
حافضة أموالى الجلدية داخل السيارة التي تقبع الآن في إدارة
المرور بعد أن أزالها الونش. حاولتُ أن أتذكر عنوان جبران؛
أخبرني ذات مرةٍ أنه يقطن في إحدى الحارات المتفرعة من
شارع المُعز لدين الله الفاطمي الذي لا يبعدُ كثيراً عن
جامع الحسين.. وبعد الكثير من الجهد والقليل من الأسئلة
وصلت إلى بيته.. طرقتُ البابَ كثيراً؛ فجبران كان عاطلاً

عن عمله لاختفائي، فلا شيء يُبرر استيقاظه في هذا الوقت المبكر. فتح أخيراً بجفونٍ مُنتفخةٍ، وما لبث أن رأني حتى أصابه الفزعُ الشديدُ، أدركت أن مذهري الرثُّ أفرعه، أزحتهُ من أمامي دون استئذانٍ مُقترحاً شقته، أمرته بسرعةٍ ارتداء ملبسه، وطفْتُ في شقته بحثاً عن شاحنٍ يُلائم هاتفي، طلبتُ من جبران قدرًا من المال الذي كنتُ أغدقه عليه، ينبغي أن أتصل بمعاذ عصفور ليساعدني على التأكد من بعض شكوكي، كما يجب أن أسرع بالذهاب إلى إيفلين.. تجاهلتُ محاولات جبران لتهدئتي، طلب مني أن أجلس لالتقاطِ أنفاسي حتى يُحضر لي ما أشربه.. لم أعبأ بحديثه، أكملتُ عملية بحثي عن الشاحن التي تمَّت مقاطعتها حين ملحت ما هو أهم منه بكثير.

أصرَّ سائقُ السيارة الأجرة أنه يعرفُ وجهي جيدًا.. لم أخبره هويتي، وصفتُ له مَسْكَنَ إيفلين، وطلبت منه بحزمِ التزام الصمت حتى نصلَ إلى وجهتنا المنشودة، كما أخرجت هاتفي الذي لم ينل القدر الكبير من الشحن لتعجلي الوقت.. اتصلت بمعاذ عصفور الذي ردَّ من ثاني محاولة اتصالٍ بصوتٍ ناعسٍ، بادرنى بالشكر على التزامي الزمني بدفع أتعابه في قضية الحجر، أخبرته أن مبلغًا مماثلًا سيدخلُ في حسابه البنكي إذا أتاني ببعض المعلومات قبل

حلول الظهر.. لمحتُ الدهشة البادية على السائق حين سمع ما طلبت من مُعاذ الإتيان به، حاول إخفاءها كي لا أنهره ثانية. وعدني معاذ بتسخير فريق عمل مكتبه الذي يَأتمر بأمره من أجل الحصول على إجاباتٍ دقيقةٍ ومُفصلةٍ لكلِّ أسئلتِي.

”استعدوا.. خمس دقائق ونبدأ بث الحلقة“.. أعلنها هذه المرة مُساعد المخرج بعد أن تركه رئيسُه ليتأكد بنفسه من الإضاءة المُسلطة على وجهي، في بداية عملي بالبرنامج كانت تُزعجني هذه الإضاءة حتى تعلّمت تجاهلها تمامًا كما اعتدتُ التعامل مع صوت المخرج المزعج الذي ينتقلُ عبر سماعة الأذن مُقاطعًا اندماجي على الهواء.. اقترحتُ على سامح أن تكون الحلقاتُ مُسجلةً ولكنه رفض ذلك حتى لا يظن الناس أن المكالمات مُفبركة وأن الحلقة تم التحضيرُ وعمل ”مونتاج“ لها. أصاب فريق العمل كله القلق من عدم التحضير لموضوع هذه الحلقة، أوجسوا خيفةً من صمتي وعدم تبرير اختفائي حتى اللحظات الأخيرة من الإعداد للبتُّ المباشر؛ خاصةً لسامح الذي تجاهلتُ مكالماته، لم يكن أمامه حلٌّ آخر سوى الانتظار حتى تنتهي الحلقة كي لا يضطر إلى إعادة مال الرعاية للمُعنين.. مال عليّ ساعي الأستوديو ليُخبرني أن أستاذ لظفي صاحب دار النشر أرسل

مساعدته ليسلمني نسخةً من الكتاب الذي "ألفته" والذي يحمل اسم "العودة من الموت إلى الموت" فور صدوره من المطبعة.. طلبتُ منه أن يستلم النسخة بدلاً مني ويضعها في غرفتي بالأستوديو.

تركْتُ متخصص التجميل "الماكير" يعبثُ في وجهي كيفما شاء، كان حريصاً على عدم مُضايقتي خوفاً من غضبي عليه وافتعال شجار معه؛ مثلما فعلتُ مع الحلاق الذي شذَّب ذقني، ومتخصص الأزياء "الستايلست" منذ قليل حين أصرَّ على تنفيذ تعليمات المُخرج بالباسي بدلةً رسميةً كي أظهر بنفس الشكل الذي كنتُ عليه طوال الموسم.. الأمر الذي انتهى بتنفيذي لرغبتني في الظهور بالملابس التي أتيتُ بها من بيتي؛ كانت عبارةً عن معطفٍ كحلي تحته قميصٌ لبني اللون أسفلهما بنطلون من الجينز أسود وحذاء رياضي. تركتُ فرشاته تُداعب وجنتيَّ مُحاولةً تجنب شعور لحيثي.

استرجعتُ ما حدث بعد أن تناولتُ العلاج الذي زعمت إيفلين أنه سيشفيني، جلستُ معها مُعرباً عن افتقادي لها ولصُحبتها، سألتني عن الحلقة الأخيرة؛ فأجبتها أنني سأقلبُ فيها الطاولة على الجميع.. سألتني عن أحوال ناجي بعد القضية.. أجبتُها أنني لا أعرف عنه شيئاً. قاطع حديثنا الحميمي اتصالاً من مُعاز الذي أخبرني بنجاح فريق عمله

في تنفيذ كل طلباتي، فتوجَّهت على إثر مكالمته إلى أكثر من مكان..

اعتذر سائقُ سيارتي الاحتياطية عن تأخره للقيام ببعض أعمال الصيانة.. نهرتَه عن الكذب وأخبرته أنني لن أغضبَ إذا اعترفَ أنه يستخدمها في مشاوير خاصة به لتحسين دخله.. شكرتني داعياً الله أن يُسدّد خطاي. سألتني عن جبران فأجبتَه أنه يُنهي مهمةً خاصةً لصالحِي، وصفتُ له وجهتنا القادمة وقد أدركَ من لهجتي أنني لا أرغبُ في المزيد من النقاش.. قابلتُ مساعدَ معاذ عصفور الذي عرّفني بنفسه ذاكراً بصوتٍ خفيضٍ وبلهجةٍ فخرٍ أنه من حضر قضية الحجر مع مُعاذ.. أعطاني ظرفاً ورقياً سميكاً، وأخبرني أن كل ما طلبته تم إنجازه على أكمل ما يكون.

انتقيتُ ورقةً من داخل الظرف والتي كُتِبَ فيها العنوانُ الجديدُ لعائلة أمجد.. كان قريباً سهل الوصول إليه؛ فيلا صغيرة في إحدى المُجمعات السكنية الحديثة على الطريق الصحراوي، رحّب الأستاذ عمّار بي لأنني "من ريحة الغالي" وكذلك فعلت زوجته وابنته التي أخبرتني أنها لم تفوّت حلقهً من الموسم كله، بعد تناول الشاي وبعض المخبوزات التي أتت معه.. سألتني أبو أمجد في بعض الأمور المتعلقة بمحتوى البرنامج، كما طلبت أخت أمجد رأيي في

عريس تقدّم إليها منذ أسبوعٍ؛ قلتُ لها أن تتبع قلبها وتُصلي لاستخارة مولاها.. اعتذرتُ على قدومي دون ميعادٍ سابقٍ وعلى تأخر عزائي لهم في فقيدهم لشهورٍ، لخصت لهم ما مرَّ بي بعد الحادثة من تجنُّب الأقربين وطمَّعهم فيما أملك، تجنَّبت ذكر أن أمجد كان سبباً رئيسياً لكلِّ ما واجهته فيما بعد، تكلمت عن إيف ولمحت لوجود بيننا ما هو أكثر من صداقة.. حدَّروني منها وأخبرتني أم أمجد أنها كانت بمثابة البومة التي نحست العائلة، وأن أمجد كان يشتهي منها في أواخر أيامه كونها فاترةً معه تُعامله بخبثٍ شديدٍ، وتصميمها على تأجيل حملها بتناول الحبوب المانعة لحدوثه.. كما تعجَّبت أم أمجد من موضوع بوليصة التأمين التي لم يعرف عنها أحدٌ سوى جبران.. دافعتُ عن إيف قائلاً إنها أخبرتني بنيتها في إعطاء أبي أمجد نسبةً من البوليصة تعويضاً لأسرتهِ عمّن فقدوه، وأسفاً على عدم إنجابها صغيراً يحمل لقبَ العائلة.

لم يُعلق أحدُهم وأشاحت الأم بوجهها بعيداً كي لا أرى دموعها، اقتربتُ منها وربتت على يدها مُواسياً، ثم أخبرتها أن وفاة أمجد لم تكن مجرد صدفةٍ، اتسعت أعينهم وأكَّد الأب على كلامي قائلاً إنه أدلى في التحقيقات بنفس القول دون اهتمامٍ أو تصديقٍ من الشرطة، وتلا عليّ مواصفات السيارة التي أخبر عنها المُتصل المجهول، والتي قُيدت في التحقيقات أنها كانت تُراقب سيارة ابنه حين خرج من

بيته قبل الحادثة بدقائق؛ كانت الموصفاتُ مألوفةً بالنسبة لي، ولكنني لم أعبأ كثيراً باستنتاجه الذي تعارض مع ما أعلمه. تجاهلتُ دهشتهم وهواجسهم، وقصصتُ عليهم بعضاً مما يجولُ في خاطري.. اتسعت أعينهم فزعاً وتكذيباً حين انتهيتُ من سرد استنتاجي بخصوص القاتل المسئول عن تدبير الحادثة!

اتصلتُ بإيف أثناء توجُّهي إلى الجامعة، أخبرتها أنني سأنفذ فكرة الهجرة بعيداً عن مصر والمشاكل التي تُطاردي فيها.. ترددتُ في الموافقة على مرافقتي ثم وافقتُ بعد إلحاحٍ ووعيدٍ بأن نزورَ أهلها ونقيمَ زفافنا في بيت عائلتها، قالت بقلقٍ إن الضابط المسئول عن التحقيق في قضية أمجد يتصل بها من وقتٍ لآخر ليتأكد من وجودها في القاهرة لأن التحقيق لم يُغلق بعد؛ فتخاف أن تثيرَ الشكوك بسفرها، كما أخبرتني أن إقامتها داخل مصر ستنتهي قريباً، طمأنتها أنني سأجد حلاً، وأن كل المطلوب منها أن تبحثَ عن صورة شخصيةٍ لها تُعطيها لسائقي الخاص الذي سأرسله إليها بعد أن أبلغ وجهتي.

أوقف السيارة الحارسُ الواقفُ على بوابة كلية الطب، حين أنزلت زجاج سيارتي رحَّب بي وأخبرني أنه من أشد المعجبين ببرنامجي.. طلبتُ منه الإسراع في إدخالني لأن اليوم

الخميس وموعد خروج الموظفين قد اقترب.. سألني عن سبب الزيارة فأجبت أنه أنني أتيت لرؤية صديق، وحين تأكد من الاسم سمح لنا بالمرور.. أمرتُ السائق أن يتركني ليذهبَ إلى عنوان إيفلين ليأتيني بصورتها الورقية.

لمحتُ الطلبة يخرجون من مدرج المحاضرات، سألت أحدهم عن المحاضر فأجابوني بالاسم الذي أتيتُ لأجله، سمعتهم يشكرون في أسلوبه المتميز أثناء إلقاء المحاضرة لدرجة أنهم يُحصِّلون معظم المعلومات أثناء جلوسهم أمامه.. وأن أسئلته في الاختبارات تعتمدُ على الفهم أكثر من التلقين؛ عكس دكاترة كثر لا يهتمون بربط الدراسة بالواقع..

لمحته من خارج المدرج يُغلق مكبر الصوت مُجيبًا أسئلة الطلبة بابتسامةٍ ودودةٍ، جمع أوراقه داخل حقيبته الجلدية متوجهًا إلى مكتبه الذي يقع في نفس الطابق بنهاية الرواق كما أخبرني مُعاذ عصفور نقلًا عن أحد مساعديه. طرقتُ المكتب بهدوء؛ لم يبدُ أنه تعرَّف عليَّ من الأساس، سألته إن كان يتابع التلفزيون فاعتذر لانشغاله أغلب الوقت في عمله كمدرسٍ جامعي وكطبيبٍ في عيادته الخاصة، لدرجة أنه يغفل أهل بيته في الكثير من الأحيان. قلتُ ضاحكًا:

- ده طبعا غير الشغلانة الثالثة معاليك..

بدا الاندهاشُ علي وجهه فقلتُ وأنا أنظرُ إلى الشهادة الجامعيةِ المُعلقة خلف مكتبه والمكتوبة بالإنجليزية:

- مين كان يصدّق إن دكتور أنس صالح عز الدين..
الطبيب والأكاديمي المرموق.. يطلع زعيم أكبر عصابة
تَبَشّ قبور في البلد؟!

بدا الفرعُ عليه ونادى على ساعي مكتبه ليقوم بطردي،
اقتربت منه بحركةٍ سريعةٍ، قلتُ له محذراً:

- أنا مش عايز أئذيك في شغلك ولا في بيتك يا أبو داليا..
هاسألك سؤالين وأمشي!

شارعٌ يقودُ إلى حارةٍ، وحارةٌ تقودُ إلى زقاقٍ، وزقاقٌ يقودُ
إلى زنقةٍ، وزنقةٌ تقودُ إلى أخرى، حتى انتهى بي المطاف أمام
بيتٍ مُتهالكٍ من دورين.. كان العنوان كما وصف لي معاذ
عصفور بالضبط، تأكدت من صحته حين دخلت البيت
لينقض عليّ في الحال رجلان ضخما الجثة، سألني أحدهما:
- مين جاي معاك؟!

- أنا لوحدي، معاذ عصفور المحامي هو اللي وصف لي
العنوان وقال لي إنه سايب للبهلوان خبر.

أفسحا لي الطريق، شعرتُ باشمئزازٍ من منظر مُحدثي
الذي كان مُشعراً كغوريلا، ورائحته كالخِراف. كان المكانُ
من الداخل مُختلفاً تماماً عن ظاهره؛ فقد كان أنيقاً واسعاً

خاليًا من الأثاث، تراصت أجهزة الكمبيوتر بداخله بعضها إلى جوار بعض في نفس نظام شركات الاتصالات، شعرت ببرودة الجو ملاحظًا كثرة مكيفات الهواء. لم أحتج إلى الكثير من الذكاء لأدرك أن ذلك "البهلوان" هو صاحب هذا المكان الذي يُطيعه الجميع مُخلصين.. صافحته وأخبرته أن المبلغ الذي طلبه تم تحويله إلى حسابه البنكي، وأن مبلغًا مماثلًا سوف يصله بعد أن ينهى عمله، تعجّب من قدوم شخصية عامة مثلي منفردًا دون أن أصطحب أحدًا من "رجالتي"، سأل عن المطلوب منه بالتفصيل فأجبت بصوتٍ خفيضٍ:

- أنا ناوي أسافر مع حدّ عزيز عليًا بعد بكرة، مُعاذ حجز لي تذكرتين الطيران، وباسبوري سليم.. المشكلة في الشخص اللي هايسافر معايا، فعازين نعمل له باسبور زي ما يكون أصلي بالظبط.

غمز لي، وقال بنفس لهجة الخبث:

- حدّ عزيز عليك برضه؟ يا سيدي يا سيدي..

نظرت له لائمًا دون أن أرد عليه، أخرجت من جيبي صورةً ورقيةً.. اعتذر عن تلميحاته، أوماً برأسه علامةً على الفهم قائلاً إن الصورة تبدو قديمةً، طلبت منه أن يتلاعب بها على برنامج photo shop ليجعلها تبدو أحدث من زمن التقاطها.. وعدني بإتمام ما أريد بمنتهى الإتقان في أقل من يوم، سألني باهتمامٍ:

- تحب نعمل للشخصية دي باسبور باسم معين؟!!

أجبتة بعد تفكيرٍ لم يدم طويلاً:

- اعمله باسم نور.. نور يوسف.

”نص دقيقة على البث المباشر“.. لم أتعلم بعد تجنّب الإضاءة الحمراء المنبعثة من الكاميرا؛ أرتبك حين ينتقل الضوء من كاميرا إلى أخرى مُعلنًا وجوب تحرُّكي لأوجّه بصري مقابلًا له. لحسن حظي أن المكتب الذي أستند على حافظته يُداري اهتزاز قدميَّ اللتين لم أستطع التحكم فيهما.. فوجئتُ باقتحام خالد الأستوديو مشيرًا لي بقلق، لم أفهم من إشاراته سوى أن هناك أمرًا جليلاً، ضم يده في شكل قبضةٍ فاردًا خنصره وإبهامه كأن يده هاتفٌ محمولٌ.. بدأ العد التنازلي من رقم خمسة، أخرجت هاتفي مسرعًا ونظرتُ إليه لأتفاجأ بأكثر من عشر مكالماتٍ فائتةٍ من رقم عطوة ونصفها من رقم خالد.. لم أفهم ماذا يحدثُ وأشرتُ إلى خالد بهدوءٍ أن يصبر حتى أول فاصل...

- ستاند باي يا أساتذة.. هوا.

بدأ المصورون والمساعدون يتحركون في صمتٍ، تحركت الكاميرا العالية المسلطة على وجهي من السقف نزولًا ببطء حتى واجهتني، أثناء نزولها تذكرتُ جيدًا نصائح

مُعَاذَ التِّي تَلَاهَا عَلَيَّ هَاتِفِيًّا حِينَ أَخْبَرْتَهُ بِمَا أَنُوي أَن أَفْعَلُ؛
حَذَرْنِي مِنَ العَبَثِ مَعَ مَنْ هُمْ مِثْلُ سَامِحِ أَبِي خَاطِرٍ، وَحِينَ
يُئْسُ مِنْ عَدُولِي عَنِ قَرَارِي طَلَبِ مَنِي أَلَا أَخْبَرَ أَحَدًا بِمَا
سَيَقُولُ، أَوْصَانِي بِالرَّمْزِيَّةِ وَفِي حَدِيثِي الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
عَامًّا مُبْهَمًا قَدْرَ الإِمْكَانِ؛ تَجَنَّبًا لِأَيَّةِ مَسَاءَلَةٍ قَانُونِيَّةٍ:

- إنهاردة الحلقة العشرين والأخيرة من برنامج الموءود..
بصراحة أول ما بدأت ما كنتش متوقع إن الموسم يكمل
لحدّ الرقم ده.. وبصراحة أكثر ما كنتش حابب فكرة
البرنامج في البداية. بس الموضوع طلع مش وحش أوي
كده؛ كفاية إن الغشاوة راحت من عنيًا بعد ما كنت
فاكر إن كل اللي حصل لي الفترة الي فاتت مجرد سوء
حظ..

انتقل البثُّ من كاميرا إلى أخرى فاضطرتُّ إلى التحرك
قليلاً بمقعدي الدوار قائلاً:

- أنا عارف إني باين قدامكوا عايش، بس أنا ميّت من
زمان، مش من يوم ما اتدفنت بالغلط زيّ ما حكيت
لكوا قبل كده، ولا حتى من يوم ما أبويا وأمي ماتوا
قدام عينيًا في حادثة مشؤومة.. أنا ميّت من يوم ما
فقدت الإيمان، فقدت إيماني في نفسي وفي كل حاجة
حواليًا، كفرت بالناس وبالخير وبأي معنى كويس.

انتقل الضوء من كاميرا إلى أخرى فزفرتُ حانقًا وأنا
أستديرُ ببطءٍ:

- إحنا مش محضّرين حلقة زيّ كل مرّة عشان أنا تعبت
من كتر ما باكدب عليكوا.. والمشكلة إنكوا عارفين
إني باكدب، بسّ مستحليين الكذب الي مصّبكوا على
العيشة؛ الكذب الي بيخلق لكوا حلّ لمشاكلكوا الي
مش عايزين تحلّوها، الي بيوعدكوا إن بكره جاي
أحسن، وهو عمره ما هايكون أحسن طول ما فيه
ناس زيّي وزيّكوا!

أبدى المخرج اعتراضه على حديثي، وأخبرني بضرورة
الخروج لفاصلٍ إعلاني، توقعت أن يتمرد مُبكرًا عن هذا،
صرخ في أذني:

- إيه اللي بتهببه ده يا يحيى.. إنت هاتخرب بيتنا!

لمحت خالد ينظر إليّ مُحفزًا لأكمل خطابي فقلتُ مُحدثًا
الكاميرا الموجهة نحوي:

- أنا بيتي كده كده مخروب، سييني بقى أخربه بإيدي.

عدت لأكمل حديثي مع المشاهدين:

- لمّا بافتكر معظم أعداز غيابي عن الدراسة أو الشغل
بلاقيها "حالة وفاة".. يا سادة أنا حياتي كلها بتدور
في فلك جملة "أحبب من شئت فإنك مُفارقة"! ويوم

ما فارقت وقلت هرتاح خلاص.. رجعت لقيت اللي
طمعانيين فيّا، واللي مستنيين مني اللي مش عندي..
بالعربي كده: جلعوني فانجعلت. اللحظة اللي زيّ دي
ما بتحصلش غير مرة في العمر، عارف إني ممكن أندم
على اللي ها يحصل قدام.. بس عمري ما هاندم على
اللي قلته.

اهتز هاتفُ المخرج، نظر إلى المتصل فلم يجد رقمًا،
وجد عبارة: Private number ، أدرك أن المتصل شخصٌ ذو
حيثيةٍ يطلب قطع البث، أجاب بصوتٍ مرتعشٍ ليجد صوت
سامح أبي خاطر الذي عرفه بنفسه قبل أن يقول أمرًا:

- اقطع البث يا بني!

ردّ المخرج بحزم:

- حضرتك الراجل ما قالش حاجة غلط، سياسة البرنامج
إنه يتكلم عن تجربته مع الدفن.. وأظن مافيش نهاية
أحسن من كده، ده غير...

- لو عايز تفضل عايش اقطع الهوا عنه.

- حاضر يا سامح باشا.. أنا آسف.

أغلق سامح الخط في وجه المخرج قبل أن يكمل جملته،
تحدّث إليّ آسفًا في مكبر الصوت أمامه:

- عشر ثواني وهاقطع عليك يا يحيى.

ألقيت السماعه من أذني، وأكملت حديثي قائلاً:

- وزير الإعلام النازي قال: "أعطني إعلامًا بلا ضمير، أعطيك شعبًا بلا وعي" .. ما تصدقوش أي إعلامي لمجرد إن كلامه على مزاجكوا، حللوا كل كلمة بتتقال لكووا بالعقل والمنطق .. حتى لو عليها مليون دليل!.. أشوفكوا على خير.

نزعْتُ مُكبر الصوت المثبت في قميصي، نهضت وسط تصفيق نصف الحاضرين، النصف الآخر كان يحمل همّ لقمة عيشه التي انقطعت بسبب فعلتي، شقَّ خالد صفوف الملتفين حولي بين مؤيِّدٍ ومهاجمٍ، ومال على أذني قائلاً:

- عايزك ضروري..

قاطعته مُبتسمًا بهدوءٍ:

- فيه مبلغ محترم عشانك اتحول لحساب دكتور نجيب السعدني، واشترطت عليه ماتصرفش منه مليم غير لما يتأكد بنفسه إنك خفيت من الإدمان.. حجزت لك في المصححة جنب حبيبك شكري، سلّم لي عليه وقول له إن فيه مبلغ تاني باسمه، شدّ حيلك يا بطل.

هزَّ رأسه شاكرًا ووعدني همسًا بالعلاج. تذكر سبب قدومه وقال بلهجةٍ جادةٍ:

- أنا خليت الساعي يلم كل حاجة تخصك في أوضة
الاستوديو وينزلها عربيتك.. رجالة سامح جاين
الاستوديو دلوقتي عايزينك.

خرج المخرج من غرفة التحكم وطلب مني الرحيل من
الباب الخلفي للاستوديو؛ حيث حرّك الساعي سيارتي بعد أن
وضع بداخلها كافة متعلقاتي، وأنه سيتصدى لرجال سامح
مع باقي العاملين في الاستوديو ليعطلوهم عن اللحاق بي..
أيّد الجميع اقتراحه حتى المختلفين منهم معي بخصوص
ما قلته في البرنامج، اعتذرت لهم شاكرًا شجاعتهم وطلبت
منهم أن يتركوني أحل مشاكلي بنفسي، قاطعني خالد قائلاً
بحزم:

- مش وقته.. لازم نروح طحا بسرعة!

هزرتُ رأسي مُستفسراً، فقال بأسفٍ:

- أخوك ناجي.. تعيش إنت.

العَوْدَةُ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْمَوْتِ

السَّبْتِ 11 نَوْفَمْبَرِ 2006

نظر عطوَّةُ إلى ساعة الجيب العتيقة خاصته؛ فعرف أن يوم الجمعة قد انقضى وأن الساعات الأولى من يوم السبت قد جاءت مُحمَّلة بالكثير من الشؤم، قطع غرفته جيئةً وذهابًا، خاف أن يظهر أمام أهله بهذه الحالة فيفقد هيئته، تحدَّث إلى نفسه بصوتٍ عالٍ لاعتناُ حظ الطحاوية الذين اقترب اسمهم من الفناء، كان الصراخُ داخله أعلى كثيرًا من صراخ الحريم بالأسفل.. ظلُّ مُنتظرًا يحيى آملًا في أن يفعل شيئًا حيال وفاة ناجي المفاجئة؛ أليس هو الطبيب المداوي الذي يتبارك به الجميع؟.. وأليس الأقربون أولى بكراماته التي يجود بها على الآخرين!.. فليُنقذ نسل العائلة الذي أوشك على الانقراض. علم عطوَّة بوصول ابن أخيه يحيى حين سمع صوت سيارته المُسرعة التي أوقفها

بصوت فرامل مزعجٍ وخرج منها راكضًا نحو بيت العائلة. نزل عطوة فوق سلام بيته متوجهًا نحو غرفة أرضيةٍ وُضع بداخلها جثمان ناجي المُسجّي، استقرَّ حوله الكثير من أهله وأصحابه، استشعر يحيى نحيب النسوة صادقًا صارخًا بمحبة أخيه.. قارنها بالصرخات المُفتعلة التي سمعها يوم مماته المزعوم؛ فأدرك أن فكرة المقارنة ظالمة له.

تبادل نظراتٍ صامتةً مع عطوة، ركع بجوار جسد ناجي دافئًا وجهه بين كتف أخيه ورقبته وراح يهتزُّ باكيًا.. نظر خالد إلى الأرض بأسى وسأل عطوة عن سبب الوفاة.. بدا على يحيى الانتباه لما سيقول عمه.. لم يجد عطوة ما يقول؛ غمغم بعباراتٍ غير ملتحمة، كالحديث عن إرهاق العمل، وعن حالة الحزن التي انتابته بعد آخر قضية التي تبعتها قطيعةً تامةً مع أخيه، وعن تأنيب الضمير الذي التهمه التهامًا بعد الخروج خاسرًا من قاعة المحكمة.. لم يفهم خالد معظم كلام عطوة ولكنه استنتج أن يحيى خاصمه قبل الوفاة.

ذكر عطوة الكثير من الكلام المُعتزّض على القدر والقضاء؛ فتحدث عن شباب ابن أخيه الذي خُطف مبكرًا، وعن عدم وجود سببٍ واضحٍ للوفاة المفاجئة التي حدثت في مكتب ناجي الخاص.. فجأةً لمعت عينا خالد وقد التقط

الخيطة الذي كان يُحاولُ عطوة الإلقاء به ليحيى مُحَرَجًا من ردة فعله؛ فقال ليحيى:

- مش ممكن ناجي يكون حصل له نفس اللي حصل لك، وحصل لي في مكتب الصحفية.

لم يبدُ الفهمُ على يحيى.. فقال عطوة بسرعةٍ مُستعيدًا كلمات يحيى من برنامج "الموود":

- الغشاوة يا يحيى؛ الغشاوة اللي الجنّ وضعها على عيون البشر عشان يدفنوا أقرب الناس ليهم، وهو عايش وبيصرخ من جوّاه عشان يلحقوه.. مش ده كلامك؟!

أمّن جميع الواقفين على كلام عطوة، حتى النسوة توقفن عن النحيب اللائي ترقّبن رد يحيى على عمه، ترجّاه الجميع أن يفعل شيئًا.. أشار عطوة لهم كي يصمتوا ثم ربّت على كتف يحيى مُشجعًا:

- إلحق أخوك يا ابن الطحاوية.. إحييه!

حضر يحيى جسد أخيه مُستعيدًا بالله حين أذاقه عطوة نفس كلماته التي كان يُلقنها لأتباعه، بكى كما لم يفعل من قبل.. التهمته الحسراتُ من الداخل. طلب منه خالد الهدوء وأن يُحاول أن يتلو على أخيه ما تلاه من قبل

عليه، اقترح عليه تكرار نفس التجربة.. وجّه يحيى حديثه لعمه قائلاً:

- مش جبتوا دكتور كشف عليه؟!

طأطأ عطوة رأسه مُجيبًا بالإثبات، وكاد يُقبّل يديه يحيى كي يحاول ممارسة قدراته غير العادية لإعادة أخيه إلى الحياة.. أعلنها يحيى بهدوءٍ مخاطبًا جميع الموجودين بالغرفة:

- البقاء لله يا جماعة.

رفض الناس قول يحيى على أخيه، لعنه بعضهم وصمت البعض الآخر خائفين من غضبه، اعترف أنه لا يملك من أمره شيئاً وأن ما حدث معه لم يكن إلا صدفة.. كذّب خالده وقال إنه رأى بعينه ما يمكنه أن يفعل.. صرخ فيهم أن الرسول مات ولده أمامه ولم يملك له إلا الدعاء والشفاعة، فمن هو ليؤخر أجل أخيه إذا جاء؟!.. وصل نفس المُغسل الذي تعهد بجثمان يحيى من قبل.. صافح يحيى باحترامٍ شديدٍ وخوفٍ جليلٍ. شعر المُغسل برفض بعض الحاضرين لوجوده نكراناً منهم لفكرة موت ناجي، ورفضاً لتكرار نفس الخطأ الذي اقترفوه من قبل مع أخيه باعتباره ميتاً. نظر المُغسل إلى يحيى وكاد أن يطلب منه نفس طلبهم؛ ولكن نظرة ناهية من يحيى وأدت الحديث في مهده.. أمرهم يحيى بلهجةٍ حاسمةٍ:

- ذيعوا على ناجي في الجامع وقولوا إن دفنته وعزاه بكرة.. كفاية تعذيب لروحه، إكرام الميت دفنه.

لمح في أقصى الغرفة سكرتير مكتب أخيه، فجذبه من ذراعه خارجين من الغرفة حتى وصلا إلى بهو دوار عطوة، ربّت على كتفه وقال له بلهجةٍ منكسرة:

- ناجي قال لك حاجة قبل ما يموت؟!

بدا على السكرتير الدُعر، وقال ليحيى بصوتٍ متهدج:

- طلب مني أكلم حضرتك وهو بيطلع في الروح، بس تليفونك كان مقفول.. أكيد كان عايز منك تسامحه.

بدت الحسرة على يحيى، حاول أن يُداري دمعةً فلتت من عينيه، سأله بقلقي:

- أكل أو شرب حاجة قبل ما يموت.. ولا وقع فجأة؟!

ردّ السكرتير متذكراً:

- المكتب كان فاضي وهو كان بيشتغل على قضايا قديمة زيّ كل جمعة.. دخّلت له المكتب بكوباية شاي، لما طلعت لقيت زبونة طالبة تقابل أستاذ ناجي الله يرحمه.. أول ما سمع اسمها اتنفض وقال لي أدخلها بسرعة.

سأله يحيى بلهفة:

- شكلها إيه الست دي؟

- كانت بتتكلم عربي مكسّر وشكلها غريب؛ زي ما تكون
خواجاية كده.. وبعد ما مشيت بدقايق الراجل وقع
من طولها!

- كان اسمها دكتورة إيفلين؟!

أجاب السكرتير بعد ثوانٍ من التفكير:

- بالظبط كده يا مولانا.

تركّت العزاء حين سمعت أذان المغرب، توجّهت إلى
مدخل طحا حيث كانت تنتظرنني إيفلين التي أضاف
لها اللون الأسود جمالاً فوق جمالها، لم يُعكّره إلا حالة
الاضطراب التي بدت عليها، حاسبتُ سائق الأجرة الذي
أتى بها وساعدني على نقلِ حقائبها داخل سيارتي، فتحتُ
لها باب السيارة الأمامي، ربّتُ على يدها وذكّرتها أنها من
طلبت المجيء..

كم أكره القيادة ليلاً.. خاصةً حين يكون الطريق وعراً
ومُتربّياً كمعظم الطرق التي تؤدي إلى المقابر، وحين تجلسُ
إلى جوارك أنثى لا تكف عن النحيب، وحين لا يتوانى هاتفك

المحمول عن إصدار ذلك الصوت المزعج.. تفتح "تابلوه" السيارة بحثًا عنه لتُخرسه فلا تجد إلا كتابًا يحمل اسمك...

مهلاً.. أشعر أنني قد رويت هذا الجزء من قبل؛ حين بدأتُ الحكى أثناء محاولتي لفتح باب حوش المقابرالذي استجاب بعد عناء. كان خاليًا كما اتفقت مع سلامة اللحاد الذي لم يُحاول أن يفهم؛ ترك لي فأسًا صغيرةً خفيفة الوزن. توجَّهت نحو شاهد القبر القابع في ركنٍ قصيٍّ من الحوش، والذي يحمل اسم رفعت الطحاوي.. ركعت على ركبتي واستخدمت حدَّ الفأس لأكشط طبقة الأسمت المُحيطة بالرخامة الحاملة لاسمه والتي نحتها منصور منذ زمنٍ، ثبتُّ طرف الفأس كأنه عتلة خلف الرخامة الملتصقة وبدأتُ أنتزعها بحرصٍ كي لا تتحطم، كانت مُثبتة جيدًا فتطلبت مني الكثيرَ من الجُهد لإخراجها سليمةً. قالت لي إيفلين وسط دموعٍ جافةٍ إننا يجب أن نرحل الآن، لم أعبأ بقولها.. وحين كَرَّرت طلبها بلهجةٍ أكثر قلقًا أشرتُ لها ضامًا أصابعي حول بعضها وأنا أحركُ يدي بشكلٍ رأسي كي تصبر؛ معللاً أن ما خططنا له يجب أن يتم على أكمل وجه.

نهضتُ من أمام القبر متوجَّهًا نحو آخر، لمحتُ شيكارة الأسمت التي حرص رزق دوّمًا على عدم نفاذ ما بداخلها لتتغلق تُرب العائلة كما يجب.. أخبرني اليوم بعد دفنة ناجي أن الشكارة أصبحت خاويةً، وقال مُبتسمًا لن نحتاج

لشراء أخرى لفترةٍ طويلةٍ!.. لم أفهم معظم حديثه كعادتي. يبدو أنه نسي أن يتخلص منها وتركها مُلقاةً بجوار قبر أخي، نظرتُ إلى شاهد قبره الخالي من أي دليلٍ على وجود ناجي بداخله، أخبرني عطوة صباحًا أنه طلب من منصور قطعة رخامٍ منحوتٍ عليها اسمه، لم أخبره أنني لن أراها لأنني سأكونُ قد سافرت..

أطلقت إيف صرخةً مدويةً بعد أن التصقت بي في فزعٍ، أقسمت أنها سمعت صوتًا غريبًا، سألتني إن كنتُ قد سمعته مثلها.. أخبرتها أن ما تسمعه هو محض هواجس لأن هذه أولى زياراتها للمقابر، قبّلتُ رأسها مُربتًا على كتفها.. أخبرتها أن رحيلنا قد اقترب؛ وأن لحظة الحساب قد بدأت. ضربتُ الأسمت المحيط بمدخل مقبرة أخي، ضربتني بالفأس كانتا كفيلتينٍ لتحطيم القفل، دخلتُ إلى المدفن حتى بلغت كتف ناجي، حملته برفقٍ خارجًا لإيفلين التي فزعت من المنظر، أرحت ظهره على شاهد القبر، وقفتُ لألتقط أنفاسي بعد هذا المجهود الكبير، نزعت الكفن عن نفسه العلوي، وصفعته على وجهه!

فتح عينيه بصعوبةٍ، لم يُحرك ساكنًا كما كان حالي حين أخذتُ نفس التركيبة منذ شهور.. لم أُرِد منه سوى وعيه، نظرتُ له بحنقٍ وقلتُ له غاضبًا بلهجةٍ أشبه بالفحيح:

- ينفع الي عملته فيًا ده يا ابن والدي!؟

لم أجد إجابةً عن سؤالي سوى الصمت، طلبتُ مني
إيف الإسراع، لم أعبأ بها، نظرتُ إلى وجهه الساكن وعينيه
المتسعتين عن آخرهما، وضحكتُ بهستيرياً قائلاً:

- مش هاترد طبعًا.. طول عمرك بتعرف تدافع عن
الباطل وتحوّل الغلط صح، المرة دي أنا سلبتك الحق
ده؛ عشان أنا متأكد إنك هتتعرف تبراّ نفسك قدامي!
أكملتُ حديثي مُبتسمًا بخبثٍ:

- بس إيه رأيك في تمثيلي؟.. مُحترف مش كده؟!

قلدتُ ما فعلته منذ ساعاتٍ، وقلتُ بلهجةٍ مفتعلةٍ
ساخرًا:

- البقاء لله يا جماعة.. إكرام الميت دفنه.. مش هاقدر
أعمل له حاجة.. ما يعرفوش إنك لازم تتحاسب هنا
الأول، قبل ما تتحاسب فوق.

لم أعبأ بعينيه اللتين لم تكفا عن التحرُّك من محجريهما،
ولا من منظر إيفلين التي أوشكت على أن تفقد وعيها
وقلتُ بجديّةٍ:

- بس بصراحة خطتك كانت حلوة، واتلعبت صح جدًّا..
لولا شوية غلطات صغيرة؛ أولهم موافقتك السريعة
على فكرة التجربة، واللي كان أي أخ ممكن يقلق فيها
على أخوه أو حتى يتشاءم من إنه يتوصم بالموت،

تانيهم جار أمجد اللي شاف عربيتك ووصفها في مكاملة
مجهولة للبوليس.. وطبعًا أنا ماكنتش مهتم أعرف
مواصفات العربية، ولا حتى أهل أمجد عمرهم ما
كانوا هايخمنوا إن إنت اللي عطّلت الفرامل وقتلت
ابنهم.

ثم أشرت إلى إيف التي كانت مشدوهة لا تُصدق منظر
ناجي الملقى أمامها ملفوفًا في كفته لا يبرز منه إلا رأسه
الساكن:

- وتالتهم الست دي؛ الوحيدة اللي وقفت جنبي في
الوقت اللي أهلي باعوني فيه، وفي عزّ ما كل الناس
كانت خايفة مني؛ هي اللي لاحظت عربيتك وربطتها
بالمواصفات اللي اتقالت لها في المحضر. كل دي كانت
أجزاء صغيرة من صورة أكبر بكثير، كل تصرفاتك فيها
ما لهاش مُبرر واحد؛ صحيح لولا ستر ربنا اللي نجّاني،
لما بعت لي نبّاش كان زمانك وارث أرضي ومتجوّز مراتي،
بس أكيد ده مكانش غرضك الرئيسي من إني أتدفن.

أشرت لإيف التي أخرجت من حقيبة يدها ملفًا ورقياً
ملفوفًا، ركعت على ركبتي حتى تقابل وجهينا.. فتحت
الملف مُمسكًا برأس ناجي لأوجه عينيه نحوه بعنْفٍ:

- بص كده يا ابن أمي وأبويا، ده ملف عليه اسمك
لقيته بالصدفة وسط ملفات المرضى لما رُحت أنصف

عيادة أمجد مع إيف، وسبحان الله اتشخّصت بنفس
المرض اللي كان عندي: النيكروفويا!

مكتوب في الملف إن أمجد عرض عليك التجربة قبل
ما يعرضها عليّ.. بسّ إنت كعادتك كنت جبان؛ زيّ يوم
الحادثة بالظبط: فضلت مرمي في حضني وسبّنتي أعيش مع
الكارثة لوحدي. وطبعًا إنت اعتمدت على إن أمجد مُلزم
يحافظ على أسرار الحالات اللي عنده، وقرّرت تجرّب فيّا
العلاج؛ يعني لمّا فتحت عليّ الكفن في المُستوصف عشان
تخلّيني عارف أتنفس.. ما كانش حبًا فيّا.. إنت بس كنت
عايزني أكمل التجربة للآخر وتشوف إيه ممكن يحصل
لي لحدّ ما أدفن، وأكد كنت هاتفتح التربة بأيّ حجة
بعدها بكام يوم تشوف جثتي اتحرّكت جوّه النعش ولا لأ..
لو اتحرّكت يبقى أنا فضلت عايش بعد الدفن والتجربة
نجحت وتقدر تجرّب التركيبة براحتك، ولو كنت فضلت
ساكن تحت الأرض تبقى روعي طلعت قبل خضة القبر
والتركيبة فيها حاجة غلط من الأساس.

ظللّ يفتح ويُغلق جفنيه بنظرة غير مُصدقة، لأول مرة
في حياتي أشعر أنّي أفهم لغة العيون، فهمت أنه يُحاول
أن يُبرئ نفسه، أن يقول الكثير مما يدفع عنه أذاي، قلتُ
له مُبتسمًا:

- نفس النظرة الي شوفتها في عينك يوم ما دخلت عليكوا بيت العيلة وإنتوا بتقسّموا تركتي، بسّ المرة دي مش هاتقدر تجري تجيب لي دكتور عشان تشوف التركيبة هاتفضل معيْشاني لحدّ إمتى.. وأكيد هيّ دي نفس النظرة الي كانت على وشك لما خسرت قضية الحَجْر. أنا بقى قرّرت لأول مرة في حياتي أكون أنا الفِعل؛ فبعثت لك إيف المكتب تحطّ لك التركيبة من غير ما تاخذ بالك؛ قلت أخليك تجرّبها بنفسك وتشوف كل آثارها، مش بسّ عليك وكمان على الي حواليك.

أخبرتني إيف بلهجة جامدة أن موعد الطائرة سيفوتنا، فقلتُ خاتماً حديثي:

- حاول تتعود يا ريس مع وضعك الجديد؛ مع ناس خايفين منك، ومع أهل طمعانين فيك ماعندهم مش مانع يحجروا على كل الي حيلتك لما يكتشفوا إنهم مش هيورثوا منك مليم. أنا طلعت أجدع منك وقرّرت أسيبك تورث كل حاجة كانت ليّيا؛ عشان بسّ تشوف الحياة بعنيّا، وتعيش نفس القرف الي أنا عيشته، ولو سامح اتصل بيك عشان تعمل إنت الموسم الثاني وافق عشان فلوسه كثير.. أنا خلاص شبعت فلوس وقررت أسافر أبدأ من جديد.

لمحْتُ الفزع في عينيه أثناء مُغادرتي من بوابة الحوش،
فقلتُ له مُستدرِّكًا:

- ما تقلقش أنا مش وسخ زيِّك ومش هاسيبك مرمي
تحت الأرض وسط عضم الأموات.. رزق هيجيلك كمان
شوية معاه التركيبة الثانية اللي هاتفُك جسمك، والعلاج
اللي بيعالج آثار التركيبتين؛ وآهه بالمرّة تلحق تاخذ
العزا بتاعك بنفسك.. عيش بقى يا ابن الطحاوي.

توجَّهتُ مُسرِّعًا إلى بيت العائلة لأغتسلَ وأغيِّرَ ملابسي
التي تكوِّم الترابُ عليها، وصل سائقُ سيارتي البديلة بسيارة
أجرة كما طلبتُ منه، استفسر عن سبب غيابي عن عزاء
أخي.. أخبرته أن سفريَّةً طارئَةً منعتني، وعدني بالتوجُّه
إلى المطار في أقل من نصف ساعة من طريقٍ مُختصر. لم
أصدقه إلا حين نفَّذ ما وعد به، ساعدته الشوارع الخالية
والمقاهي الممتلئة، أوقف السيارة حين وصلنا إلى بوابة
المطار، ساعدني على إنزال الحقائب، تركتُ له السيارة
يعمل عليها حتى أعودَ من سفري وأستردها، سألتني عن
ميعاد عودتي، فهزئتُ كتفيَّ وأشرتُ إلى السماء حيث العليم
الوحيد بأوان رجوعي.. سألتني عن السيارة الفارهة التي كان
يقودها جبران.. قلتُ له إنني بعثتها، لم أخبره أنني أعطيت
أموالها لفرحات الطحاوي؛ حتى يحوِّل بيت العائلة القديم

إلى مدرسةٍ مجانيةٍ لأطفال طحا. عرفتُ بعدها بفترةٍ طويلةٍ
أن فرحات سمّى المدرسة: "فرحة".

عند مدخل المطار طلبتُ مني إيف الإسراع للانتهاء
من إجراءات السفر التي قد تستغرقُ وقتًا.. أخبرتها
أنني أريدُ التقاط أنفاسي قليلاً بما أننا قد وصلنا باكراً
عن ميعاد الطائرة.. ابتعدتُ عنها مُستئذناً لأقوم بمكالمةٍ
هاتفيةٍ لصديقي الذي يعمل هنا ليُنجز لنا كافة الأوراق
أثناء انتظارنا في استراحة المطار.. نظرتُ إلى ساعة يدي
أثناء الجلوس: كانت الساعة الثامنة والرابع مساءً، لم يكن
حولنا الكثير من الصحبة.. كانت الحركةُ في المطار غريبةً؛
فمعظم الحراس واقفون أمام جهاز تلفزيون في إحدى
الغرف الجانبية، لمحتُ بطرفِ عيني مُسافراً يجلسُ قريباً
منا ويُحاول التقاط إشارات راديو محمول، لم أفهم ما
الحدث الجلل الذي يُحاول الجميع متابعته، كما لم أحاول
أن أفعل.. نثرتُ إيف شَعرها على كتفي حين أراحت
رأسها فوقه محتضنةً ذراعي، هَمَسَتْ بعبارة حُب لم أعتد
سماعها منها، تحدّثت عن إعدادها لكافة تفاصيل زواجنا
في ألمانيا، أخبرتني الكثيرَ عن طقوس الزواج لديهم.. هزرتُ
رأسي سارحاً فيما هو أهم؛ كم أرغبُ أن ينتهي هذا اليوم
وأغادر مصر.

مدَّت يَدَهَا فِي حَقِيبة يدها.. اندهشتُ حين اكتشفتُ أنها أحضرت كتابي- الذي لم أكتبه- من السيارة معها، نظرتُ إلى غِلافه السَّميك وعبارة "العودة من الموتِ إلى الموت" التي تتوسطه، طالعتُ اسمي المكتوبَ بخطِّ أصغر مُستنكراً هزلية الموقف؛ لم أعلم ما الذي أثار إعجاب إيف في كتابٍ لم أكتبه ولا أعرف محتواه من الأساس. أشادت إيف بجودة الورق الداخلي للكتاب، فتحته وحاوَلت جاهدةً القراءة، طلبتُ مني أن أقرأ لها منه حتى يأتي صديقي الذي سيُنهي الإجراءات؛ فتحتُ أول صفحةٍ في الكتاب التي كُتِب فيها إهداء لكل أموات عائلتي بالاسم؛ يبدو أن لطفي يعرف ما يفعلُه جيداً.. فقد أحضر من اجتهد وبحث ليعرفَ عني ويكتبَ بلساني بشكلٍ مقبولٍ، بدأتُ بالمقدمة القصيرة المدونة في الصفحات الأولى، وقرأتُ ببطءٍ على إيف قائلاً:

"مؤلمٌ هو ذاك الموت؛ أن ترحل بغتةً، يتوقف جسدك كما كينةٍ انقطعت عنها الكهرباء إلى الأبد، تسمع أحبابك يصيحون فيك لتبقى.. وكأن عودتك خيارٌ تتخذه بكامل إرادتك. أن تذهبَ في رحلةٍ لا تأجيل لها ولا عودة منها، لا تعلم مُنتهاها ولا تملك لها زاداً كافياً من العمل الصالح، يتردد في ذهنك سؤالٌ مفزعٌ لا مفرَّ منه: "فيمَ أفنيت عمرك؟" .. ولكن الأكثر فزعاً أنك لا تملك إجابةً شافيةً عليه!"

تعجبتُ من اللهجة الدينية التي اكتست بها المقدمة، فأسرعتُ القراءة بعيني أبحثُ عن نهايتها، طلبتُ مني إيف التمهل في غمغماتي فقلتُ لها إن المكتوب لا يتسق مع محتوى الكتاب المزعوم، قلبت صفحاته سريعاً بنظرةٍ عابرةٍ استشففتُ منها أن المحتوى لا يختلف كثيراً عما كنا نقدمه في البرنامج، حتى وصلتُ إلى الخاتمة التي سَطَرَ فيها: "لا يستغرق الأمرُ طويلاً.. فخلال بضعة ثوانٍ تحدث النهاية؛ كمحارب عظيم يُجهز على منافسه بأسرع الطرق الممكنة.. فيزداد نشاطُ المخ بشكلٍ مفاجئٍ ليتوقف بعدها بلحظاتٍ، وتنخفض حرارة جسدك تدريجياً، تبدأ خلايا جسدك بالموت بسبب انقطاع النَّفس وبعدها يبدأ التآكل من الداخل، وبعد سويعاتٍ تتييس عضلاتك ويتخشب جسدك، و..."

لم أستطع إكمال تلك الخاتمة المفزعة التي لمحتُ نهايتها التي تتحدث عن كافة الحالات التي يمرُّ بها الجسد بعد الموت. حاولتُ تغيير الموضوع؛ فأخبرت إيفلين أنني بحثتُ عن معنى اسمها فوجدته: "الحياة" .. ردَّت بابتسامةٍ أن أمها أخبرتها ذات مرة أنه يعني "الطائر الصغير"، قلتُ مازحاً إن جزءاً من اسمها "إيفل" أي الشيطان، لتجيب ضاحكةً أنني اقتطعت الجزء الخاطئ من الاسم؛ فإن تدليلها "إيف" يعني حواء.. ضايقْتُها حين قلت إن لها حظاً من جميع هذه المعاني!

لمحت ضابطين يدلّفان إلى صالة الانتظار مُسرّعين..
سألتُ إيفلين إن كانوا قد علّموها في بلادها أنّا سُدّج.. لم
تفهم سُؤالي وأعربت عن قلقها حين توجّه الضابطان نحونا.
سألني أحدهما عن هويتي فأجبتُه مُبتسمًا بهدوءٍ؛ بعد
أن أخرجتُ كافة أوراقِي.. طلب الضابط الآخر من إيف
جواز سفرها فنظرت لي خائفَةً حتى أخرج الجواز المزوّر،
تجاهلثها ونظرتُ للضابط سائلًا عن السبب فأجابني بحزم:
- فيه بلاغ إن دكتورة إيفلين حرّضت على قتل جوزها
دكتور أمجد عمّار، وإنها بتحاول دلوقتي تهرب برّه
مصر.

لم تردّ إيفلين، فأجبتُ الضابط بنفسِ هدوئي:

- الدكتورة إيفلين جايه تودّعني لأني مسافر، مش هاتهرب
ولا حاجة.

نظر الضابطُ إلى إيفلين قائلاً بلهجةٍ جادة:

- بعد إذن حضرتك اتفضّلي معانا مش عايزين نعمل
قلق في المكان.

سألتُ إن كان جديد قد جدّ في قضية أمجد فقال
الضابط بهدوء:

- أستاذ جبران سمير مساعد جوزك الله يرحمه اعترف
خلاص إنك حرّضتِه على جريمة القتل.

طلبت مني إيفلين أن أرددَ على الضابط وأخبره بالحقيقة
التي أدركها كالشمس، فأجبتَه صادقًا:

- كلامك صحَّ يا أفندم..

نظرتُ لي إيفلين مصدومةً.. تجاهلتُ همساتها، وأكملتُ
حديثي مُبتسمًا:

- أنا أصلًا اللي بعث لكم جبران يبُلِّغ عن الهانم.

تجاهلتُ صدمة إيفلين طالبًا من الضابط أن يسمح
لي كي أنفردَ بها لدقائق قبل أن يصطحبها معه، وافق على
مضضٍ.. قبل أن تثور في وجهي قلتُ لها مُبتسمًا:

- مش ملاحظة إن الصُدْف اللي وقَّعت ناجي كانت كثير
زيادة عن الواقع؛ يعني بالصدفة ألقى ملف باسمه
في عيادة أمجد؛ اللي كان دايماً يشكرني على حمايتي
لأخويا، وبالصدفة برضه تيجي مكاملة "مجهولة"
توصف عربيته بالمللي مع إن الحادثة حصلت في عزِّ
الليل.. وأول ما أقول لك إني شاكك في ناجي وإني عايزك
تروحي له مكتبه ما حاولتِش تدافعي عنه، وما
ترددتِش لحظة في إنك تحاولي تسميه بالتركيبة الشؤم
بتاعتك.. واضح إنك خبرة في الموضوع ده؛ من أول ما
حطيتي لي حاجة في الأكل تخليني أحسَّ بوجع في قلبي
عشان أقتنع إن نهايتي قرَّبت.. وشوفي حكمة ربنا: أول

ما بعدت عنك الوجد راح وبعدها بكام يوم تقوليلى
إنك اكتشفتي العلاج!.. كنتي عايزاني ماشوفش غيرك لما
لقتي إني تذكرتك الوحيدة للهروب؟

حاولت أن تردّ فلم يخرج منها سوى كلمة "ناجي"..
ألزمتها الصمت مُقاطِعًا حديثها بإشارةٍ حازمةٍ من يدي،
وأردفتُ قائلاً:

- ناجي طمّاع وكلب فلوس وفيه كل العبر.. بس مش
قاتل؛ هو بغبائه سهّل لك مهمتك ولبس نفسه في
دم أمجد لما رفع قضية الحجر. وبصراحة أنا كنت
قرّبت أصدّق إنه عملها، وأنسى إنه أنقذ حياتي كذا
مرة وسط التجربة.. لحدّ يوم ما رُحت لجبران شقته
ولقيت النسناس لسه عايش.. الواد ما كدّ بش خبر
وحكى لي كل حاجة: من أول ما طمّعتيه في صاحبه اللي
وثق فيه عشان يعمل لك بوليصة تأمين باسمك، ولحدّ
ما طلبتي مني أشغله معايا عشان سهّل عليكي تعرفي
كل أخباري، وتوقّعيني في ناجي أخويا.

نظر لي الضابط بقلقٍ مُشيرًا إلى ساعته، أومأت له طالبًا
لحظاتٍ إضافيةً معها.. نظرتُ إليها مُكملاً حديثي:

- بس للأمانة الواد كان جدع معايي لآخر لحظة؛ أنكر في
الأول إنه قتل أمجد.. وعشان أبراً ناجي قدام نفسي
رُحت بعدها لدكتور أنس بتاع مافيا الجثث؛ واللي

أُكِّد لي إن أخوه كريم كان مراقب أمجد لحظة بلحظة، وإن ما حدث ظهر ليلتها غير جبران اللي وقف جنب العربية دقايق قبل أمجد ما ينزل على طول. رجعت تاني للكلب بتاعك وعملت عليه شويتين السحر اللي اتعلمتهم من البرنامج.. عيِّط واعترف إنه هو اللي عطَّل الفرامل، وإنه كان عارف منك موضوع التجربة، وإنكوا ما لقيتوش معاد أنسب من ده عشان تقتلوا أمجد؛ لأن موتي هيغطي على شكوك الناس في قتل أمجد.

أمسكتُ ساعدها بقسوةٍ قائلاً:

- يعني طول الوقت ده ما كنتش أنا المقصود.. كانت حادثتي مجرد غطا ليكوا، وناجي مجرد مُتهم مناسب الجريمة متفصلة على مقاسه.

أخبرتها أن خدعتها كانت ستُخلق كلعبة الدومينو، ولكن القدر أبي إلا أن يكتمل الدور، وأكملتُ ضاحكاً:

- بس ملحوقة؛ أنا خيَّرت جبران بين إنه يسلم نفسه ويعترف عليكي، وبين إني أبلِّغ عنه كشريك أساسي في الجريمة، وزبي أي كلب مطيع قرَّر يعترف عليكي. وحتى لو حصلت معجزة وخدتي براءة؛ فشركة التأمين ما هتصدِّق تمسك في اعترافه وما تدفعش ليكي مليم.

ومش هاتعرفي تماطلي معاهم في الإجراءات لأن إقامتك
غالبًا هتكون خلصت.

قالت إيفلين وسط دموعها:

- كل اللي كنت عايزاه إني أرجع بلدي، أمجد كان رافض؛
قبل ما يموت كان بيعاملني كأني خدامة كل المطلوب
مني إني أخدمه وأخلف له ولد، وفلوسي كانت بتتحط
في حساباته.. بس أنا حبيتك بجد.

أمسكتُ ساعدها بحزم، وقلتُ بصوتٍ حاولتُ أن أجعله
خفيًا:

- وأنا كنت فاهم إني حبيتك، وما كنتش هاصدق أي حاجة
من دي ولا هاشك فيكي أصلًا لولا غلطتك الكبيرة: لما
زورتي ملف لناجي عند أمجد وكتبتي فيه إن مرضنا ده
موروث.. لما رُحت المصححة أطمئن على شكري وأحجز
مكان لخالد قابلت دكتور نجيب السعدي وسألته في
الموضوع ده؛ أكّد لي إن مستحيل أمجد ولا البروفيسور
الأجنبي بتاعه يفكروا في علاجي بطريقة الصدمة لو
كانوا شايفين مرضي موروث جينيًا.. لأن العلاج بالصدمة
بينجح بس لما الشخص بيكون مريض نتيجة صدمة
نفسية قديمة؛ زي حالتي كده بالظبط.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ لافتًا بعض الأنظار نحوي، شكرتها
على كل ما علّمته لي، وطلبتُ من الضابط أن يصطحبها..

امتتّ لتعاوني معه وسألني عن موعد بداية الموسم الثاني من برنامجي فقدّمت المشيئة وأخبرته كذبًا أنني سأُنهي عطّلي وأعود لأعمل في إعداده، صرختُ إيفلين لاعنةً بالألمانية؛ لم أعلم هل لعنتني أم لعنتُ حظها العثر الذي أوقعها في أخطاء ساذجة.. كانت هذه من المراتِ القليلة التي أشعرُ فيها بالثقةِ في ذكائي؛ على الرغم من بساطة اكتشافي إلا أنه أنقذني من مكر ناجي وعطوة وهذه الشيطانة.

عاد أحدُ الضابطين مُقاطِعًا لحظات نشوتي، قال بهدوء إن إيفلين ادّعت أنني زوّرت جواز سفر لها باسم نور يوسف.. ضحكتُ مُخرِجًا له جواز السفر الذي يحملُ هذا الاسم، وأخبرته أن نور هذا رجل وليس امرأة، وأنه صديقي يعمل في التجارة؛ وقد استأذن مني قبل دقائق لدخول دورة المياه، حثّني على الانتهاء سريعًا من إجراءات التفتيش وختم جوازي السفر، فشكرته قائلاً إن نور سيأتي الآن لنستكمل الإجراءات وننضم للرحلة الجوية المُتوجهة إلى الإمارات.. قاطع حديثنا صياحُ العاملين بالمطار الذين كانوا يُتابعون التلفزيون، فزعنا من الجلبة التي أحدثوها والصراخ الذي صرخوه، سألت أحدهم عما حدث فقال فرحًا:

- أبو تريكة جاب جول في الصفاقيسي.. عملها في آخر دقيقة!

البداية

" لَا تَخَفْ كَثِيرًا مِنَ الْمَوْتِ، بَلْ مِنَ الْحَيَاةِ النَّاقِصَةِ "
بِرْتولت بريشت

خرجتُ من مطار دبي الدولي، لمحتُ سائق السيارة الأجرة التابعة للفندق الذي حجزتُ إقامتي فيه يلوحُ لي من بعيدٍ. أبطأتُ حركتي وتعمّدت تضييق خطواتي لأساير الشخص المرافق لي، توقفتُ لأتنشق هواءً جديدًا مذاقه على رثتي؛ لم أفهم سرَّ استمتاعي به؛ أعطيتُ نفسي لحظاتٍ لأستمتع أكثر برائحة الهواء الخالي من التلوث الجوي والفكري.. قررتُ أن أبدأ حياةً جديدةً بعيدًا عن كل ما مررتُ به. ضربني مرافقي على كتفي بشدةٍ قائلاً:

- بس ما لقيتش غير اسم نور ده تسميني بيه؟!!

ضحكتُ قائلاً:

- ما له نور بس؟

- اسم مايع كده، بذمتك العُمدة رفعت الطحاوي يبقى
عايش باسم نور يوسف!؟

- كان لازم أسميك اسم ينفخ رجالي وحريمي؛ عشان
الستّ إيغلين تصدّق إن الباسبور بتاعها ومتاخدش بالها
إني لازق صورتها فوق صورتك يا حاج.

- بس ما سفرتنيش باسمي الحقيقي ليه؟

- لأنك كنت عايش بهوية تانية ومزيّف موتك.. أنا ما
أعرفش موقفنا القانوني بالظبط بس قلت نلعب في
المضمون، المهم إيه رأيك في الشغل؟

ردّ رفعت وهو يتكئ في مشيته على قدمه اليسرى،
مشيراً إلى البدلة التي يرتديها لأول مرة في حياته:

- بس مش كنت صوّرتني بالبدلة الجديدة دي.. بدل
الصورة القديمة اللي خلّيت المزور بتاعك يلعب فيها
عشان تبان متصورة قريب!؟

- معلش بقى ما كانش فيه وقت نستنى صورة جديدة،
أوعدك بكره أعمل لك Photo session بالبدلة.

- فوتو إيه؟!.. الله يرحمها؛ ما عرفتش العربية غير لما
داستها.

اقتربنا من السيارة التي وقف سائقها في انتظاري جامد
الوجه فاتحاً بابها الخلفي بعد أن رصّ الأمتعة في الحقيبة

الخلفية للسيارة.. سرتُ مُحاذيًا لرفعت صامتًا أفكر في حياتي القادمة، قاطع أفكاري ثلاث فتياتٍ ممشوقات القوام ما لبثن أن صحن بإعجابٍ فور أن تعرّفن على ملامحي، قالت إحداهن بلهجةٍ شاميةٍ إنهن من متابعات برنامجي واحترمن صراحتي في نهايته.. طلبتُ أخرى التقاط صورةٍ تذكاريةٍ معي فوافقن مُرحبًا؛ أخرجت هاتفها المحمول المزوّد بكاميرا، تلفتت حولها باحثةً عمّن يحمل هاتفها ذا النوع الحديث، طلبتُ من السائق أن يلتقط لنا أكثر من صورة.. ابتعدت رفعت من الكادر قائلاً وهو يضحك للفتيات:

- مش عايزين تتصوروا معايا أنا كمان؟!.. تؤبروني يا حبايب قلبي.

عاد السائق ليُمسك باب السيارة الخلفي، أشار لي كي أركب؛ فتنحيتُ لأفسح الطريق أمام رفعت ليركب قبلي، طلب مني السائق بصوتٍ خفيضٍ مهذبٍ الركوب كي نبلغ الفندق قبل الغروب.. خرج رفعت من نافذة السيارة مُلوحةً للفتيات، راح يُغازلهن بعبارات الغزل القديم.. ضحكت من قلبي كما لم أفعل منذ دهرٍ. طلبتُ من السائق أن يُغلق الحاجز الفاصل بين المقعدين الأماميين والأريكة الخلفية للسيارة كي لا يسمع حديثي مع رفعت، قلت له وأنا أنظر إلى ساعة يدي:

- زمان دلوقتي البلد كلها عرفت موضوع سفري.. وزمان
ناجي بقى شيخ هو كمان.

قال بهدوءٍ:

- يستاهل.. خليه يشوف اللي إنت شوفته ولو مرّة في
حياته.

- كان عندك حق يا أبو الرفاع؛ التار لازم يتسوّى على
الهادي ومكانش ينفع يتأخذ غير بالعقل.. بسّ اللي
مضايقني إن عطوة ما خدش نصيبه من الطاجن.

ابتسم رفعت وقال:

- عطوة طمّاع، والطمّاع عقابه إنك تسيبه لدماغه.. هي
موديّاه في داهية لوحدها.

أمّنت على كلامه مُضيفاً أن القدر قد أخذ منه ما أخذ،
حاول الاطمئنان من ردة فعل سامح أبي خاطر.. أجبته أنني
اتصلت عليه مُعتذراً وشرحت له الظروف ووعدته بأن
أجد له التعويض المناسب حين أعود.. لم يغضب كثيراً
بسبب الجدل الذي حدث بعد الحلقة التي حققت نسبة
مشاهداتٍ خرافية، استفسر رفعت عن سبب اختياري دبي
بالتحديد وجهةً للسفر، فقلتُ له مُبتسماً:

- إنت مش كان نفسك تبقى "حاج" بجدّ بدل ما إحنا
بنقولها لك مجاملة كده؟

أطلق سبّةً بذيئةً قائلاً:

- هاحج في الإمارات يا ابن الـ.. طحاوي؟!!

ضحكُ قائلاً:

- يعني خدت بالك من دي، وما ختّش بالك إننا في شهر

شّوال؟!!

حكّ رأسه بعدم فهمٍ، فأخبرته أننا سنقضي عطلةً في دبي
لكي نتمتع ونتناسى كل ما قاسيناه خاصةً في الفترة الماضية،
عاتبني ضاحكاً:

- إنت جاي تفسد أخلاقي يا ابن أحمد الطحاوي?..

طب كنت راعي إني رجل برّه ورجل برّه برضه.

أردف مازحاً وهو يُشير إلى السائق من خلف الحاجز:

- بعدين مش أنت قلّعتني الجلابية وضيّعت هيبتي،

خليه يودّينا كازينو مُحترم.

سعل طويلاً واهتزّ صدره بألم، دعوتُ له بالسلامة..

فعقّب قائلاً:

- أنا شكلي تعبت من الهوا النضيف.. كده أنا وأنت

بقينا "عيّان وميت".

ضحكنا بصوتٍ عالٍ، قلتُ لرفعت بحسرةٍ بعد برهةٍ

من الصمت:

- تفتكر ربنا هيسامحني على اللي فات؟

- إنت صحيح أذيت ناس كتير؛ بسّ ما كانش بدافع شرّ جواك.. كنت بتحمي نفسك من بطشهم بيك وبسيرتك.

عدّل رفعت من وضعه حتى جلس مواجهًا لي وقال
بلهجةٍ جادةٍ وهو ينظرُ إليّ مباشرةً:

- نسيت أقول لك ما تعملش حسابك على هجرة.. لازم ترجع بجنتي لما أموت عشان أتدفن في أرضي ووسط ولاد دمّي.

تجاوز عن عباراتي العائمة التي لا تعترفُ بشكلٍ مباشرٍ بأن يومه سيجيء حتمًا كسائر الخلق، وردّ على تمنياتي ببعد الشرّ عنه قائلاً إن الموت ليس بشرّ، وإن راحته في أن يلحق بفرحة وباقي نسلها ممن سبقوه. أضاف مُحذراً:

- وكمان لازم ترجع عشان أرضك اللي في طحا.

عقدتُ يديّ خلف رأسي بارتياحٍ من يبحث عن السّكينة؛ طمأنينة ما بعد الانتقام، يقولون إن لذته تنتهي فور حدوثه.. ولكنني ما زلت أشعرُ بلذته وأتذوق كل ذرةٍ فيها. كم أصبو إلى فترةٍ من السلام الذاتي؛ أن أحزن على الراحلين من أهلي، أن أذكر صباي مع صديق عمري قبل أن يموت غدراً. قلتُ بلامبالاة:

- مش عايز أرجع لهم تاني؛ الناس دي اختارت الموت،
وأنا اخترت الحياة.. بعدين أنا في غنى عن شوية الطين
دول...

لطمني على وجهي بعنفٍ مُقاطعًا حديثي بلهجةٍ ناهرةٍ:

- شوية الطين دول شرف جدودك، وتمنهم هايفضل رخيص
مهما غلي.. إوعى تفرط فيهم لألعنك في تربتي ليوم
الدين!

اعتذرتُ له مُعللاً أنني قد جيتُ من برنامجي الملايين
التي ستكفل لي حياة كريمة.. اعترض قائلاً إن الحياة الكريمة
في الحفاظ على العِرض وليس التفريط فيه.. حاولتُ إقناعه
بوجهة نظري، لكنه أشار لي بيده كي أصمت. لم نتحدث
ثانيةً لفترةٍ طويلةٍ.. أطول مما توقعت.

بعد فترةٍ توقَّف السائق أمام مدخل الفندق، فتح لي
باب السيارة فترجَّلت منها لأخطو بثباتٍ نحو بدايةٍ جديدةٍ.

تمَّت بحمدِ الله

٤ سبتمبر ٢٠١٦

شُكر خاص..

- د. محمد طه استشاري ومُدرس الطب النفسى بكلية الطب- جامعة المنيا، وعضو الجمعية الأمريكية للعلاج النفسى الجمعي، ومؤلف كتاب (الخروج عن النص) وكتاب (علاقات خطيرة).
- جزيل العرفان للأعزاء: أ. محمد عصمت، أ. منتصر أمين، أ. أحمد عبد المجيد، أ. محمد الصفتي، أ. إيهاب مصطفى، م. أحمد القرملاوي، د. أحمد خالد توفيق، دار تويأ ممثلةً في كلِّ من: أ. هالة البشبيشي و أ. شريف الليثي.. فلولا جهودكم المباشرة وغير المباشرة، لما خرج العملُ بهذه الصورة.
- - الصديق الدكتور مصطفى عزت، والعزيز أحمد جاويش على ما قدّماه من مجهوداتٍ بحثيةٍ.. والصديق محمود شعبان وأسماء عامر.

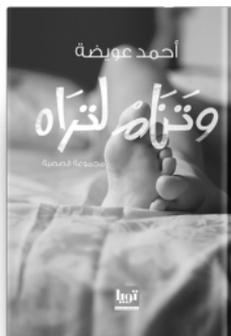
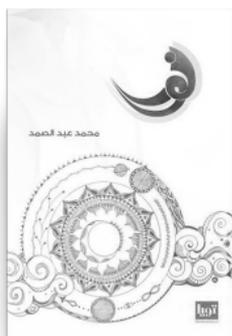


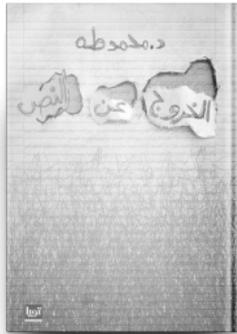
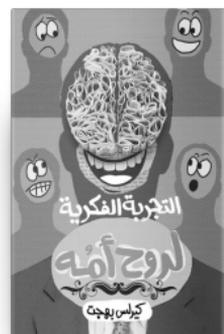
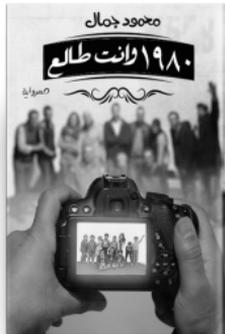


A series of horizontal dashed lines extending across the page, providing a template for writing notes.



Notes









دار توياء للنشر والتوزيع